



مؤلفاً - مارون عبّود

المجموعتنا الكاملة

من كل واد يجمعنا

المجلد الحادي عشر

دار مارون عبّود

من كل واد عصا

مؤلفات مارون عبود المجموعة الكاملة

مِنْ كُلِّ وَادٍ عَصَا

يحتوي هذا المجلد على :

- | | |
|-----------------|--------------------|
| مقطعات من زواج | (شعر) |
| كتاب الشعب | (تعريب) |
| مغاور الجن | تمثيلية (مقتبسة) |
| في النقد الأدبي | |
| خطب | |

المجلد الحادي عشر

دار مارون عبود

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٩٨٥

مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

الأول : في الدراسة

أدب العرب - الرؤوس

الثاني : رواد النهضة الحديثة - الشعر العامي -- جدد وقدماء

الثالث : النقد الاجتماعي

سبل ومناهج - حبر على ورق - آخر حجر

الرابع : النقد الأدبي

على المحك - مجددون ومجترون - في المختبر

الخامس : دمشق وأرجوان - نقداً عابراً - على الطائر

السادس : في القصة

فارس آغا - الأمير الأحمر

السابع : في الأقصوصة

أحاديث القرية - وجوه وحكايات - أقزام جبابرة

الثامن : في النقد السياسي

من الجراب - قبل انفجار البركان - أشباح

ورموز - مناوشات

التاسع : التراجع

أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان)
أبو العلاء المعري (زوبعة الدهور)
بديع الزمان الهمداني
أمين الريحاني

رسائل - مارون عبود والصحافة

زوابع (شعر)

كتاب الشعب (ترجمة)

مغاوير الجن (تمثيلية)

خطب

نقد

حياة مارون عبود من خلال ذكرياته

فهرس عام للمجموعة يحتوي :

الموضوعات

أسماء الأعلام

الأمكنة

الأمثال

الكتب والمجلات

العاشر :

الحادي عشر :

الثاني عشر :

كلمة لا بدّ منها

عندما أخذت دار مارون عبود على نفسها عهداً بالانجاء إلى التراث تحية ، وإلى بعض المغمورين ، تعيد الحياة إلى ما انطوى من نتاجهم ، كانت تهدف إلى إثراء المكتبة العربية ، وإلى أن تضع بين يدي القارئ العربي ذلك التاج وقد ألبسته أبهى حلّة فعلت منذ تأسيسها متعاونة مع من تعاونت معهم ، ولا تزال تعمل لبلوغ هدفها هذا . وليس لها من غاية أو همّ سوى خدمة التراث والحفاظ عليه وخدمة القارئ العربي وتيسير طريقه إلى تلك المؤلفات الثمينة .

وما هي اليوم تطلُّ عليّ القراء الكرام بهذه المجموعة الضخمة لمؤلفات مارون عبود التي تضمُّ كلَّ ما خطّه قلمه ، منه ما كان قد نشر مرّات ومنه ما يرى النور أول مرّة . وقد توخّت الدار في عملها هذا أن تجمع آثار هذا الأديب وتقدّمها للقارئ العربي بحلّتها الجديدة ، ميوّبة ، ومفهرسة ، بحيث تسهّل عليه الرجوع إلى ما يريد ، والوصول إلى ما يبتغي يسرّاً وسهولة . وقد جاءت المجموعة في مدخل ، واثني عشر مجلّداً ، وجعل المدخل ، كما تدلُّ التسمية ، مسعفاً في الدخول إلى المجموعة كاملة ، إذ احتوى على سيرة حياة الأديب وعلى كلمة وجيزة تناولت مؤلفاته الأولى والصحف التي عمل فيها والدوريات التي نشر على صفحاتها مقالاته .

أما العشرة التي تلي هذا المدخل ، فقد احتوت كل ما كان قد نشر من مؤلفات مارون عبود مقسّمة تقسيماً جديداً حسب موضوعاتها وأغراضها ، وقد اشتمل كل مجلّد منها على بيان بالموضوعات التي يحتويها وبأسماء الكتب التي يضمّها . وما كانت المجموعة هذه تحتاج مني إلى مثل هذه الكلمة لولا المجلد

الحادي عشر، الذي احتوى على الكثير مما يرى النور أول مرة، وعلى ما كان قد أبصر النور في فجر عطاء مارون عبود، ثم أسدلت عليه ستائر النسيان. وهذا الذي احتواه المجلد الحادي عشر، كما تدلّ عليه التسمية «من كل وادٍ عصا» لا يربط بين فصوله وأبوابه رابط معين، سوى أنها نثقات قلم يافع كان مارون عبود قد أطلقها وتمنى بعد ذلك لو يحلّ بها ما أنزل على «سدوم وعامورة». وقد يتساءل باحث أو دارس فيقول إذا كانت رغبة مارون عبود رحمه الله هي في أن يسدّل الستار على ذلك النتاج اليافع فلم تأتي دار مارون عبود وتعمل على معارضة رغبة كانت عند الكاتب فتعيد تلك الفصول إلى التداول؟

إنني أعترف بأنني تردّدت كثيراً وقبل أن تزيل الغبار عنها، وما تردّدي ذلك إلا بدافع من احترام رغبة المرحوم والذي في ألا يعاد نشر تلك الفصول، غير أنني آثرت أخيراً ألا أحرم الدارسين والباحثين أو ألا أخفى عنهم نتاج مرحلة مهما كان رأي صاحبها فيها، تظل الأمانة تقتضينا الإشارة إليها لتكون وقفنا عندها مفيدة لنا في تتبع ما تلاها من مراحل في إنتاج مارون عبود. لذلك لم أضمن هذا الجزء كل ما كان قد طوي، ربما تحيّرت بعض العينات والنماذج، منها المترجم، ومنها المقتبس، ومنها الموضوع، ومنها المنظوم ومنها المنشور. وجعلتها تحت هذا العنوان لتكون بين أيدي الدارسين صورة عن أدب مارون عبود في تلك المرحلة المبكرة من حياته الأدبية. أما القسم الذي لم أعد نشره منها، فهو محفوظ عندي في مكتبة «الصاحب بن عباد» مكتبة مارون عبود، وهي موضوعة بتصرف كل من شاء الاطلاع والاستفادة من الباحثين والدارسين.

وإني إذ أعاهد النفس، والقراء الكرام، على أن أظلّ، كما بدأت، وقيماً، أميناً، لآثار والدي، مارون عبود، أتمنى أن أكون بخطوتي هذه قد خدمت القراء من دون أن أسيء إلى رغبة كان والدي يتمناها. كما أتمنى أن تخدم آثار مارون عبود بحلتها الجديدة القارئ العربي وتيسّر له الرجوع إلى تراث مارون عبود والوصول إلى ما يبتغي، والله الموفق وهو خير معين.

نظير عبود

القسم الأول

قصائد مختارة من :

زوابع

كلمة

ضَعَّ محلّ هذه النقطِ النعتَ الذي تريده ، فأنا قد حلفت أن لا أكتبَ مقدمة لكتاب من كتبي . وأبيت أن أستجدي المقدمات ولو من أفلاطون . وامتنعت عن أن أقدمَ شاعراً أو كاتباً إلى القارىء . وسواء عندي أكان قد حملَ ذكره أم طار صيته حتى اختفى خلف الغيوم .

أعود فأقول لك هذه كلمة لا مقدمة . إنها كلمة أريد أن « أعترف » لك بها . فاطلعت في هذا الديوان على نزعاتي كلها ، بل على دخيلة نفسي ، حتى على « الأسرار » المكتومة منها .

وبعد . فاعلم ، يا عزيزي ، رعاك الله ، وحفظني وحفظك ، إن ديواني هذا ليس سلة ممش « لأوجتها » لك . فلا أنا بائعٌ ولا أنت شارٍ . لا يا أخي . إن هذا الديوان رسالة . . . عفواً . هو فكرة عشت بها زمناً رغداً . وما زلت أحنّ إليها ، وأنا على هواها . حالي معها كحال الرجل مع صاحبتة ، قد تنكّر له ، وقد يجفوها ، ولكنهما في الحالين ، حال الرضا والغضب ، والبسر والعسر ، حبيبان ، ودودان ، متيّمان ، مولّهان . . . ولولا ذلك لم يتشاكسا . أوكد لك أني لم « أحرد » يوماً كاملاً ، أي لم تغربِ الشمس على غضبي . . . ولهذا ها أنا أضع بين يديك الكريمتين قصائدي ، كما قلتها في وقتها . لم أحكك ولم انقح

إلا في قصائد معلومات ، وأنت ، لا شك . تعرفهنّ بلا عناء . . . إن
سيماهنّ في وجوههنّ .

فبعض القصائد التي ترى . لك أن تسمّيها خطباً - إذا شئت -
استخدمت لتؤدي فكرة ثائرة كانت تتقد في نفسي ولما تزل . ففيها
الشعر وفيها النثر . وأنا أعرف منها ما ستعرف أنت ، ولكنها في كل
حال تقضي لبانة من تعرض وصله . . .

فإليك إذن . مارون الشاعر في كل أطواره . بعجره وبجره ، كما
كانوا يعبرون . فارتع . آجرك الله . وأجزل ثوابك . في هذه الجنة
الغناء . ولك أن تقول فيها . بعدئذ . ما شئت .

هذا هو مارون عبود الشاعر . أما مارون عبود الناثر فهو رجل غير
هذا . إفهم يا صاحبي . ان الناقد يعرف الذهب ويميزه . وان عجز عن
خلقه . فإن رأيت عند هذا المارون ما لا ينطبق على آرائه في الشعر . حين
ينتقد غيره . فكن متأكداً أن مارون الناقد لن يرحم مارون الشاعر .
فوالله ، وبالله . وتالله . لأؤدبته أدباً صارماً . ولأحملنّ عليه . كما
حملتُ على غيره . حملات غواشم . فهو يدّعي أنه يؤدي رسالة منظومة
لينجو من يدي . فلسوف أرينه حين يقع ديوانه بين يدي ، ان هذا الادعاء
لا يعصمه ولا ينجيه . سترى أنني سأري ذلك المارون الوقح كيف يكون
النقد المرّ . وان يغضب فلا رحمه الله . ولتهتزّ عظامه في قبره . فكم
أغضبت غيره من قبل . أما قيل : بالكيل الذي تكيلون يسكال لكم وأزود ؟

انتظر يا قارئي ، انها ساعة لها ما بعدها في تاريخ النقد .

انتظر ، انتظر ، فما أقرب اليوم من غدٍ !

يخلق الشعر كلَّ يومٍ عروساً مثلما تخلق الخمور الحبابا
تتجلّى لنا العذارى فنكسو عريتها من بيانتنا جلبابا
لا تقولوا شيبنا ، فما الشيب عيبٌ . إن في الشيب ، من يبرزُ الشبابا
رب شيخٍ ما انفكّ عارضَ رمحٍ ، و غلامٍ في مبعثِ العمرِ « شابا »
رب شيخٍ ما شاخ حزمًا وعزمًا يتأبى لو استحالَ تُرابا
لو أتنا الحياةُ تَسْرُزِقُ العَـزْمَ نَحَلَّعْنَا على الحِيسَاةِ شِبابا

نشيدان

نظمت هذين النشيدين لسبب تربوي يدركه
اللييب . وقد أقرت الأول وزارة المعارف
اللبنانية . أما الثاني . وإن يكن مختصاً بمدرستنا
الجامعة الوطنية . فهو عام أيضاً بروحه ومغزاه .

نشيد الطلاب

طالب العلم هلموا واحملوا أسمى علم
علم العلم ليسمو قدرنا بين الأمم
أيها النشء الجديد أنت آمال البلاد
وبك الماضي يعود وعلينا الاعتماد
علموا الجاهل منا واجبات الوطني
خبروهم كيف كنا سادة في الزمن
قد خسرنا كل مجد وابتلانا جهلنا
ما تراه اليوم يبدي شيخنا أو كهلنا

أَنْتُمْ الْأَمْسَالُ أَنْتُمْ أَنْتُمْ الْمَسْتَقْبَلُ
 فَاذْكُرُوا مَجْدًا أَضَعَمَ وَلَكِي يَحْيَا أَعْمَلُوا
 * * *
 أُمَّةَ الْعُرْبِ يَمِينَا مِنْ بَيْنِكَ الصَّادِقِينَ
 سَوْفَ نَسَى مَا حَيِينَا فَخُذِي الْعَهْدَ الْمُتِينَ

انشودة الشباب

شَبَابَ الْبِلَادِ زَهْرَ الْأَمَلِ إِلَى الْمَجْدِ سَيَرُوا صَفْوَةً صَفُوفُ
 فَعَزَمُ الشَّبَابِ يَدُكَ الْقَلْبُ وَحَزَمُ الشَّبَابِ يَفْلُ السُّيُوفُ
 بَسَطْنَا عَلَى الْبَحْرِ ظِلَ الْمُنَى وَفَوْقَ الصَّحَارِي رَفَعْنَا الْعِلْمُ
 وَفِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ آثَارُنَا تَحَدَّثُ عَنَّا جَمِيعَ الْأُمَمِ
 فَكَيْفَ التَّوَانِي وَمَنَا الْأَلَى أَدَارُوا السُّفِينِ وَقَادُوا الْجِيُوشُ
 وَشَقُّوا طَرِيقَ الْعُلَى لِلْمَلَا فَشَادُوا عُرُوشًا وَدَكَّوْا عُرُوشُ
 * * *
 أَلَا فَاطَلَعُوا مِنْ سَمَا الْجَامِعَةِ كَوَاكِبَ عِلْمٍ تَنْيرُ الظُّلْمِ
 وَكَوْنُوا إِذَا دَعَتِ الْقَارِعَةُ نُسُورَ النُّضَالِ وَأُسْدَ الْأَجْمِ

ذَكَرُوا وَشَجَبُوا

وهذه القصيدة قلتها عند ظهور الآثار
العظيمة في جبيل ، ثم شاع خبر هجرتها إلى
الغرب ، فعزّ علينا فراقها فشيّعناها بهذه
القصيدة . . . وقد أنشدتها في حفلة سنة ١٩٢٣
ليلة عيد الميلاد .

أينَ الألى كانوا إذا العلمُ استوى يتنفّضون كأنهم عقبانُ
عقدوا اللواءَ على صيانة أرضهم فتمردت في ظلِّ الأوطانُ
لهفي ، وما يجدي عليّ تلهّفي عندَ البليّةِ يُحمّدُ السلوانُ

* * *

إن تسألوا «مصرأ» عن الأقبالِ في وادي الملوك تُجيبكمُ التيجانُ
و«جبيل» كم فيها لنا من مُنبئٍ فلكلِّ قبرٍ منطقٌ ولسانُ
ذِكْرٌ تروغُ الدهرَ إن نفعتُ ، ولا تُجدي إذا ما سُدتِ الآذانُ
لم يبقَ من أجدادِ مشرقنا سوى «آثارٍ» عزّته ، وأينَ تُصانُ ؟

* * *

آثارنا ، بالله ربك نخبري
كنّا وكان العزّ ملء برودنا
ويعيدُ هذا الشرق سالف مجده
تلك العواصم أنّنا أقرانُ
ولسوف تُرجعُ مجدنا المرانُ
إنّ ألفت أحادها الشبانُ

* * *

يا شرق ، ويحك ، إن داءك قاتلُ
نثروا بأرضك بذراً شرّاً تعصبِ
نصبوا لنا شرك الردى فتصيدوا
باسم الإله الفرد فرّق شعبه
ما ذاك شرع الله بل شرع الألى
لو كان للكتب العقول تصافح
ورأيتم في الحسافين أهلة
لا الطب يشفيه ولا الأزمانُ
فما وكان له بأرضك شانُ
فمتى يُبدد ذلك الإذعانُ
وتمكّنت من عنقه الأرسانُ
جعلوا الإله وسيلة ليصانوا
الإنجيل والتوراة والقرآنُ
نحو عليها في العلي صلبانُ

* * *

الله في هذا الزمان وأهليه
إن الوحوش تعيش في أجماتها
فمتى ترى يارب إنسانية
ضلت بنوه وعمّه الطغيانُ
عصياً ، ويقتل بيتنا الإنسانُ
لا يهزان بشرعها الحيوانُ

* * *

عيسى ألا عدو للوجود هنيهة
عشرون قرناً قد مضت وتصرمت
مهتةً للنيا سبيل محبسة
فالناس ضلّوا والشرايع خانوا
والأرض لم يهدأ لها غلبانُ
أين السلام وأين الاطمئنانُ

نيدتُ تعاليمَ السماءِ عصائبُ ففضى الحنانُ وعاشت الأضغانُ
نهجوا بأهلِ الأرضِ نهجَ ضلالةٍ ويح القطيعِ رُعَاتُهُ ذُوبانُ

عدُّ يا ابنَ مريمَ للحياةِ . وقلْ لهم
إنَّ المبشَّرَ بالسَّالذي علمتهُ
قد أولوا آيَ الكتابِ فسيطروا
خلتوا الخصامَ فكلتكم إخوانُ
لم يرضَ عنهُ الشيخُ والكُهَّانُ
فتنكرتُ للملئنةِ الأديانُ

الدينُ حصنُ النفسِ في ثورانها
فتمسكوا بإهلكم أمَّا الألى
ما شاقهم إلا تبددُ شملكم
فامشوا على سبيلِ المحبةِ أخوةً
واستهضوا الهممَ التي قعدتْ بها
قادوا بلادكم : انهضي وتنبهي
فيدُ الحوادثِ صيرتهُ مقيلاً

وهو الشكيمةُ إذْ يكون حرانُ
زرعوا الشقاقَ فقيادةُ عميانُ
لتعرضَ الأكامُ والأردانُ
فبذاك يقضي الدينُ والديانُ
غيرُ الدهورِ وخانها الخلدانُ
كي يستفيقَ الموطنُ الوسنانُ
والشعبُ جَلادٌ لهُ سجانُ

١٩٢٤

محمد مارون

رزقت ولداً فسميته محمداً ، فقامت
قيامه الناس ، فريق يستهجن ويمتدح ويكفر .
وفريق يوالي وينتصر . وكان أول من قدر
هذا العمل وأعجب به أشد الإعجاب ،
صديقي المرحوم أمين الريحاني ، فبعث إلي
بكتاب ستقرأه في فصل (١) - بيني وبين
الريحاني - أما الآن فأليك القصيدة وفيها
التفصيل التام .

| | |
|--------------------------------|--------------------------|
| عشتَ يا ابني ، عشتَ يا خير صبي | ولدتَه أمُّه في « رجبِ » |
| فهتفنا واسمُه محمدٌ | أيها التساربخ لا تستغربِ |
| خففِ الدهشةَ وانخشعْ إن رأيتَ | ابنَ مارونٍ سمياً للنبي |
| أمه ما ولدتهُ مسلماً | أو مسيحياً ولكن عربي |
| والنبيُّ القرشيُّ المصطفى | آيةُ الشرقِ وفخرُ العربِ |

* * *

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| يا ربوع الشرق اصغي واسمعي | وافهمي درساً عزيز المطلبِ |
| زرع الجهل خلافاً بيننا | فافرقنا باسمنا واللقبِ |

(١) راجع رسائل ملرون عبود .

« فالأفندي » مسلمٌ في عرفنا
شغلوا المشرق في أديبانه
والمسيحيُّ « خواجه » فاعجبي
فغدا عبداً لأهل المغربِ

* * *

يا بني اعترَّ باسمِ خالدٍ
جاء ما لم يأتِه من قبله
وتذكرُ ، إن تعشُ ، أوفى أبِ
عيسويُّ في خسوالي الحقبِ
فأنا خصمُ التقاليدِ التي
بخرافاتِهِم استهزىء وقلُ :
هكذا قد كان من قبلي أبي .
أثري متبِعاً تفخر بي
وغداً يا ولدي ، حين ترى

* * *

بك قد خالفتُ يا ابني ملتي
عصر حريّة شعبٍ ناهضٍ
راجياً مطلعَ عصرِ ذهبي
واتحادٍ لبقايا يعرُبِ
من ضفافِ النيلِ حتى يربِ
فجئنا اليوم الذي يجمعنا
ونحيتي علماً يخفقُ فوقَ مناراتِ الورى والقببِ

* * *

ليتَه يدرك ما صادفته
لو درى في المهدِ أعمالِ الألى
عندما سمّيته ، من نصبِ
حركتهم كهرباء الغضبِ
أمةٍ عن جدّها في لعبِ
لأبى العيشِ وشاء الموت في

* * *

كم وكم قد قيل ما أكفره سوف يصلى النار ذات اللهب
إن يشنع بابنه لا عجب فهو غر كافر لا مذهبي

* * *

لا تصدق قولهم يا ولدي إن فيما قيل كل الكذب
إن حب الناس ديني وحياة بلادي باتحاد أربي
فكتابي العدل ما بين الوري في بلاد هي أم الكتب
فاتبع يا ابني أباً أبغضه وجفاه كل ذي دين غي
فهم آفة هذا الشرق مذ حكموه بضروب الرعب
جعلوا الأديان معراج العلى ومشوا من زهوم في موكب
شردوا «أحمد» عن مضجعه فسرى ليلته في كرب
ودها عيسى لما علمه وهو لولا كيدهم لم يصلب

* * *

فاذا ما مت يا ابني في غد فاتبع خطوي تفرز بالأرب
وعلى لحدي لا تندب وقل آية تزري بأعلى الخطب
عاش حراً عربياً صادقاً وطواه اللحد حراً عربي

١٩٢٦

اول نيسان

قلتها بمناسبتها ، وقد أكون من عشاق
أول نيسان ، فلا تقل ما له يدعي البرارة .
فاعمل بها ، ان أعجبتك ، ولا تدتني . . .

قِفْ بِالشَّامِ عَلَى أطْوَادِ لَبْنَانَ
فَهِيَ المَآذِنُ لَمْ تُنْحَتْ أَهْلَتُهَا
فَفِي الطَّبِيعَةِ صَوْتٌ لَا يَضَارِعُهُ
وَالوَحْيُ فِيهَا قَدِيمُ العَهْدِ مُنْبَتٌ
دِينِ الطَّبِيعَةِ دِينٌ جَلُّ مَبْدَعُهُ
وَنَسَاجِ مَبْدَعِ هَذَا العَالَمِ القَانِي
وَهِيَ القَبَابُ وَمَا ازْدَانَتْ بِصَلْبَانِ
صَوْتِ المُوذَّنِ أَوْ نَاقُوسِ رَهْبَانِ
شِرَارَةٌ قَدْ وِرَاهَا زَنْدٌ وَجَدَانِ
وَالكُونُ هَيْكَلُهُ ، مَا أعْظَمَ البَانِي

* * *

دَعِ الأَلَى فَرَّقُوا أبنَاءَهُ قِسْمًا
خَزَعِبَلَاتٌ وَأَرَاءُ مَلْفَقَةٌ
فَالدِينُ سُرٌّ ، إلهُ الكُونِ أَوْجَدُهُ
قَدْ كَانَ لِلنَّاسِ مِنْذُ البَدْءِ جَامِعَةٌ
هُوَ المَوْحِدُ لَكِنَ الوَرَى كَذَبُوا
وَأَسْجَدُوهُمْ لِأَصْنَامٍ وَأَوْثَانِ
تَقْيِدَ العَقْلِ فِيهَا دُونَ بَرهَانِ
فِي خَاطِرِ البَدْءِ ، تَأَلِيفًا لِإِخْوَانِ
فَصَارَ مَدْعَاةَ تَفْرِيقٍ لِخِلَافِ
فَصَحَّفُوا آيَ إنْجِيلِ وَقُرْآنِ

يا للغرابية كيف الجهلُ فرقنا ونحن في نظر الرحمنِ سيّانِ
إن السماءَ مشاعُ الناسِ قاطبةً وليسَ يا قومُ للفرودسِ بابانِ

• • •

واحر قلباهُ ان الكذب ساد على هذي البلاد وعمّ المشرق الداني
وكيف يُسعد شعبُ كلّه كذب وعنده كلّ يومٍ بدء نيسانِ
شهادة الزور نلقبها بلا وجلٍ وكم وشينا لذي عز وسلطانِ
وكم حلفنا على تأييد كذبتنا والحر من لم يفه يوماً بأيمانِ
وكم شهيدٍ سعى فيه زعافتنا فذلّوه ، وكم أودّوا بفتيانِ
والكاذب الدون ندعوه بلا خجلِ ربّ السياسة ، وهو الغافل الواني
والحر تنفر منه إذ يطارحنا آراءه الغرّ في سرّ وإعلانِ

• • •

يا معشرَ الشرق والأجيال شاهدة دعوا أكاذيب نيسان وشعبانِ
تعتمدوا الصدق في أقوالكم أبداً ولا تحابوا عظيم القدر والشانِ
والله لو كان ربي في محاكمتي محايياً لُمتُ يومَ الحشر ديتاني

• • •

لي في الحياة من الآراءِ أغربها وفي الغرابية لذات لوجداني
فالشرقُ أجمعهُ قد صار لي وطناً أحيأ به وجميعُ الناسِ إخواني
ودينيّ الحب ، والإخلاص مصحفهُ وكاهني فكرتي ، والصدق قرباني

رسول الغد

ليس لهذه القصيدة سبب سوى أنني
حرمت الوقوف على المنبر زمناً ، ثم عادت
حليمة إلى عاداتها القديمة ، فقلت هذه القصيدة .
وأنشدتها بناء على طلب الجمهور . كلّفت
الحكومة قائمقام عاليه الأمير توفيق أبي اللمع ،
رحمه الله ، حضور الحفلة فاعتذر ، وحثته
أن مارون عبود يلذع ولا يأبه ، ويهاجم
« الدنيا وأنا ما عندي فرقة عسكر » . كانت
مقابلة بيني وبين مدير الداخلية يومئذ السيد
صبحي أبو النصر ، وأقيمت الحفلة ولم يحضر
المير ، مع أننا « لطفناها » ولم يكن شيء
من القنابل الكبيرة التي خشبها القائمقام .

سرّ في طريقك لا تخف لوأما وقل الحقيقة وانبد الأوهاما
والرفق بالحيوان لا تلهج به أفسدعيه وتظلم الأناما
كن قائداً إن تستطع لا فارساً بسواه ناط الكر والإقداما
فالكون حان والأمانى خمرة والجيد ساق والأنام ندامى

• • •

لا تؤمنوا بالحظّ فهو عقيدة الحظّ لا يُلجُّ البيوت وإنما وإذا رأيتَ ، فقل : رأيتُ ولا تخفُ فالتاسُ يرضيهم مقدّسُ جهلهم
قد عدّها دين الرقيّ حراما يلقاك في طُرُق الحياة لئاما جاهرُ ، ولا تكذب ولا تتعاما ويقاومون المصلح الهدّاما

* * *

أنسيتَ صلبهم المسيح وتركهم إنّ المسيح سقى الصليبَ دماءه ومحمّد برح الديار مهاجراً قولوا لقومٍ حرّفوا آياتهم الله للتأليف أوفد رسله
لصاً على سقَط المتاع ترامي فاخضرَ يثمرُ رحمةً وسلاما من قاوموه فنكس الأضناما كيف الرعاةُ تفرق الأغناما فعلامَ تفرّقُ الوري وإلاما

* * *

قيسارة أنم فإن ألقمُ والطائفية حاربوا ما اسطعمُ وخذوا الصليبَ لكم شعارَ ضحيةٍ إن تعدُّ مارونتي وطنيتي
أوتاركم أبدعتمُ الأنعاما فالطائفية جرحها ما التاما وخذوا الهلال منارةً وإماما لبرئتُ منها ذمّةً وذماما

* * *

ودعوا ولاة الأمر في أعمالهم واسعوا وراء الرزق لا يعنيتكمُ ومع الزمان تجددوا وخذوا لكم
فالأوصياءُ هم ونحن يتامى ! .. فعدّ العميدُ بقصره أو قاما شرعَ التطور سنةً ونظاما

ليس التجدد أن تُرى متخنتاً ظرفاً وتمضغَ في الحديث كلاما
ليس التجدد بالثياب حديثة زياً ولو أتقتها هنادا
إن التجدد بالعقول فجسد الأفكار والبس إن أردت «الحاما»
يا لابس «الكبران والغنبار» لا تحجل فكم شمل الرداء عظاما
هذا شعار الشرق ، هذا ثوبنا نحن الألى ملأوا الدنيا أحلاما
هذا لباس محمدٍ وصحابه الأخيار من ساسوا الشعوب كراما
هذا لباس يسوع في بريسة مزجت بعرف تقاه عرف خزامى
هذا لباس الله في ملكوته فسل المصور عنه والرساما .
كتنا ملوكاً يوم كان لباسنا خشناً وفقنا المشرقين مقاما
فانحشوشنا كجدودكم كي ترفعوا في الشرق لاستقلالكم أعلاما

رمز الخلود

تعود التلاميذ المنتهون أن يزرعوا في دار
المدرسة شجرة ، يضعون عند أقدامها بلاطة
من رخام محفوراً عليها تاريخ العام . وفي
هذه السنة شأؤوا أن يتفننوا فجاء الأمير نهاد
ارسلان بشجرة أرز ، وحفروا على البلاطة
رسم زيتونة ونخلة ، وترأس معلمهم الحفلة
فقال ما تسمع . أما ما أشار إليه في ختام أبياته
فهو موت زوجته الحديث العهد .

رمز الخلود تحية وسلام فبنوك حولك خاشعين قيام
نقشوا لهم في الصخر رمز تألف ستحققن وجوده الأيام
طبعوا اتلافهم عليه فأنطقوه بالإخاء الحق وهو رخام
في صقله رمز إلى أخلاقهم وبياضه للطهر فيه كلام
فكفى به رمزاً لوحدة أمة لعبت بها الأغراض والأوهام
من لي بيوم إن تمايل أرزها ضحك الحجازله، وهش الشام
وهذا العراق إلى لقاء باسم متهللاً واهترت الأهرام

هذا هو اليوم الذي نصبو إليه فحببنا لو صحت الأعلام
أهلاً بيومٍ فيه يُجمعُ شملنا وتوحدُ الشاراتُ والأعلام

* * *

سيكون ، ان كنتم شباباً ناهضاً في راحتيه النقضُ والإبرام
فدعوا الشيوخ فإن امّ مصيرنا يُبنى على أكتافكم ويقيم
قابتوا لنا صرحاً حديثاً طرزوه جمعَ النصارى فيه والإسلام
ونخذوا من الإنجيل والقرآن ما فيه الإخاء وألفة ووثام

* * *

بالجدّ يحيا بالرفاهة ثعلب ويموت إن يتكاسل الضرغام
فاسعوا شباباً للفلاح وجاهدوا فجهادكم تحلو به الآلام
إنّ الحياة شديدةٌ وطآتها وبها يسود الصابر المقدام

* * *

إن اللسان مقصّرٌ عما انطوى في خاطري واستعصتِ الأقلام
فاعفوا إذا قصرتُ آخرَ موقف إن المصائبَ للرجال للجام

١٩٢٩

نهضة الشرق

نُظمت حين حمي نضال الأقطار العربية،
للتخلص من معاهدات هي بالقيود أشبه .

أرى العُربَ تخلع أكفانها وتفتح للنور أجنانها
ففي كل قطرٍ رجالٌ صلابٌ تُشيرُ على الرقّ بركانها
فهذي الكنانةُ في غمرةِ الحياةِ تُعَارِكُ طوفانها
وقد أسمعت شرقنا صيحةً يقاسي أبو الهولِ أشجانها
تكادُ تُزلزلُ أهرامها البلايا وتجرِفُ أطيانها
وهذي فلسطينُ كم جاهدتُ تقيمُ على الحقِّ برهانها
ستجني ثمارَ الجهادِ الشريفِ ويخذلُ ربُّك من خانها
وهذي العراقُ تحاولُ نقضاً لعهدٍ ترى فيه خذلانها
وأما الحجازُ مقامُ النبي التي شرفَ اللهُ جُدرانها
فسوفَ تظلُّ لنا قبلةً تحثُّ لها الناسُ أظعانها
أهدى العروبةِ شلتُ يدُ إليكِ تصوبُ طغيانها

• • •

بلادي وقتتُ عليها دمي كما تقفُ الناسُ رنانها

وإني أهيجُ لتذكارها
 فما العلمُ إلا منارُ الشعوبِ
 فيفرحها قرعُ أجراسها
 وتلقى البلادُ اتحاداً به
 فيهوى الحنيفةُ إنجيلها
 ويذهب تفریقُ أسمائها
 فيمشي الفراتُ إلى نيلها
 ويصبو النخيلُ إلى أرزها
 أما من ينبهُ أوطاننا
 أعدوا الرجالَ لتحريرها
 كهولاً تصافح بيض الظبي
 فيا سائلي عن فتي باسلي
 شبابَ الشامِ ، ونشءَ العراقِ
 فهمُ من نعدُّ لصون البلادِ
 متى تذكرِ الناسُ أوطانها
 يوحدُ بالروح أديانها
 كما تتعشقُ آذانها
 تضم الأهلَّةُ صلبانها
 ويهوى المسيحيُّ قرآنها
 ويُسبهُ مارونُ مروانها
 وتلم عرفاتُ لبنانها
 ويهوى المشايخُ كهانها
 ويدفعُ للمجدِ شجعانها
 تطاعنُ كالأسدِ أقرانها
 ومرداً تعانقُ مرآنها
 يثور فدونك فتياها
 ومردَ فلسطينَ غلمانها
 وندفع إن جبارَ عدوانها

• • •

أرى في الشبابِ شبابِ الشعوبِ
 فخلّوا الغريبَ وعاداته
 ولا تزدروا من تردى العبا
 فإن العبا لعرينُ الرججال
 فكم عزةٍ تحت ذيل العبا
 ورمزَ الحياةِ وعنوانها
 ولا تأخذوا عنه أدرانها
 وإن أغلظ النسجُ خيطانها
 إذا دعت الحربُ فرسانها
 أطاحت عروشاً وتيجانها

• • •

وَأَمَّ اللّٰغَاتِ أَقِيمُوا لَهَا دَعَائِمَ تَحْفَظُ أَوْزَانَهَا
فَقَدْ كَلَّمَهُ اللهُ فِيهَا النَّبِيَّ وَحَدَّثَ جَبْرِيلُ رِضْوَانَهَا
فِي الْعُرْبِ خَلَّ الْوَنَى وَاسْتَفَقَ وَحَيَّ الْعِلَاءَ وَأَخْدَانَهَا
وَذُدُّوا عَنِ بِلَادِكُمْ مَسْتَقْتَلًا وَوَطَدُوا بِعِلْمِكُمْ بِنِيَانَهَا
فَهُمْ لَا يَبِيعُونَ حَرِيصَةً لِمَنْ لَا يُؤَدُّونَ أَمَانَهَا
وَإِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ أُمَّةٍ جَهُولٍ تَقْدَسُ ذُؤْبَانَهَا
وَمِثْلُ النَّعَاجِ إِلَى مَجْزَرٍ تُسَاقُ فَتَتَّبِعُ رِعْيَانَهَا

* * *

إِذَا هَدَمَ الدَّهْرُ آمَالَنَا فَلَيْسَ يَزْعَعُ أَرْكَانَهَا
فَكُونُوا بَنِي أُمَّةٍ عَصِيَّةٍ تَجِدُّ لِتَحْمِي أَوْطَانَهَا
فَرَابِةٌ يَعْزَبُ مَطْوِيَّةٌ وَقَدْ بَعَثَ الدَّهْرُ أَلْوَانَهَا
فَإِنْ كُنْتُمْ سَبَطَ أَجْدَادِكُمْ أَلَا فَارْفَعُوا فِي غَدٍ شَانَهَا

١٩٣٠

اين الأعراب

كانوا في كلّ عام يضايقوني بطلب
جدول إحصاء بحسب طوائف التلامذة ،
فلا أدري ماذا أصنع . وسبب ذلك أننا لا
نسأل طالباً عن دينه فكيف بنا وهم يطلبون
إحصاءهم شيعاً وطوائف وهذا ما نجهله
كل الجهل !

أين الأعرابُ ، أين من قد علموا
ما لي أرى وطني كثيراً عاباً
سفرت نجوم سماءه فتلاّت
دار الزمان عليه حتى عبت
وطني وآفته بنوه فإن يكن
هيئات أن يتجمعوا ، وشعارهم
ما كانت الأديان للتفريق ما
أوحى الإلهُ بها لكي يتألفوا
من أحجموا ، درس الحياة فأقدموا
والناس فوق طولهِ تبسمُ
غرّ الثغور ، فأين تلك الأنجمُ ؟
جناته الزهراءُ ، فهي جهنمُ
متألماً ، فلجهلهم يتألّمُ
هذا مسيحيٌ وذلك مسلمٌ
بين الشعوبِ بأمةٍ تبرّمُ
فتفرقوا وتقلنسا وتعمّموا

* * *

ميراثُ أهل الغربِ كثرُ تجددُ
فكأنّني بالشرقِ قصرُ هائرُ
والغربُ يبني كل يومٍ معقلاً
الغربُ طارَ على جناحِ بخاره
يا أيها العربي - تنبهْ واستنقْ
تلهو بكانَ جدودنا فكأنما
وترائنا مجدُ يشيخُ ويهرمُ
متصدعُ جدرانهُ تتهدمُ
والعربُ في بيدِ الحمولِ تخيمُ
والعربُ تحدو فوقها وترنمُ
زار البخار ، فكيف يغمو النومُ
بالأعظمِ التخيراتِ قدرُك يعظمُ

* * *

إن تسألوا أجدائهم هتفتُ بكم
من لم تعلمهُ الحوادثُ ، وهي
إن كان للأجداتِ نطقٌ أو فمُ
أستاذ الشعوب ، فذاك لا يتعلمُ

١٩٢٦

ذكرى الشهداء

يوم كانت الحكومة تحيي ذكرى الشهداء
في ٢ أيلول درجنا نحن على الاحتفال بذكرهم
في ٦ أيار ، وبقينا على ذلك حتى صار العيد
واحداً . وقد قلت هذه القصيدة بهذه المناسبة
مستهجناً النصب التذكري الذي لم يستحسنه
أحد غير الذين عملوه .

| | |
|--------------------------------|---------------------------------|
| دولُ الخنا مهما تعاظم شأنها | سيدكُ جبَّارُ السماءِ بناءها |
| فإذا رأيتَ حكومةَ ظلامَةٍ | قابشرُ ، ستطوي النائباتُ لواءها |
| يا أيها العربيُّ ، لا تقنط فكم | دول غزتكَ وقد شهدت جلاءها |
| لم يبقَ حيثَ تحكمتَ إلا الذي | تركتَ لتاريخ البلاد وراءها |
| مرتَ بنا مر السحابِ ولم نزلْ | في أرضنا مستمطرينَ سماءها |
| فهنّا البقاءُ لنا وليس لغيرنا | إن الغريبَ مغادرٌ أرجاءها |
| لا تقنطوا من رحمة الله التي | جلتَ وقولوا ما أشد سخاءها |
| واسعوا إلى استقلالكم يا أمةَ | شهد الزمانُ جهادها وبلاءها |
| جودوا بأنفكسكم إذا الداعي دعا | فالنفس لاستقلالنا إن شاءها |
| حرية الأوطان يدركها الذي | بالنفس ضحى واستمات فداءها |

موتوا فموتكم الحياة لأمة
ماتت مواطنكم لأن رجالها
أما الذين استشهدوا فحياتهم
ماتوا وعشنا بعدهم لكننا
في كل يوم للشهادة دعوة
مقهورة قد سرها ما ساءها
عشقوا الحياة مطولين رشاءها
ذكرى تهدد أرضنا أصداءها
موتى تحاول أن تطيل بقاءها
تبدو ولكن لا ترى أبنائها

* * *

شهداءنا القداماء ، هل أحللتهم
إن الشهادة بعدكم ظفرت بها
يا أمة الشهداء أنت شهيدة ،
إن يعجبوا فليعجبوا لشهيدة
يا ضيعة الشهداء في وطن به
شهداءنا من بعدكم علياءها
فئة تكتم خيفة أسماءها
نبل المظالم مزقت أحشاءها
بدمائها قد كرمت شهداءها
فئة تعيش لتستغل دماءها

* * *

يا فنية الشرق ، البلاد مريضة
مصر تن ، وفي العراق تاوه
وأرى فلسطيناً ولبناناً وسو
أوطانكم تدعوكم فتعلموا
كلمى ، أفينا من يعالج داءها
يبكي الحجاز ومن أتى بطحاءها
رية على بأس يميت رجاءها
كيما تلبوا ، قادرين ، نداءها

* *

يا أيها الرمز الذي نصبوك للشهداء جئت مضاعفاً بلواءها
قد قمت شبه مناحة أبدية في أمة عنها تسب نساءها

١٩٢٧

بابل الأديان

تلظت نار الطائفية في لبنان ، واختلفت
مذاهب الناس ، وذرت قرون تيوس التعصب
فخفنا أن يعيد التاريخ سنة ١٩٠٤ نفسه فقلت ،
وأنا منفعل أشدّ انفعال ، هذه القصيدة .

يا بابل الأديان يا وطني يا مسرح الأحقاد والفن

* * *

وطني وما فيه سوى أممٍ
وطنٌ تغيمُ سماؤه عبثاً
وجراحه التامت على دغلٍ
فريقٌ مبعثرةٌ هنا وهنا
فتجمع الجمعات مضطربٌ
أمسى التفرق سنةً لهم
ان نسا لا نسا المشانق
هل فرق «السفاح» يوم طغى
إلا عن الشحاء في وسن
وأديمه لبنيه لم يلسن
معي ، فهدنته على دخنٍ
هدف البلاء دريئة المحن
وتأحد الآحاد في وهن
جرباً مع الأديان والسنن
والأبطال تلقاها بلا هدن
ما بين معمودٍ ومختنٍ ؟

* * *

يا بابل الأديان يا وطني
كلُّ يولتي شطر مسجده
والطائفية فيه طائفة
حذراً بني أمي فسادتكم
خلتوا النفاق على خرائبكم
الطائفية فتنة ، فذروا
يا ويحها كم فرقت أمماً
الآن هذا مسلم وأنا
هل علم القرآن موجدة

* * *

يا بابل الأديان يا وطني
ما الدين إلا عارض وأبي
وأنا به راض ، ويؤلمني
يا صاحبي ، هب أننا فرق
فعلام نكر بعضنا حقاً ؟
فإلى التسامح في الحياة نسد
أبناء أحمد والمسيح ألا
وتعاونوا طراً على عمل
من يشري البغضاء غالية
يا بابل الأديان يا وطني
يسوع لا يحتاج نصرتنا

يا مسرح الأحقاد والفتن
إذ شاء هذا الثوب ألسني
من إن رأني فيه أنكرني ،
في عسكري والثوب ميزني
أجهلت أنك إن أهن تهن
ان عز مغروراً أخ فهن
لقوا حديث الأمس في كفن
مجد يعزز كل ممتهن
والحب معروض بلا ثمن !
يا مسرح الأحقاد والفتن
ومحمد عني وعنك غني

جاءا لبثّ النور مرحمةً فيلامَ نألفُ وحشةَ الدجنِ
أعلى الرئاسة ثار ثائرتنا هذي الرئاسة أمرها لمن ؟
إن العواصف والبحار إذا ثارا فلا يشقى سوى السفنِ

* * *

يا بابل الأديان يا وطني يا مسرح الأحقاد والفتنِ
إن كانت الأديان علّتنا يا ليتنا من عابدي الوثنِ

الأربعون

كنت ظننت الأمر كما سأقول . أما
اليوم وقد بلغت الستين فلا أذهب ذاك المذهب.

مالي وما لك أيها الجسمُ مضت الهيولي وامتحي الرسمُ
ذهب الشباب ومات كل رجا يصبو إليه المرء أو يسمو
وإذا انقضى عهد الشباب فلا ترج الحياة فكلها سقمُ
والأربعين إذا بلغت ققلُ لم يبق لي في العمر إلا اسمُ
فالعين تدمع دون ما سبب والضرس لا خضد ولا قضمُ
والأذن تشكو الثقل من صمم فيها ، وتلك الكف تلم
إني لأحسب أني رجا وأنا العجوز العاجز الهم
عجبا لنا والدهر يخذعنا نسعى لدنيانا ونهتمُ
ونظن ان الدهر يسعدنا والدهر في ترياقه السم
إن لم تنل في الأربعين مني فأزهد بهذا الكون يا عم
وإذا انطوى برد الشباب فلا يرجي له نشر ولا ضم
إن الحياة شبيهة خطرت كالطيف ، سمعا أيها الصم

العاصفة

قلتها على أثر عاصفة كان لها أثر طيب
حين مرت بأرضنا ، كسرت الفروع الشائخة
من الأشجار فجذدت شبابها .

هبتِ الرِّيحُ والفضاءُ اكفهرًا وتواري الهلال ينظرُ شزرا
طمس النور غير بعض سطورٍ خطها الفجر فامتحت ليس تُقرا
فانتضى البرق سيف نور ضئيل شقّ مسح اللجن شقاً وفراً
وانبرى الرعد منذراً بالبلايا واستشاط الخضم مدأ وجزرا
وتنادت عناصر الكون للثورة فانقضت الصواعقُ جمرا
وتبارت في حلبة الأفقِ الرِّيحُ فأمسي الرقيع يزأر زأرا
علمونا أن الطبيعة أمٌ ويح أمّ من الشواعر تبرا

* * *

يا لأمّ خرساء ان حدثتنا فحديثٌ يفيضُ خوفاً وذعرا
همسها الرعدُ ، والصواعقُ نجوى ، والبراكينُ زفرة الوجدِ حرى

* * *

وتكتمت لست تفشين سرا
 في ثناياك جاعل البحر برا
 وظهور الأبناء بالعطف أحرى
 شكلاً ، وملاً الكون برا !!
 بنيتها بوالدٍ عزاً قدرا
 خفياً ؟ فصاحب البيت أدرى ...
 فأرشدني إليه يكسبك أجرا
 لا أراه ، سبحانه ، أين قرأ
 فأرتني في وجهها الجهم شراً
 وهدني من أرضه ما اشمخراً
 واعتصمنا بصخرة نتذرى
 جيوشاً عمياء كراً وفرأ
 صيرتها العواصف الهوجُ قبرا
 لم يفتر وجهاً ولم يحن صدرا
 ثم تكبو ، سيان صغرى وكبرى
 عبءوه في الأرض عصراً فعصرا
 باسمه في الوجود سرا وجهرا

ويك أمّا منحت ألف لسان
 أيها الأم ، كيف تخفين عنا
 كيف تخفين والداً عن بنيه
 أصحيح يا أم أن أبي مثلي
 فأجبي فواجب الأم تعريف
 خبريني : أحل في بيتك الله
 أه ضيعته فضاع رجائي
 فأجابت إني افتش عنه
 قلت هلا ... فقطبت حاجبيها
 وأشارت إلى العواصف أن سيري
 فاستجرنا منها بها وهي غضبي
 فرأينا الأمواج تقتحم الشط
 كم بيوت تهدمت وقصور
 فمن الدوح أسجدت كل عات
 وإذا بالأشجار تمشي الهوينسا
 لم أجد منجداً ، فناديت رباً
 من تراني دعوت لولا سماعي

* * *

تهادت في الجوّ تمشي السطرى
 كان بالهدم والتجدد أحرى
 ما تهدم يمني تشيده يسرى

هدأت ثورة الطبيعة والريح
 فرأينا أن الذي هدمته
 إنما هذه العواصف أيدي

رسلُ النشء والتجدد بل زناد متى شاءت الطبيعةُ يورى

* * *

ليت من هذه «العواصف» أصنا
لنرى كل هائمٍ وعقيمٍ
من تقاليدنا ومن كل عُرْفٍ
إنما هذه العواصفُ فأسُ
فأثيرُ الأكوانَ طيباً ونشراً
ليس يجدي نفعاً تداعى وخرأ
صيرته الآراءُ ديناً وكفراً
تقصمُ الشاخات ظهراً فظهراً

* * *

من قديمٍ والمرءُ نضوُ افتكار
ما رآه بالأمسِ علماً يراهُ
ان آراءه لأشبههُ بالموج
أشغلتهُ «الأشياء» دهرأ فدهرا
اليومَ جهلاً ، وهكذا العمر مرأ
توالى ، تحسو الجديدةُ أُخرى

* * *

أوغلَ الفكر في التأملِ حتى
فبدا لي أن الطبيعة فرحى
إيه يا أم ان أردتِ صلاحاً
لاح وجهُ النهار يفتّر بشرا
بالذي قلبته حتى استقرأ
فاكنسي بالعواصف الكون طرأ

النبي محمد

نشرتها « جريدة » الأحرار أولاً ثم تناقلتها صحف
شتى ، وأخيراً أذاعها على حدة السيد الحاج إبراهيم زين
صاحب مكتبة العرفان .

ثم جاءني وفدٌ من كبار أئمة المسلمين وشيوخهم
يحملون إليّ عباءة السيد السنوسي ، هدية منه إلى أبي محمد
مارون فقبلتها بكل فخر واحتفظت بها كأثمن أثرٍ تذكاري

وأخيراً نشرت هذه القصيدة مجلّة « الرضوان » التي
تصدر في الهند ، وقد قدمتها إلى قرائها الكرام بهذه الكلمة ،
معبرة عن رأيها ، قالت :

« بما أن رجلَ الحقيقة نابغة العربية الفدّ (مارون بك
عبّود) المسيحي (مدير الجامعة الوطنية في عاليه لبنان)
قد أعطى النصفة حقها في الأصحاح بفضل البطل المقدّس
نبينا المحبوب ، صلى الله عليه وآله ، غير مكثرت بما يكسفه
من التعرات الطائفية المقنونة لزاماً على أبناء الحنيفة المقدسة
تقدير مسعاه وشكره على ما أسدى إلى الأمة المرحومة من
يد واجبة وصنيع مبرّر فقد اندفع إلى ذلك بدافع الصراحة

وحرية الضمير ونزاهة النفس يوم عرف من حق النبي
العربي (ص) وفضله ما عرف منه كثيرون أو صدفت عنه
الأهواء والتزعات ولكن عبقرى (لبنان) مصيخ إلى هتاف
الحق بإذن واعية مزدلف إلى ما يحس منه نكتاً في قلبه أو
همساً في سمعه غير آبه بما هنالك من هلجات المتهوسين. فمرحباً بنفسيته
الشاعرة وزه بعواطفه الحية . ويزيدنا سروراً ما بلغنا عنه
من وعده الأكيد بأنه سوف يزف إلى الملاء لدة هذه القصيدة
العصماء في سيّد الوصيين أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي
طالب (ع) ، ونحن نشكره على ذلك سلفاً ونستميح قريحته
الفياضة في الإسراع بنضد تلك العقود الذهبية ، ومن تقديرنا
جهوده وصراحتة ما نرغب إلى فضيلة صاحب (الرضوان)
الأغر من نشر هذه القصيدة التي هي نسيج وحدها وآية
من آيات العربية ناصعة على صفحاتها البيضاء .

لمحرره

محمد رسول الله :

طبعتك كفُّ الله سيفَ أمان
العدل قائمه ، وفي إفرنده
وعليك أملى الله من آياته
لولا « كتابك » ما رأينا معجزاً
حملت إلى الأقطار من صحرائها
هادٍ يصور لي كأن قوامه
وأراه يغضب لسلاله موحداً
لم يزهه « بدر » ولا « أحد » ثنى
فهو اليقين يصارع الدنيا ، ومن
وكذا النبوة ، حكمة ، وتمرد
هي ذلك الروح الذي يتقمص الأ
تلقى على الأبطال شكته فتد

كمن الردى في حده للجاني
سور الهدى ، نزلن سحر بيان
شهباً هتكن مدارع البهتان
في أمة مرصوصة البنيان
قبس الهدى ، ومطارف العمران
متجسد من عنصر الإيمان
من نخلة في عرقها صنوان
عزماته ، عن خطة العرفان
جارى اليقين يعود بالخذلان
وتقى ، وإلهام ، وفرط حنان
بطل ، للحدث العظيم الشأن
فهم ، فينفجرون كالبركان

وقعة أحد :

أحد سبيل الله ، سيناء النبي
ألواح هبطت سطوراً من دم
يمشي براية « أحمد » حزب الهدى
الهاشمي ، ومصراع الأوثان
لما تناضل عنده الحزبان
والشرك يزوجيه أبو سفيان

فعلاً فحیح المشركين كأنّ في
 والنيقُ ساهمةٌ تحبُّ هوادراً
 والصاهلاتُ تلوكُ ألجمةَ الوغى
 يمشون، والرمضاءُ ترقصُ في العلا
 هزجٌ هو الرعدُ الأجرسُ وزحفةٌ
 قد غصنت أحقادهم جبهاتهم ،
 نار الضغائن قد أطلت من كوى
 فكأنما في كل عين فحمةٌ
 تلکم قريش جمعت أحلافها
 من كل موشومٍ قليلٍ تسربلٍ
 بلحى مهدّبةٍ الحواشي أطلقتُ
 وذوائب معقوصة ملتفة
 متدامرين إلى اللقاء قوافلاً
 يتنفسون قنافداً مذعورةً
 ونسأؤهم بين الصفوف عوارماً
 سقن الرجال إلى الضلال فهم لجوا
 هدّذهم بتفارقٍ ان ينثوا
 عربٌ إذا ما الجاهلية نفختُ
 يتسابقون إلى حياض الموت كالأ

تلك الصدور جهنم الأضغان
 يحدو الحنينُ بها إلى الأعطان
 وتشبّ عند الكف كالثعبان
 رقص السراب على بساط جمان
 كال موج فوق نواهد الكئبان
 فجباههم ودروعهم سيّان
 دعج العيون، ذكية اللهبان
 دكناؤ صابرة على النيران
 واستنجدت، للعار، بالحيشان
 رحب الرداء، مشمر الأردن
 مخضوبة السبلات بالخنان
 مثل الأفاعي حول كل جران
 من كل ذي هلب له خفان
 وإذا عدوا عصباً فكالذئبان
 بدفوفهن، وزغرات هجان
 ويح الرجال تقاد بالنسوان
 فاستقتلوا وهم ذوو نزوان
 أوداجها كروا خيول رهان
 طيار نافرة إلى الغدران

* * *

دهموا الرسول فما ألان جناحه
 متماسكٌ إيمانه ، مستوثقٌ
 للكائرين وقام كالصفوان
 وجدانه ، من ربّه الخنان

فستنجلي عن قدره الربان
فاضرب بجؤجؤها العباب القاني
يطوي الوجود بأمره المتوان

سر يا محمد لا تخف غراتها
وأمامك الميناء بسام اللمي
«والريح» بين يديك يرسلها الذي

فوز الأبد :

مجنونة . وتلاحم الجمعان
من مشرفيات . ومن مران
ورنين أنبلهم عزيف الجان
عزريل . فالصرعى بكل مكان
جهلوا . وكم تسمي بلا آثمان
بدم بلاغ الوحي للأكوان
بهما ونال الحق خير ضمان
إلا إذا كتبت بأحمر قان

دارت رحي الهيجا على لهواتها
فكان عاصفة تحرك غابة
فصليل أسيفهم زثير مأسد
وكأتما في كل لأمة باسل
ما أرخص الأرواح عند العرب إن
وقضى المهيمن أن يمهر عبده
فنتباه مسم الدين ازدهى
وكذا الرسالة لا يؤيد وحيتها

أم عمارة :

أنثى تطاعن أفحل الشجعان
مضت الدهور وأنت نصب عياني
غير الطيوب . ومدمع هتان
تروي ظماء مجاهد حران
ومحمد أمسى بسلا أعوان
نضحت به عن سيد الفرسان

لله «أم عمارة» من باسل
لله در أبيك أنصارية
هي مجدلية أحمد ، وسلاحها
سلكت سبيل الله تحمل قربة
حتى إذا ما المسلمون تضعضعوا
طرحت بقربتها ، وسلت صارماً

مهتاجة كلبوءة في فجوة
أنى تذود يشدها إيمانها
منقضة ككواسر العقبان
بالمصطفى . بالله . بالقرآن

أبو دجانة :

« وأبو دجانة » في حسام محمد
بطل الجلاد إذا تعصب وانتحى
أخذ الحسام من النبي « بحقه »
كم شك مدراً ، وجندل فارساً
حُمّ القضاء ، فكان ترساً من دم
 وابن اليقين إذا دعوت وجدته
أبا العصابة أخلدتك هنيهة
كرمت سيف محمد والموت يفتر
أمّا « عتيقتك » التي أطلقتها
لاكت كبود المؤمنين تشفياً
كبد المجاهد « يا هنيذة » مرة
فاهوي على جثت الرجال ومثلي
« ياخالد » أروِد ، فقبلك « بولس »
أفتنصر « العزى » وقد بزغ الهدى

يختال ، كالجني في الميدان
فالفج ينع والقطوف دواني
فلواه فوق مناكب الأقران
وهوى على متجبر طعان
دون النبي وأسهم العدوان
في الساعة السوداء ، ثبت جنان
حمراء . صانت بيضة الإيمان
ش الرجال ، ففقت ضرب غواني
فقد استباح حرمة الكنيان
وعقودها اتخذت من الآذان
والقلب مقدود من الصوان
بهم فيومكم قريب داني
طرق الحواريتين كالسرحان
ملء النواظر في المصف الثاني؟

فتح مكة :

ماذا ، أبا هب ، فمكة أشرعت
قد غمك « النصر الصغير » فلوترى
أبوابها ، لعساكر الرحمان
« الفتح الكبير » لمت قبل ثماني

كربائضٍ يحدقنَ بالرعيانِ
وغداً سيعدوهُ إلى البلدانِ
فتحطمت، أسمعت صوت أذانِ
ويطبع اسمَ الله في الأذهانِ
ملء النفوس جماله الروحاني

انظر . فإن الناسَ حول محمدٍ
قد طاف «بالبيت العتيق» مُطَهراً
«الله أكبر دهورتُ أصنامكم
هذا «بلال» يبلغ النبأ العظيمَ
ومحمدٌ مغضٍ جلالاً خاشعٌ

النبى :

فُتحتُ لديه خزائنُ الكتمانِ
فيمسَ ظهرَ الغيبِ مسَ بنانِ
كتائباً . معروضةً لعوانِ
جمَ الخطوط . منوعَ الألوانِ
ملكِ النبى العالمِ الإنساني
وانقض رفرها على الأركانِ
الأرضِ المواتِ تبدلت بجنانِ
وأباً لبيض الأرض والسودانِ
يا فاتح الدنيا استرخ بأمانِ

إن النبى إذا تأملَ مطرقاً
يبدو العتيدُ أمامه متجسداً
وتغرُّ من قدَّامه قطعُ الدهورِ
فيرى الوجودَ أمامه كـمـصـورٍ .
ما للتخومِ مناعةٌ في عرفه .
فإذا مشى هوتِ المعازلُ ركعاً ،
والعقريسة إن فرى محراثها
هذا «يتيم» صار كافل أمةٍ
نصر من الله العزيز لعبدهِ

المعلم البطل :

قامت على التوحيد والميزانِ
إلا بحقِ العادلِ الديانِ
وحياً لكنت كأودع الحملانِ
ما خضت حرباً طاعناً بسنانِ

لك في السماء منصةٌ قدسيةٌ
ما كنت سفاهاً ولم تسفك دماً
لو كنت في قومٍ تسبغُ عقولهم
لولا اعتداؤهم عليك وجورهم

فأتوك بسالحي والمران
ومذارعوا عن ذلك الطغيان
وغمرتهم بالفياء ، والإحسان
أمناً وعزاً ، فاعتصم بيمني

علمت «بالقلم» الذي لم يعلموا
قد أخرجوك فأخرجوك ، فنلتهم
أسمحت ، ثم صفحت عن آثامهم
والأمن في ظل السيوف ، فإن ترم

روح الإسلام :

من كل فاكهة بها زوجان
كالبحر لفظاً ، والسماء معاني
العبد والمولى بها نيدان
قد دست مجد الأصفر الرنان
ما كان في الدنيا فقير عان
أما الهوى فكبحته بعنان
بعائم أزهى من التيجان
بالعدل ، فالأعداء كالإخوان
أسعدتها بمضارب الغربان
قد فرقها نعمة الأديان
فمارون سوى مروان
ومسيحهم ورسولهم أخوان
في قبضة الرواد والحدثان

لله دينك جنة محتومة
دين تدفق حكمة وتجديداً
ألفت منه وحدة كونية
يا من يموت ودرعه مرهونة
لو أدت الناس الزكاة ، وأنصفوا
يسرت للناس الشؤون فأيسروا
وجمعت حولك يا رسول صحابة
خشت ملابسهم ، ولان جوارهم
تشقى العدالة في القصور ، وأنت قد
أعلمت التوحيد وحد أمة
فتخالفت جمعاً وآحاداً وأسماء
قوم تقض فراشهم آراؤهم
يتنازعون على السماء وأرضهم

* * *

ذكر النبي الأطهر العذنان
شعوب الأرض للوحدان
طير الجنان تمطق الغربان

فلتنحن الأجيال أجلاً إذا
المالء الدنيا بذكر الله ، والداعي
ولينعق المتعصبون فلم يضر

المطيب

الصليب

عَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ الْخُلُودِ سِنَاءُ وَلَهُ عَلَى رَغَمِ الدَّهْوَرِ رُؤَاؤُ
شَيْخِ الدَّهْوَرِ، فِي الْحَيَاةِ جَدِيدَةً أَوْحَى الْهُدَى فَتَضَعُضَتْ سِينَاءُ
رَفَعُوهُ مَهزَأَةً فَأَصْبَحَ رَايَةً تَعْنُو لَهَا الْأَمْلَاكُ وَالْأَمْلَاءُ
حَمْرَاءُ رَفَّتْ سَاعَةٌ ، فَإِذَا بِهَا لِلْعَالَمِينَ الرَّايَةَ الْبَيْضَاءُ
دَاوُدَ بِالْمَزْمَارِ رَنَمَ حَوْلَهَا لَحْنِ الْخُلُودِ وَطَافَ أَشْعِيَاءُ
وَهْوَى سَلِيمَانَ وَهَيْكَلُهُ عَلَى أَقْدَامِهَا ، فَاهْتَزَّتْ آرْمِيَاءُ
قَدْ أَنْحَمُوهُ فَاسْتَحَالَ مَنَارَةً عَنْ نُورِهَا تَتَبَسَّمُ الْأَجْوَاءُ
يَا دُوْحَةً مَا حَاوَلُوا اسْتِصَالَهَا حَتَّى سَمَتْ قَامَتَتْ الْأَفْيَاءُ
وَحَنَّتْ عَلَى سِنَنِ الطَّرِيقِ غُصُونَهَا فَتَنْبِيَّاتُ بَطْلَانِهَا الْغُرَبَاءُ

* * *

يَا نَائِرًا لِلْحَقِّ قَدْ أَظْفَرْتَهُ بَعْدَاتِهِ ، وَجُنُودِكَ الضَّعْفَاءُ
دَرَعْتَهُم بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ فَاتَمَحَدُوا وَسَارُوا ، وَالْمَجْنُوءُ رَجَاءُ
فَتَحُوا بِرَايَتِكَ الدُّنْيَى ، وَسَلَاحِهِمْ أَقْوَالِكَ ، الْأَمْثَالُ وَالْآرَاءُ
قَدْ كَانَ عَوْدَ الْعَارِ حِينَ عُلُوتِهِ فَعَدَا وَسَامًا دُونَهُ الْعَلِيَاءُ
تِلْكَ الْجِرَاحُ تَكَلَّمَتْ أَفْوَاهُهَا بِالْحَالَاتِ ، فَأَيُّهَا غُرَبَاءُ

بالعنف أنقذ شعبه موسى وقد
ألواحه من صخرة قد قدّتها .
فجرت ينبوع الحياة بلا عصا
وعراك ألبسنا تقىً وهدايةً
فالناس لو عملوا بما علمته
حررت شعبك ، والسلاح وفاء
والقلب لوحك . والمداد دماء
وشققت بحر الجور فهو رخاء
فعلى الجسوم قميصك الوضياء
ساد السلام ونامت البغضاء

* * *

شافي المخلع نظرةً ، أفلا ترى
أفتتح الأعمى أزل . عن أعين
يا محيي الموتى ، إليك بيوتنا .
يا صاحب الملكوت قد ضيقت
رُكباً مخلّعةً بها استرخاء
الناس الغشاوة ، فالظلامُ بلاء
فهي القبور . وكلّنا أشلاء
إيماني ، أعندك للعليل دواء ؟

* * *

سموك ملكاً هازئين سفاهةً ،
الملك يملكُ أمةً محدودةً ،
ودمُ القى الصديق إن يسق الصفا
الله . كيف يحول الاستهزاء
أنظر . فملكك هذه العبراء
نبئت عليها جنةً غناءً

* * *

يا هازئاً بالظالمين ومنذراً
هدمت هيكلم لتبني هيكلاً
هدمته وبنيتسه بثلاثة ،
أعلم الأجيال ، دينك رحمةً
بالإنحلال معاشرأ قد ساؤا
لا بيع فيه وليس فيه شراء
فعلا ، وأنت الهادم البناء
ومحبةً ، وفضائل خرساءُ

يا غالباً بمماته أعداءه^١ فكأن موتك بقظة^٢ قد بددت^٣
 رفعوك في ظلماتهم فأحلتها^٤ أضرمت فوق جبال صهيون لهم^٥
 فسطت للناس اليدين مرحباً^٦ نصبت بغياً فوق جلجلة الهدى^٧
 صخبوا وضجوا هازئين سفاهة^٨ فعلوت في أفق الخلود محلقاً^٩
 والنسر مجثمه الذرى ، ومطاره^{١٠} يا راية سارت بموكب عزها^{١١}
 زحفوا بها للفتح . والإيمان^{١٢} فتطاير التيجان عن هاماتها^{١٣}
 في ظلمة الديماس قد بزغت لهم^{١٤}

خُلدت أنت وبادت الأعداء^{١٥} أحلامهم . فاستسلم الزعماء^{١٦}
 نوراً ، وأنت سراجها الوضاء^{١٧} نار القيرى ، وحنانك الإقراء^{١٨}
 فتوافدوا . وهم إليك ظماء^{١٩} واستهزأت بوقارك السفهاء^{٢٠}
 والنسر ليس تخيفه الغوغاء^{٢١} والجائحان صليبك الفداء^{٢٢}
 عن قمة ومرامه الجوزاء^{٢٣} عصب التقى ، ودهاتهم بسطاء^{٢٤}
 سيفهم ، وترسهم تقى ووفاء^{٢٥} مثل الهشيم مشت به التكباء^{٢٦}
 شمس اليقين ، وبادت الظلماء^{٢٧}

* * *

أزعانف التاريخ هذا نائراً^{٢٨} قد قدس القرآن مبرغ شمس^{٢٩}
 هو واحد كالناس ، إن شتم ، وما^{٣٠} هل عندكم ند له كي نهتدي^{٣١}
 أسمى العجائب أن يكون نظيرنا^{٣٢}

أين القيود تبعدها البسلاء^{٣٣} وتنبأت بظهوره القدمات^{٣٤}
 جعلت بلا دنس به العذراء^{٣٥} بضياثه يا أيها العلماء^{٣٦}
 بشراً ، وعنه قصر الحكماء^{٣٧}

* * *

يا فاتحاً للمجدلية قلبه
 أمعلماً للسامرية ، فالورى ،
 هاك الهنود تُعيد درسك عليها
 الناس حولك ساجدون وأنتَ من
 ويتمتمون عليك من أفواههم
 لغة القلوب أردتَ أنتَ ولم تُردُ
 ما كنتَ في قلب الهياكل ساجداً
 أزريتَ بالدنيا ودستَ نعيمها ،
 ولطالما قد نمتَ تُسعدُ هائناً
 نسجتَ عناكبنا عليك بيوتها
 من لي بسوطك ساعةً فأهزهُ
 إن لم يلدك الدهرُ ثانيةً فلا
 فسعادة الدنيا إذا رجعتَ إلى
 العطفُ للمنبوذِ فيه شفاء
 أن الحياة تآلف وإنحاء
 تمحو فروقاً كلُّها أخطاء
 هذا السجود وما إليه ... براء
 صلواتهم ، وقلوبهم صحاء
 لغة الشفاء ، ففي الشفاء رياء
 زهداً ، فهيكلك قدسك البيداء
 يا للزهادةِ دونها الإثراء
 فوق الغمار ، ومهدك الأنواء
 فبدا على الوجه الوسيم جفاء
 فتبدد الأضرارُ والأسواء
 يرجى السلام ، ولا تبي البلواء
 تعليمك المدنيةُ الغرثاء

* * *

الغرب شارك في دمائك شرقنا
 إن الشهادة في سبيل الحق مرقاة الخلود ، وصمتها الهيجاء
 والجحيلُ إن نخرتُ مبادئه أنبرى
 كيف التفتُ أراك، في مهد الفتى
 وأراك في زهر الربيع وشوكة
 كيف التفتُ أرى بهاك كأنما
 أفأنتَ من كل الوجود مركب ،
 لأسوى السقوط تقاسم الشركاء
 لعلاجه ، حذاهُ الامناء
 مرحاً، وفوق النعش فيك عزاء
 رمزاً لطهرتك فوقها الأنداء
 توحى إلى نظري بك الأشياء
 نورٌ ونارٌ ، رقّةٌ وإباء

* * *

قد لحت لي في عرس قانا باسماً وعلى جبينك عفةٌ وحياء
وعلى البحيرة قد تخيل ناظري أنني أراك وحوالك الخُلطاء
وشهدتُ مجلسك العفيف، ومريم تهفو إليك يزينها الإصغاء
ولقد رأيتك في « العشاء » تمالحُ الدنيا ، وأين من الأنام ولاء
ونظرت في البستان شخصك ماثلاً يبكي ، ودمعك ديمةٌ وطفاء
وذرفتُ دمعاً ذاكرٍ لما رأيتك داخلاً . من حولك الخُلطاء
قد اقتفيتُ خطاك متبعاً على درب الصليب . تذييني الأرزاء

* * *

لما سمعتك غافراً متغاضياً عما جتته الأمة العمياء
قلت «المعلم» قام يختمُ درسهُ للعالمين ، فهل بهم إصغاء ؟
للفرق صيرت الذبيحة رحمةً فقضت عليك الطغمة السوداء

دمعة الأرز

عزم المجاهد الأكبر أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ، على إحياء ذكرى الملك حسين بن علي الذي دفن في المسجد الأقصى ، فدعا شعراء الأقطار العربية فكنت من المدعورين فأعددتُ هذه القصيدة التي كان لها أثر في النفوس .

وقد وثقت هذه القصيدة عروة المعرفة بيني وبين المفتي الأكبر لما لها من علاقة بالقضية الصهيونية التي كنا نقاومها قبل الحرب العظمى ونسميها « الخطر الأصفر » .

ثم ازدادت هذه المعرفة نمواً فيما بعد ، حين فرّ سماحته إلى لبنان قبل هذه الحرب ، وأقام على مقربة من جونه . فكان بيني وبينه مداولة حول القضية التي تهم كل عربي .

وما زلت أحفظ بين أوراق رسالة من سماحته حول الموضوع .

فإذا رأيت أيها القارئ العزيز في قصيدتي تأثراً فلا تتعجب ، فقد تشرفت بزيارة الحسين ، في ذلك العام ،

فذكرت قول الفرزدق في أحد جدوده : يغضي حياءً
ويغضي من مهابته .

ولست أنسى . ما عشت ، دمة فرّت من عيني عندما
روى لي حكاية خادمه الذي حاول أن يودّعه في العقبة ،
ساعة مشى إلى قبرص . فزجره قائلاً له : لا تودّعني ،
يا ولدي ، لئلا يقال أنه كان في وداعي واحد من العرب ...

ليُغمّد «ذوالفقار» فقد حماها وأقصته «السياسة» عن حماها
«فيا شبه الجزيرة» أين مولا ك «ابن البيت» أسمى العرب جاها
«ويا أم القرى» ماذا قرئت «الضيوف» وأين من فيه يباهي
«أكعبة» أين أعلى الناس كعباً إذا ما عدت الدنيا علاها
«ويا بطحاء» أين «أبو علي» أبو الهيجاء إن دارت رحاها
أسألتها وقد عيت جواباً فويح لابنة عقت أباهما

* * *

ففي «عدنان» نم نوماً هنيئاً فأمتك استفاقت من كراها
وإن نامت على ضميم قليلاً فذاك رمادها يُخفي لظاها
وإن الثأر عند العرب دينٌ ومن يكفر به جحد الإلاها
فما جثناك من لبنان حتى نردّد كالنساء عليك آها
لقد جثنا وفي الأحشا سكير يذيب الأرض إن يلمس حصاها

* * *

أتينا كي نهب بكل ساه عن الأرض التي بدم سراها
ولا عجب إن الأحلام طاشت فإننا أمة قتلوا فتاها

° * °

نزيل القدس سرّ وقرّ عيناً « فأولى القبليتين » علت ذراها
فإن عزّت « بجدك » حين أسرى فقد شرفت بدفنك في ثراها
وإن تكُ « ثالث الحرمين » ديناً ففي وطني غدت ابتداها
وهذي « الصخرة » الغراء أزهت بقربك واكتست شرفاً تناهي
فقبرك صار منذ اليوم « حججاً » نعفر فوق تربته الجباها
تطوفُ به القبائل محرمات « فمروتها » هنا. وهنا « صفاها »
وكم ميت به تحيا شعوبٌ وكم « حيٌّ » يموت به رجاها

° * °

فقيد الأمتين عليك منا المراحمُ هاطلات من سماها
أقيمُ بجوار عيسى مطمئناً فقد أنقذت أمةً افتداها
أمير المؤمنين أهب بقوم رفعت لهم مقاماً لا يضاها
ونخاطب من ضريحك من توانوا وقل لهم : إلى الهدف اتجاها
بنيت لكم بناء مشمخراً ألا اتحدوا قلباً لا شفاها
وذودوا عن مواطنكم ليوثاً تخيف القوم إن قربوا سراها
فلدني ههنا قدرٌ لكيماً أوثق أمةً فكتّ عراها
فلن تغرّ إن شامت بروقاً فكم خدعت عيوناً سيمياها
عهود « القوم » منقصةٌ وغشّ فيا بتسّ العهود ولا رعاها
فأمس هنا على عيسى تعدوا وقاموا اليوم يهتضمون طاها

« أمّنا يعرب » لبيك ، إيشر ،
صليب « مسيحتها » سيحول سيفاً
إذا « الزيتون » هس بأرض يسي
وهب « النخل » يجرّد من ذراه
قبرك يا حسين لسانُ صدق
ومن جعل الفصاحة في قریش
ومثلك خالدٌ بينه يُعلي
سريت مع السياسة ذا وفاء
فتلك « البندقية » من تُراهُ

فأمّتنا تظلّ على وفاها
وسيف « نبيّها » يجلو دجاها
أصاخ « الأرز » سمعاً وانتباها
رماحاً تُرعدُ الباغي شباها
يعلم أمة فقدت هداها
أصارَ اليومَ قبرك متهاها
منارتنا فلا يخبو ضياها
وعند الصبح لم تحمد سراها
سيطلقها إذا داع دعاها ؟

* * *

هنا ، حول الضريح ، غداً ، ترانا
سنطلقها ، غداً ، طلقات ثار
« ونمشيها خطي كُتبت علينا
ليوثاً للوغي عقدت لواها
هنا ، فرجع الدنيا صداها
ومن كُتبت عليه خطي مشاهها

١٩٣١

اللوعة الخرساء

لا تحتاج هذه القصيدة إلى تعريف ،
فهي في ثلاثة هم أعزّ الناس عندي : أبي
وأُمّي وأمّ أولادي .

قومي انظري الأطيّار كيف تألّبت زمرّاً زمرّاً
في هيكل الوادي الرهيب ، تقيم تسبحة السحر .
خلع الأميرُ على بنات الأرض أثواب الزهر .
فالكون في عرس الصباح ، وحماك محزون مباح .

قومي فقد جاء الربيع
كيف التقاعدُ ، أيها الأمّ المولّهة الحنون ،
أختاه ، طالّ النومُ ، والأولادُ ضجّوا صاحبين
قومي إلى حاجاتهم ، فبعض عطفك يقنعون .
شلت يمينك يا قدر ، أطهو الحصيّ ولا « عمر »

والناس حولي كالربيع
يا واحتي ، والوهج موصول بأسباب السماء
يا قريتي ، أغشاك إن ينسدّ في وجهي الفضاء
يا منزلي ، بك سلوتي ، إن يحف إخوان الصفاء .

من للسفينِ بلا شراع ، والبيتِ ، والمصباحِ ضاع
والعام ، إن مات الربيع

ماذا دهى أختَ الصباح ، وكيف تاهت في الظلام ،
كيف امتحى قوس السحاب وذاب في قلب الجهم
في ذمة الأرياح طرته ، وفي عنقِ الغمام .
يا عشّ . رفقا بالفراخ فالمقبلون على الصراخ
هجرُوا الحميلة في الربيع

إن يرجعوا صفتِ الحياة ، وجدّ دهرى وابتسم ،
واخضرت الأرض الموت ، وأعشب الصخر الأصم
هيهات . ذاك العهد كان وراح ، والفلك ارتطم .
الشمس في سمتِ الأصيل ، وأنا المحير في السبيل ،
وأظنّ أني في الربيع

ذكراكِ كالحمى تعاودني . ومثل العاصفه ،
مثل البراعم ليس توقظها الرعود القاصفه ،
وتحسّ هينمة الربيع فتستفيق العاطفه ،
إن المحبة لا تموت ، وهي الفصيحة في السكوت ،
فكأنها زهر الربيع

كم رنّ في أذني فارعد مهجتي وقع الخطى
متدافعا فوق البلاط كأنه مشي القطا
كم عنّ لي رفّ الصبايا الراجعات من « الوطا »
فظنتها بين النساء ، أوّاه من خدع المساء
ومن إذكارات الربيع

كيف التفت^٤ فلا أرى عن جانبي سوى كهوف
تبدي الحديث مكبراً وتظل^٥ عن شأني وقوف ،
ذهب « المعزّي » في السرى وبقيت وحدي كالعريف ،
في مهمه مدّ البصر ، يختار^٦ فيه من عبر
وتضلّ أطيّار الربيع

يا من غدوت أبا وأمّاً ، هذه سنن الحياة
من كان يحمل كل همك مات ، بل أمسى رفات ،
وبقيت وحدك لا تهم بلفظة ذهب الثقة
فاصبر على عبث الصغار ، واندب « ثلاثك » الكبار
من آثروا سفر الربيع

لا أستعير من الدجى ثوباً ، ولو مات الزمان
سيان في نظري خطى متنطس أو يهلوان
صور تمثلها الحياة ليستبدّ بها الكيان .
ما لي أخاف من العدم ، وهو البريء من الألم ،
وعلام انتظر الربيع !

توحيد واتحاد

توحيد واتحاد

لا الدينُ برضيني ولا صلواتهُ
فالدينُ مسنونٌ لتأليفِ الورى
ضلَّ الألى جعلوه قيدا مذاهبِ
قد كان في فجرِ التمدنِ مبضعاُ
ولسوفَ يبقى هاديا هذا الورى
والدينُ في لغةِ التطورِ واحدُ
وأرى المثلثَ كالموحدِ دينهُ
ليس الكتابِ سوى الضميرِ منزهاً
ذاتي هي الربِّ العظيمُ لأنها
وإلهُ موسى والمسيحِ وأحمدِ
والكونِ جسمُ سرمدى خلدتُ
والأفقِ عندي صفحة من مصحفِ
إن الكواكبِ والشموسِ حروفهُ
ورث المذاهبِ كالعقارِ مضللاً
بذروا «اجتهادهم» فأثبتَ شوكةُ
فتنازعَ الملكوتَ شعبُ تاعسُ

إن يبغِ تفريقَ الشعوبِ دعائهُ
جسماً توحدَ فيه جزئياتهُ
وطرائقُ فتبدلتُ آياتهُ
فغدا حساماً لا تكلمُ شبائهُ
حتى تضلَّ عن الصراطِ هدائهُ
قد رودفت وتعددت لفاتهُ
لم تختلف في مذهبي جناتهُ
عن غايةٍ وإلهٍ كلِّ ذاتهُ
منهُ ومثلُ الفعلِ مشتقاتهُ
ربُّ الجميعِ ، وفي الجميعِ صفاتهُ
فيه الحياةُ وناسهُ ذراتهُ
ليست تعدُّ ولا تُرى صفحاتهُ
مسيبوكةٌ ونجومهُ حركاتهُ
ويجَ القطيعِ عنى تضلَّ رعاهُ
في شرقينا كيلاً تمرَّ حفاتهُ
يبغى النعيمِ ، وفي الجحيمِ حياتهُ

لُفِي عَلَى الْوَطْنِ الْعَرِيزِ مَقْبِدًا بِالرَّهَاتِ فَيْتَهُ وَفَتَاتُهُ
أَسْفِي عَلَى وَطْنٍ تَفَرَّقَ شَمْلُهُ فِي الدِّينِ فَايْتَسَمَتْ لَذَاكَ عِدَاتُهُ
هُمْ يَذْكُرُونَ الْحَبَّ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَلَسَدِينِهِمْ فِي قَلْبِهِمْ نَعْرَاتُهُ
فَإِذَا غَدَا دِينَ الْإِنْحَاءِ شَعَارُنَا حَيَّ الرِّقَى وَقَلْ دَنْتُ أَوْقَاتُهُ
فَبِهِ نَرَى بَيْتَ الْعَرُوبَةِ مَقْلَسًا حَرَمًا تَصَافِحَ طُورَهُ عِرْفَاتُهُ

* * *

وَطَنِي الْمَرِيضُ أَمِنْ دَوَاءٍ نَاجِعٍ غَيْرِ الرِّقَى فَبِلَاؤِهِ رَقِيَاتُهُ
حَلَّوهُ مِنْ هَذِي الْقَيُودِ وَحَطَّمُوا أَغْلَالَهُ ، أَفْلَمَ يَثْنُ إِفْلَاتُهُ
مَنْ لِي بِيَوْمٍ إِنْ تَمَائِلَ أَرْزُهُ فِيهِ تَمَاجِجَ نَيْلِهِ وَفِرَاتُهُ

* * *

وَطْنِ الْأَعْرَابِ حَسْبَ قَوْمِكَ رَقْدَةٌ فَهُمْ إِذَا ذُكِرَ الذَّمَارُ حُمَاتُهُ
يَا وَيْلَ شَعْبِ الشَّرْقِ مِنْ زَعْمَائِهِ إِنْ قَلَّتْ هَشَّ تَصَعَّدَتْ زَفْرَاتُهُ

١٩٢٥

القسم الثاني

كتاب الشعب

معرب عن الفرنسية
للكاتب الفرنسي لامنه .

كلمة في الكتاب

هذا كتاب تلوح للقارىء الكريم من خلال سطوره أشعة الحرية اللامعة ويكاد شبح محبة الشعب يلمس فيه . هو مجموعة كتب قليلة الأوراق إلا أن تأثيرها كان عظيماً وما زال صداها يرد حتى يومنا هذا . أسميتها « كتاب الشعب » لأنها للشعب كتبت ولنصرته أنشئت .

ألفها علامة فيلسوف من فطاحل كتاب القرن التاسع عشر فكان لها دوي هائل أقام الهيئة الاجتماعية وأقعدتها وبحق نسمي مؤلفها مصلحاً كبيراً . ولاروس يسديه : رسول المبادئ الثورية الغيور .

ولكي تعلم أيها القارىء منزلة المؤلف السامية فأليك بالإيجاز ما جاء عنه في : « كتاب تاريخ آداب اللغة الإفرنسية المصور لمؤلفه دي كرانج » صفحة ٧٩٢ ، قال :

ولد فاليسيه روبر دي لامنه Lamennais سنة ١٧٨٢ ومات سنة ١٨٥٤ . أبصر النور في سان مالو مسقط رأس شاتوبريان فرباه عمه في قصر شستنه قرب تينان فعاش يتيماً وسط الطبيعة كما عاش شاتوبريان . كان نائر الروح وهو صبي بعد لأن المطالعة أثرت فيه قبل أن يشب .

وكان شقيقه كاهناً فحذا لامنه حذوه وتأثر بأخلاقه فصار كاهناً في الرابعة والثلاثين من عمره .

وفي سنة ١٨٠٨ نشر كتاباً عنوانه « بحث في حالة الكنيسة » . بحث فيه بلهجة عنيفة عن اتفاق البابا ونابليون . فصادر الامبراطور هذا الكتاب . وفي سنة ١٨١٧ (أي بعد كهنوته بعام) أصدر كتابه « بحث في عدة المبالاة بالمسائل الدينية » *Essais sur l'indifférence en matiere de religion*

فأثر في بابه تأثير كتاب شاتوبريان « روائع المسيحية » . وفي هذا الكتاب حمل لآمنه على منكري الوحي حملة عنيفة . فاضطرب الإكليروس الإفرنسي ورومية أيضاً والتفّ حوله إذ ذاك رهط من الكاثوليك المعجبين بالحرية والشعر منهم مونتالامبير ولا كوردير الشهير ان وغيرهما من مشاهير كتاب ذلك العصر .

وفي سنة ١٨٣٠ أصدر جريدة « المستقبل » التي كان شعارها « الله والحرية » فاستحسنها الحزب الكوثوليكي ولكن رومية حرّمت مطالعتها على الكاثوليك . فانفصل مونتالامبير ولا كوردير عن لآمنه فخضع هذا لحكم رومية ١٨٣٢ . ثم نشر كتابه « كلمات مؤمن » فكان سبب انفصاله نهائياً عن الكنيسة .

ودافع لآمنه عن نفسه محتجاً على البابا في كتابه « أعمال رومية » ومن ذلك الحين انصرف بكل قواه وكل فصاحته للدفاع عن معتقده السياسي والديني فكان ذلك سبب « حرمة » قطعه عن الكنيسة .

وفي سنة ١٨٤٨ انتخب نائباً .

يجب أن ننظر إلى لآمنه كفيلسوف ديني حاول أن يبرهن حسيّاً عن صحة المسيحية والكتلكة بانياً أساس إثبات معتقده على ما تؤمن وتسلم به جميع الأمم من الحقائق . ولكن هذه الطريقة من الدفاع جرّته إلى مبدأ آخر أخذ يظهر رويداً رويداً في كتاباته فعدّته الكنيسة إذ ذاك من الهرطقة . أما هذا المبدأ فهو مبدأ الاشتراكية المسيحية الذي شدّ به عن تعاليم الكنيسة نافياً السلطة والتقليد .

إن نظريات لآمنه لا تزال لها أهميتها لأنها تبحث في مواضيع مهم كل عصر . وهو كاتب عظيم وأسلوبه خطابي شعري استقاه من الكتاب المقدس . وهو بعد بوسيه أول من تأتت له شعريّة الكتاب المقدس التي لا تجارى .

ففي كتاب « كلمات مؤمن » يصل إلى درجة فائقة الحد من الرعب والرموز والتأثيرات . فمن الفائقة التي نخصها بالذكر الفصل السابع والتاسع والثالث عشر والثامن عشر والثالث والعشرين والخامس والعشرين والواحد والأربعين .

فهذا الكتاب الثري هو صور ورؤى متتابعة وأتات ونغمات تجعل المرء يحس بأجمل وأغرب لغة شعريّة سمعها « انتهى » .

وجاء عنه أيضاً في كتاب تاريخ آداب اللغة الإفرنسية لمؤلفه G. Lanson صفحة ٩١٢ هذه الفقرة :

إن لآمنه هو وليد روسو وشاتوبريان وكان يقول له البارون دي فيرول : ان نيوغك هو ابن الزوبعة .

وفي صفحة ٩١٤ من الكتاب الآنف الذكر ما يأتي :

إن لآمنه شاعر عظيم بل هو مبدع ونبي . وقد سبق هيكو بتعمق فكره وانفعاله المتقد اللذين لم يصل إليهما هيكو في أوجه الشعري . ان لآمنه كان مدهشاً في الرؤى وقد أوجد عقائد جديدة بأشكال غريبة ومؤثرة جداً . « انتهى » .

وقال L'albé J. Calvet في كتابه آداب اللغة الإفرنسية صفحة ٦٥٢ حين وصف فنّ لآمنه وتأثيره ما يلي :

وبهذا الفن الفائق الذي يؤثر على الشعور والمخيلة أثر لامنّه أعظم تأثير في بني عصره . وللسر المشتعل في نفسه الكثيبة أعظم يد في تأثيره الشديد الذي جذب الشبيبة إليه . وزاد نار تأثيره اشتعالاً ألم النفوس المعذبة التي كانت تنتظر وحيأً جديداً في عصر لامنّه حتى أنها كانت ترى في شخصه مسيحاً آخر .

ولما اعتزل لامنّه في شسنه تنامد له نخبة من مفكري عصره المشهورين فالتفوا حوله .

أجل . لقد كان لامنّه معلم جيله حتى أن الشعراء المعجبين بالفنون القديمة مثل « موريس دي جيرين » والكتاب المنتقدين المشككين مثل « سنت بوف » والمؤرخين الثائرين مثل « ميشيله » آمنوا به وكانوا ينتظرون أن يروا شيئاً عظيماً . ولذلك كانت التبعة عليه عظيمة إذ خيب آمالهم بفشله .

إن عصيانه حاد به عن جادة الدين . أما أفكاره وآراؤه فكان لها صدى عظيماً في القرن التاسع عشر ولم تفقد شيئاً من قوتها الضارة والنافعة حتى يومنا هذا . « انتهى » .

هذا هو لامنّه الفيلسوف الجريء الحر نصير الشعب الأكبر يوم لم يكن له نصير . حاول تحطيم سلاسل التقاليد التي كان يرسف فيها الشعب فاضطهد « وحرّم » . أحببت مبادئه وأعجبت بها ثم أيقنت أن في نشرها فائدة ففعلت . فإلى الشعب أرف كتاب الشعب .

المرجم

إلى الشعب

لم يكن كل شيء في هذه الدنيا كما يجب أن يكون . وفي الدنيا شرور كثيرة وشرور جسيمة جداً . إنما ليست هذه مشيئة الله .

ولد الناس من أب واحد وكان يجب ألا يؤلفوا إلا عائلة واحدة كبيرة تربطها ببعضها وثاقات المحبة الأخوية . وما أشبهها بشجرة كبرى تنبت منها فروع كثيرة وأغصان شتى تغذيها عصارة واحدة .

في العائلة يجد الناس جميع الخيرات لأنهم يتحابون ويعملون بدأ واحدة لخيرهم العام . إن أعمال أفراد العائلة تختلف ولكن كل فرد منها يستفيد من كل عمل . وسواء أكانت تلك الفائدة قليلة أم كانت كثيرة فإنهم يتقاسمون عطية الله . فالشيخ والصغير العاجزان عن العمل يعيشان في العائلة برخاء وبنالان قسطهما بعدل حتى من عذابات وآلام كل فرد . وهكذا لا ترى فرداً من أفرادها متروكاً .

ما أبعد الخصام عن العائلة لأن مصلحتها واحدة . ولا خصام إلا عند تعارض المصالح . فالويل لذوي المطامع .

لكل إنسان مكان على وجه الأرض وقد دحاها الله وأخصبها ليجد فيها كل إنسان حاجته . فالإنسان هو الذي شوش الأنظمة الإلهية ومزق

الوحدة العائدية فمبادء الناس غرباء ثم أعداء . فتألفت إذ ذاك هيئات اجتماعية متعددة وأمم وقبائل وشعوب اختلفت مصالحها وتنوعت مطامعها فتطاحت .

فالمطامع التي ولدها هذا التفرق أثارت الإنسان على أخيه الإنسان . فتهدد الغزو الأمن وشوّهت الحرب وجه الكون فتنازع الناس على خرق الإرث العام المضرّجة بالدماء . فتحوّلت قوى الناس إلى الفتك والتدمير بدلاً من العمل النافع الذي يدر لهم لبناً وعسلاً .

هكذا تفرقت الأمم تطلب كل واحدة منها السيادة والحكم على الأخرى مرددة هذه العبارة الهائلة : « لي السلطة وعليكم الطاعة » فسوا الشرائع كما شاءت مطامعهم وأيدوها بالقوة فأصبح الإنسان ملكاً للإنسان يشترى ويبيع كالسلع . يتعب ويشقى السواد ليستريح نفر قليل من الناس . يخلّسونه ما يجنيه ويتركونه في بلواه يموت في منعطفات الأزقة برداً وجوعاً .

لقد جفت المحبة من كل مكان حتى قال الأخ لأخيه : لسنا من أصل واحد . إن دمنّا أنقى وأشرف من دمك فلا نريد أن نتمازج . إنك لم تخلق إلّا لخدمتنا .

شيدوا الامتياز على قاعدة الغنى والثروة فقالوا للغني . اتكئ في صدر مجلس الهيئة الاجتماعية فهو معدّ لك . وصاحوا بالفقير : تنح عنه فليس للفقراء من وطن . وهكذا أصبحت الثروة مقياس الامتياز والنفوذ .

والعمال (ويسمونهم هكذا للاحتقار) وإن كانوا حُرّروا شخصياً فإنهم لا يزالون عبيد الرأسماليين الذين وضعوا ما يسمونه « شريعة » حسب أغراضهم وأهوائهم فقيّدوا بها الناس وأخضعوا الأكثرية المطلقة للأقلية النافهة .

هذا ما حل بالإنسانية عندما قطعت الأنانية رباطات المحبة الأخوية .
فكانت الخيرات كلها نصيب فئة قليلة من البشر والأتعاب والبلايا نصيب
العديد الأكثر .

أنتم شعب : فافهموا إذن من هو الشعب .

من الناس فئة تلوّحها حرارة الشمس ويقرسها البرد وتبللها الأمطار
وتحمل أثقال جميع تقلبات الفصول تحرث الأرض وتلفن فيها مع الحبوب
التي تبذرهما قوة وحياة وتسقيها عرق جبينها لتخرج الغذاء لجميع البشر .

إن هذه الفئة هي الشعب .

وفئة أخرى تستثمر الغابات والمناجم وتنحدر إلى أعماق الأرض
تستخرج منها الأملاح والمعادن وكل المواد الأولية التي تحتاج إليها الصناعة
والفن . هؤلاء الناس الذين يقومون بهذه الأعمال يشيخون قبل الأوان
ليستخرجوا للبشر ما يحتاجون إليه . وما هم أيضاً إلا الشعب .

ومنهم من يصقلون المعادن وينشئون منها ألف شكل يستعين به الإنسان
على أعمال الحياة . ومنهم من ينسجون الصوف والحريير والبسط . ومنهم
من يخدمون ويعيلون الناس بطرق مختلفة فيخففون ويبلات الهيئة الاجتماعية .

هؤلاء أيضاً هم الشعب .

ومن الناس جماعة يمحرون البحار ويعاركون الأمواج والإعصار
تكويمهم حرارة خط الاستواء ويقرسهم برد القطب الشمالي ليختلسوا
من البحار ما يعيش به إخوانهم رغداً .

وما هؤلاء إلا الشعب .

ومن البشر فئة كبرى تدافع عن الوطن بسلاحها ودمائها وسهرها
وتضحى نفسها فتموت في سبيل الأمن . وفئة تذيب أدمغتها لتعزز الآداب
وتنشر العلم والرفق في الهيئة الاجتماعية .

إن هؤلاء هم أبناء الشعب .

وكل الذين يشقون ويتعذبون في كل وطن وتعود أعمالهم بالنفع
على أبناء جنسهم جميعاً ليسوا إلا أبناء الشعب .

فإذا استئينا فقراً قليلاً من البشر وهم أصحاب الامتيازات المدفونون
أحياء في قبور ملذاتهم نجد أن الشعب هو كل الجنس البشري .

فماذا يحلّ بالهيئة الاجتماعية إذا اضمحل الشعب فجأة . انه لا يبقى
لها أثر . لا ترى منها أفراداً قلائل منتشرين على الأرض يحرثونها بأيديهم .
أن هؤلاء الأفراد يقضي عليهم إذ ذاك إما أن يصيروا شعباً وإما أن يموتوا
جوعاً .

إذن ماذا يصنع هذا المجتمع للشعب وهو لا يتألف إلا منه بل هو
قوام حياته ؟

إنه قضى عليه أن يمهد دائماً جميع العقبات والمصاعب على اختلاف
أنواعها ويستأصل جميع بلايا المجتمع الذي لم يترك له إلا جزءاً من ثمرة
عمله . ان المجتمع يسوس الشعب كما يسوس الفارس حصانه والفلاح
ثورته . أو أقل . أنه يخلق له تحت أسماء مختلفة : عملاً بلا أجل وشقاء
بلا أمل .

كلمات مؤمن

الشرق يستنير

المجد لله في العلاء وعلى الأرض السلام ولبي البشر رجاء وأمل .
من له أذنان سامعتان فليسمع . ليفتح عينيه كل ذي عينين ليرى فالساعة
قد دنت . جاء الكلمة إلى الدنيا والدنيا لم تعرفه . وعد بإرسال الروح
المعزي . قال أنه سيأتي ويغير وجه الأرض فيكون ذلك كتكوين جديد .
منذ ثمانية عشر قرناً نثر الكلمة الإلهية فلقحها الروح وأنماها . رآها
الناس مزهرة وثمارها جنوا وذاقوا . لقد ذاقوا ثمار شجرة الحياة الجديدة
المغروسة في مسكنهم .
أشرق عليها النور فتهللوا وفرحوا . لقد شعروا أن النار العلوية المطهرة
تخترقهم . أما اليوم فقد عادت باردة مظلمة .
رأى آباؤنا الشمس مائلة إلى الزوال وعندما هبطت وراء الأفق البعيد
أجفل بنو البشر وارتعشوا . وفي ذلك الليل جرى ما أعجز عن تسميته . فيا
أبناء الليل ان الغرب أسود مظلم ، أما الشرق فقد أخذ يستنير ويضيء .

يبحث عن إله آخر

أعيروني آذاناً صاغية وقولوا لي: من أين تتسرب إلينا هذه الضوضاء
الغريبة التي تسمع من كل صوب .

المسوا الأرض وقولوا لي لماذا ترتعش ؟

شيء مجهول يتحرك في الدنيا . إذن هناك عمل من أعمال الله فأني
إنسان يخلو من الرجاء وأي قلب لا ينبض ويخفق .

اصعد يا ابن الإنسان إلى الأعالي وحدثنا بما ترى .

- أرى في الأفق البعيد غيمة دكناء يحيط بها بريق أحمر .

يا ابن الإنسان قل ما ترى أيضاً ؟

- أرى البحر هيج أمواجه والجبال تهز قممها . أرى الأنهار غيرت
مجاريها والقمم اضطربت وهوت فملأت الأودية . كل شيء يتزعزع
ويهتز . وكل شيء قد اتخذ شكلاً جديداً .

يا ابن الإنسان ما ترى أيضاً ؟

- أرى عواصف من الغبار في المكان القصي ترتفع وتلاطم وتتمازج .
تسحب ذيوها فوق البلدان والمدن وحيث تمر لا نعود نرى إلا السهول
الجرداء .

أرى الشعوب نائرة ووجوه الملوك مصفرة تحت تيجانها . أرى الحرب
العوان بين الملوك والشعوب ، أرى عرشاً بل عرشين محطمين والشعوب
تبعثر بقاياهما على الأرض .

أرى الشعوب تقاتل ، إن ضربات الشعب لمخيفة ولكنه أعزل وعدوه
مدجج بسلاحه .

إلهي ! لقد سقط الشعب في حومة الجهاد ، إنه لم ينجرح لأن العناية
تستره في ردائها وتبتسم له ، لقد حملته ونقلته من ساحة القتال .

أرى شعباً آخر يقاتل بلا استراحة ، انه يستمد قوة جديدة ويستمي
عزماً ونشاطاً جديدين في هذه المعركة . ان رمز الجهاد المضرج بالدماء
يشدد عزيمته .

أرى شعباً ثالثاً قد وطئه ستة ملوك بأرجلهم وكلما تحرك تحترق أحشائه
سته خناجر .

أرى صليباً أكاد لا أميزه لأنه مغطى بغشاء أسود ، أراه يخفق فوق
بناية واسعة الأرجاء شاهقة البناء .

يا ابن الإنسان قل ماذا ترى أيضاً ؟

— أرى وجه الشرق يعبس ، أراه ينظر إلى قصوره القديمة وهياكله
المهreme وقد سقطت غباراً ، أراه يرفع عينيه كأنه يفتش عن عظام غير
عظامه وعن إله آخر يبحث .

أرى في جهة المغرب امرأة تنظر بعظمة وكبرياء ذات جبين صاف
كالندى تخط بيد ثابتة — كالقلاح الماهر — ثلماً خفيفاً وحيث يمر محراثها
تنتب بشرية جديدة تباركها في ترانيمها وأغانيها .

أرى في الشمال أناساً لم يبق لهم إلا بقية من الحياة المتجمعة في قلوبهم
ولكن ابن الإنسان لمسه فنبضت قلوبهم .

أرى في الجنوب أنواعاً لا أدري تحت أي لعنة هبطوا وخسفوا .
أضنكهم حمل نير ثقيل فمشوا تحته محدوديين منحنيين فلمسهم ابن الإنسان
بجشبة العار فتقوموا .

ماذا ترى أيضاً يا ابن الإنسان .

هيهات لم يجب لأنه بعد فلنصرخ به ، يا ابن الإنسان ماذا ترى
أرى الشيطان هارباً وابن البشر آتياً ليملك ويصلح الإنسانية من جديد
ويطرد الكتبة والفريسيين من بيته الذي جعلوه مغارة للصوفس .

- ٣ -

نحن ملوك

وحملني الروح على منكبيه وسار بي محترقاً ظلماً الأجيال القديمة
فكانت الأرض جميلة مخصصة وسكانها سعداء لأنهم يعيشون كأخوة .
رأيت الحية تنسل بين الناس وقد أثرت نظراتها الساحرة بالكثيرين
فارتعشت أنفسهم واقربوا منها فهمست الحية في آذانهم .
وبعد أن أنصتوا وسمعوا كلمتها انتصبوا على أقدامهم وقالوا : نحن
ملوك .

فاصفر وجه الشمس واغبر وجه الأرض وسمعت دمدمة صماء خفية
وأنين طويل عميق ، وفر الخوف من كوخ إلى كوخ لأنه لم يكن ثمة
قصور وأفضى إلى كل منها بأسرار هائلة ارتعدت لها فرائصه .
أما الذين قالوا : نحن ملوك فاتخذوا سيفاً وساروا وراء الخوف ،
وهناك حدثت أمور غريبة : وجدت السلاسل والبكاء والدماء .

فصرخ الناس المدعورون : لقد عاد الذبح إلى الأرض وسنسكر
من اللعناء .

استسلموا فقيدوهم بالحديد ، وحفر الذين قالوا نحن ملوك كهفاً
كبيراً زربوا فيه الجنس البشري كالبهائم في المراح .

وطردت الزوبعة الغيوم فهدر الرعد وسمعت صوتاً يقول : لقد غلبتنا
الحية ثانية ولكن ليس إلى الأبد .

وسمعت أصواتاً ممتزجة بالضحك والنحيب والتجديف فعلمت أنه
يجب أن توجد مملكة الشيطان قبل مملكة الله فبكيت ورجوت :

إن ما شاهدته لحق ، قد قامت مملكة الشيطان ومملكة الله ستقوم
أيضاً ، وسيزرب الملوك غداً مع الحية ، فتولد البشرية من جديد وتنب
من وهدة الموت إلى قمم الحياة .

- ٤ -

الحق أقول لكم

أنتم أبناء أب واحد وأم واحدة أرضعتكم ، فلماذا لا تحبون بعضكم
بعضاً كالإخوان ، ولماذا تتعاملون كأعداء ؟

من لا يحب أخاه فليكن ملعوناً سبع مرات. انهم لا يقوون عليكم إلا
لأنكم لا تحبون بعضكم ولأنكم غير متحدين .

لا تقولوا أبداً هذا من أمة وأنا من أخرى لأن جميع الأمم تنحدر
من أب واحد على الأرض وهو آدم . ومن أبٍ آخر في السماء وهو الله .

إذا ضرب عضو يتألم الجسم كله . أنتم كلكم جسم واحد فلا يضام واحد أو يضطهد حتى تضاموا جميعاً .

إذا هجم ذئب على قطيع فإنه لا يفترسه دفعة واحدة بل يبطش بخروف ويأكله . وعندما يجوع ثانية يبطش بآخر . وهكذا حتى النهاية لأن الجوع يعاوده دائماً .

لا تكونوا كالخراف التي ترتعب عندما يختطف الذئب واحداً منها ثم تعود ترعى بعد قليل . ان الخروف الذي يقول : أي غرض لي من القلق والاهتمام بأخي الذي افترسه الذئب . بل ماذا يهمني فإن العشب يبقى لي وحدي .

الحق أقول لكم : إن من يفكر هكذا يعد نفسه فريسة للوحوش الضارية التي تقتات باللحم والدم .

- ٥ -

الامة الشهيدة

متى رأيتم إنساناً يساق إلى السجن فلا تحكموا عليه بلا ترو قائلين : هذا رجل شقي أخطأ إلى البشرية ، فقد يكون رجلاً باراً أراد خدمة فعوقب ظلماً .

ومتى رأيتم أمة مثقلة بالحديد وقد دفعت إلى الجلالد فلا تندفعوا إلى القول : هذه أمة ثائرة هائجة أرادت أن تقلق راحة الأرض ، فقد تكون أمة شهيدة تموت لأجل السلام البشري .

فمنذ ثمانية عشر قرناً سمرّ على الصليب أحبارٌ وملوك ذلك الزمان رجلاً سمّوه شاغباً ومجدفاً بعدما جلدوه بالمقرعة وكللوه بالشوك .

لقد أرعد موته الجحيم وتهللت له السماء لأن آدم الأبرار غلب الموت
بالموت ووهب الحياة لمن في القبور فأنقذ العالم .

- ٦ -

كثيرون يموتون في هذه المعركة

لماذا تجد الحيوانات غذاءها كل حسب نوعه ؟ لأنه لا يختلس حيوان
منها غذاء غيره ، كل واحد منها يسر بما يكفي لسد حاجته .

إذا قالت نحلة في خلية كل هذا الغذاء لي ، وأخذت تتصرف بشمرة
الشغل العام فما يحل ببقية النحل ؟

إن الأرض كالحلية والناس كالنحل ، فلكل نحلة حق بما تحتاج إليه
من العسل ، فإذا وجد بين الناس من ينقصه شيء مما يحتاج إليه من خيرات
الأرض فذاك لأن العدالة والمحبة قد اختفتا من بين بني البشر .

إن العدالة هي الحياة والمحبة هي الحياة أيضاً بل هي أعذب وأهنا حياة .

لقد حقق بعض الأنبياء الكذبة لفريق من الناس ان البشر خلقوا
لخدمتهم ، وما آمن به هؤلاء آمن به غيرهم معولين على كلمة الدجالين .

وعندما تغلبت هذه الروح على الإنسانية بكت الملائكة في السماء
لأنهم أدركوا لان الشرور ستغطي وجه البسيطة .

الناس متساوون وقد خلقوا لخدمة الله وحده ومن قال غير ذلك فهو
مجذوف ، فمن شاء أن يكون فيكم كبيراً فليكن خادماً لكم ، ان شريعة الله
هي شريعة الحب ، والمحبة لا تريد أن ترتفع على غيرها بل تقدم نفسها
ضحية .

إن من يقول في قلبه : لست كغيري من الناس والناس وجدوا لأبسط
عليهم جناحي سلطتي وأنظمتهم في خدمتي فهذا هو ابن الشيطان .

الشیطان هو ملك هذه الدنيا لأنه سيد جميع الذين يفكرون ويفعلون
هكذا ، والذين يفكرون ويفعلون كذلك إنما يعملون بنصائح الشيطان
وهم سادة الدنيا ، بيد أن سلطتهم قصيرة العمر وسرى نحن نهاية زمانها ،
ستشب حرب طاحنة يحارب فيها ملك العدالة وملك المحبة الذين يقاتلون
لإعادة مملكة المحبة والعدل بين البشر ، كثيرون يموتون في هذه المعركة
إنما يظل اسمهم على الأرض ساطعاً لامعاً كشعاع مجد الله .

فتشجعوا أيها المعذبون وشددوا قلوبكم المتخلعة لأن الغد هو يوم
التجربة ، هو يوم التضحية في سبيل الإخاء ، وبعد غد الذي يليه هو يوم
الانعتاق من العبودية .

- ٧ -

نحن واحد

إذا كانت الشجرة وحيدة تصفعاها العواصف وتلويها الرياح من ثقب
أوراقها وتهشم أعضائها فتتخفف إلى الأرض بدلاً من أن ترتفع .

وإذا كانت النبتة وحدها لا تجد ما يقيها حرارة الشمس فتذبل وتيبس
 وتموت .

وإذا كان الإنسان وحده تلويه رياح القوة . وحرارة مطامع عظماء
الأرض تمتص العصارة التي تغذيه فلا تكونوا كالنبتة والشجرة المنفردتين
بل اتحدوا وتعاقدوا فيدعم بعضكم بعضاً ، أما إذا كنتم متفرقين لا يحلم
الواحد منكم إلا بنفسه فلا ترجوا غير الآلام والتعاسة والظلم .

من تراه أضعف من العصفور الدوري ومن هو أعزل أكثر من السنونو ومع ذلك عندما يظهر الطير الجارح يطرده الدوري والسنونو إذ تتجمع أسرابهما حوله وتلحق به جميعاً . فتمثلوا بها .

إن من يتفصل عن إخوانه يرافقه الخوف أينما سار والرعب يجلس قربه عندما يستريح وفي نومه لا يفصل عنه ، فإذا سئتم كم عددكم فقولوا : نحن واحد لأن اخوتنا نحن ونحن اخوتنا ، إن الله لم يخلق لا كبيراً ولا صغيراً ولا سيداً ولا عبداً ولا ملكاً ولا رعية ، بل أوجد الكل سواء .

ولكن بين الناس من هم أكثر من غيرهم قوة أو جسماً أو عقلاً أو إرادةً وهؤلاء هم الذين يفتشون عن إخضاع غيرهم لهم عندما تخنق الكبرياء والمطامع محبة أخوانهم من قلوبهم .

لقد علم الله بما سيكون فأمر البشر بالاتحاد والتحاب حتى لا يسقط الضعفاء تحت نير الأقوياء الثقيل . فمن كان أقوى من واحد وحده يكن أقل قوة من أربعة ، فلا خوف على الضعفاء ولا هم يحزنون إذا هم اتحدوا وتحابوا .

قطع رجلٌ جبلاً فوصل مكاناً انحط فيه صخر على الطريق فسدها فلم يبق له منفذ فجرب أن يزحزحه ليعبر فذهب كل جهده عبثاً ، فجلس وقلبه مملوء كآبة وحزناً وقال : ترى ماذا يحل بي عندما يجتني الليل ، مما تراه يفاجئني في هذه الوحدة بدون غذاء وبدون ملجأ وليس لدي شيء أدافع به عن نفسي عندما تخرج الذئاب تفتش عن فرائسها .

وفيما هو يفكر أقبل مسافر آخر ففعل فعله فلم يستطيع أن يهزا الحجر فجلسا صامتين منكسري القلب ، وأقبل بعد هذا كثيرون ولم يستطع أحد منهم أن يزحزح الصخر عن الطريق ، فاستولى الذعر على الجميع وقال أحدهم : فلنصل لإلهنا علّه يشفق علينا في هذه الضيقة .

فصلتوا . . .

بيد أن ذلك الرجل عاد فقال : يا أخوة ! من يعلم إذا كنا لا نستطيع أن تفعل ما لم يستطع فعله واحد منا . فأثارت كلمته حميتهم فنهضوا وأزاحوا الحجر وساروا في طريقهم آمنين .

إن المسافر هو الإنسان والسفر هو الحياة والصخرة هي المحن والمصاعب التي يصادفها في كل قيد باع من طريقه .

لم يستطع أحد أن يرفع الحجر وحده ولكن الله يزن الأثقال ولن يوقف أبداً الذين يسافرون معاً .

- ٨ -

لم يعد الناس أخوة

كان الإنسان في البدء مستغنياً عن العمل لأن الأرض كانت تقدم له جميع حاجاته فأثم وخطيء وثار على ربه كثارت عليه الأرض .

لقد حدث له ما حدث لولد ثار على أبيه فأقصاه وتركه يعيش وحده فرفضت خادمة منزل أبيه خلمته فسار يتعيش هنا وهناك .

منذ ذلك الحين قضى الله على البشر بالعمل والذي لا يشتغل كان أكبر البؤساء وكما تفرس الديدان الحليفة هكذا تفرسه الآثام وإن لم تكن الآثام فالضجر والملل .

و شاء الله أن يعمل الإنسان فأخفى له كنزاً في العمل لأن الله أب ومحببة الأب لا تموت أبداً . فمن أحسن التصرف بكنزه ولم يبده في الغباوة استراح وعاش كالذين عاشوا في فجر الخليقة .

قال الله : عاونوا بعضكم لأن بينكم أقوياء وضعفاء أعلاء وأصحاء
وعليهم أن يسيروا جميعهم في موكب الحياة . فإن فعلتم عشم جميعاً لأنني
أكافيء الرحمة التي تعاملون بها إخوانكم واجعل عرقكم مخصباً . ان ما
وعد به الله كان . ولم يُرَ رجل عاضد أخوانه يحتاج خبزاً .

كان رجل شرير لعنته السماء قليل المروءة يبغض العمل فقال في نفسه :
إن لم أعمل مت جوعاً والعمل حمل ثقيل علي لا أطيق احتماله . فتسرب
إلى قلبه فكر جهني فسرى وقبض على بعض أخوته النائمين وقيدهم
بالسلاسل وقال في نفسه : اني أضربهم بالعصي وأجلدهم ليشتغلوا لي
وأجني ثمرة أتعابهم . ورأى بعض الناس ما فعل فتشبهوا به فلم يعد الناس
أخوة بل صاروا أسياداً وعبيداً .

ومن تلك الساعة لبست الأرض ثوب الحداد .

- ٩ -

هذا الحقل لي

أنتم غرباء في هذا العالم . وأينما اتجهتم تجدوا من يطردكم قائلاً لكم :
هذا الحقل لي .

وبعد أن تجولوا في الأرض من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى
الغرب ترجعون عالمين أن ليس لكم فيها قيد باع تلد فيه امرأتكم العاملة
طفلها البكر . وإن ليس لكم فيها مطرح تستريحون فيه آخر يومكم الكتيب .
ولا ضريح يستطيع أبناؤكم أن يدفنوا فيه عظامكم .

إنه لبؤس شديد . إنما لا تغتموا فأبن البشر قال : للشعالب أوجار
ولطيور السماء أوكار أما ابن الإنسان فليس له مكان يسند إليه رأسه .

ليست الفاقة من الله بل هي عقبي الفساد وبنيت المطامع البشرية ولهذا يوجد دائماً فقراء . إن الفقر هو ابن الأثم وبذوره في كل إنسان والعبودية وبذورها منتشرة في كل هيئة اجتماعية . ولذلك تجدون دائماً فقراء لأن الإنسان يقتلع الخطيئة من ذاته . سيتناقص عدد الفقراء رويداً لأن العبودية تتلاشى من البشرية رويداً رويداً . فإذا شئتم أن تلاشوا الفقر تلاشوا الخطيئة فيكم أولاً ثم في غيركم وبذلك تقتلون العبودية في العالم . لا تلاشى الفقر بأخذ مال الغير لأنه كيف تلاشى الفقر بإيجاد الفقراء .

لكل الحق بحفظ ماله وإلا فلا يستطيع رجل أن يملك شيئاً . ولكل الحق أن يكتسب بعمله ما ليس له وإلا فيظل الفقر سرمداً .
حرروا إذن عملكم وأيديكم تضمحل الفاقة ويصبح الفقر كشدوذ في قاعدة الحياة .

- ١٠ -

المحبة قوت العدالة

لما كانت الأرض تنوح منتظرة المنقذ . ارتفع صوت في اليهودية .
سمع صوت مخذول دعي ابن النجار ازدراء يقول: تعالوا إليّ أيها المستعبون والثقيلو الأحمال وأنا أريحكم . ومن ذلك العهد حتى الآن لا يزال يشعر كل مؤمن براحة في بؤسه .

رأى داء الإنسانية العضال فركز بالعدالة التي هي بدء المحبة وبالمحبة التي هي قوت العدالة . العدالة تأمر باحترام الحقوق . والمحبة تريد أن تزيد على تلك الحقوق بما تنازل عنه من حقوقها تأييداً للسلام وتعزيزاً للصالح والبر .

لعمرك كيف تكون الدنيا إذا لم يسد فيها الحق والعدل وإذا لم يستطع
الإنسان أن يتلذذ بما له دون خوف . إن الحياة في أحشاء الغابات لأفضل
منها في هيئة سائدة فيها اللصوص .

إن كان ما تأخذه اليوم يؤخذ منك غداً فالناس إذا هم أشد بؤساً من
طيور السماء . لأن طيور السماء لا تحطف قوتها ولا عشاها . لا تشربوا
كأس الإثم فثمالتها البؤس والنوائب والموت .

- ١١ -

الأنوار الثلاثة

ورأيت الشر يملأ الأرض والضعيف مظلوماً والصدّيق يستعطي
خبزه . رأيت الشرير فوق مضاجع الشرف وصناديقه طافحة بالغنى .
رأيت الأطهار الأبرياء مشجوبين من قضاة جائرين . وأولادهم عاينت
تحت الشمس تائهين مشتتين .

وكانت نفسي حزينة وقد نفذ رجاؤها من كل جهة نفوذ الغازات
من إناء مكسر ، فرقدت رقاداً عميقاً .

ورأيت في ذلك النوم شبحاً منيراً منتصباً . أبصرت روحاً نظراته
عذبة محترقة قد وبلحت حتى أعماق أفكارى ونفسي .

فارتعشت لا خائفاً ولا فرحاً ولكنها عاطفة أجهل تحديدها حركتي
فقال لي الروح : لِمَ كنت كئيباً ؟

فأجبتة باكياً : ألا ترى الشرور تملأ الأرض ؟

فابتسم ذلك الشبح السماوي وقال : إن عينك لا ترى إلا من بين ثنايا

هذا الوسط الكاذب الذي تسمونه زماناً . إن الزمان لم يكن إلا لكم .
ئيس لله زمن .

وسكنت لأنني لم أفهم شيئاً .

فقال لي الروح فجأة : انظر .

نظرت قرأيت على لسانه الضعيف المهزول : ان البشر يسمونه ماضياً
وحاضراً ومستقبلاً وليس هؤلاء إلا واحد . ولكي أقول ما رأيت يجب
أن أعود إلى أحشاء الزمان وأتكلم بلسان البشر الضعيف المتلثم .

إنخال الجنس البشري شخصاً واحداً قد ارتكب شراً عظيماً وفعل
قليلاً من الخير : تمخض بالأم مبرحة وتلذذ بقليل من الفرح .

رأيته مضطجعاً في بؤسه مهزولاً شراً متألماً مرتجفاً مثقلاً بسلاسل
محددة في مسكن الشياطين . قد شدت يده اليمنى إلى اليسرى يتقلب في
الحديد وقد كسر من طرفه . التصق الحديد بجملده وكالرصااص المغلي
دخل جسمه .

هكذا وهناك كان الإنسان وقد عرفته . وظهر شعاع نور من الشرق
وشعاع حب من القبلة وشعاع قوة من الشمال . واتحدت الأشعة الثلاثة
على قلب ذلك الإنسان .

فعندما ذهب شعاع النور قال صوت : أيها الراعي الصالح اعلم ما يجب
أن تعمله .

وعندما ذهب شعاع الحب قال صوت : أيها الراعي الصالح حب
ما يجب أن تحبه .

وعندما خرج شعاع القوة قال هاتف : أيها الراعي الصالح افعل ما يجب أن تفعل .

واتحدت الأنوار الثلاثة بالأصوات الثلاثة وصاحت كلها بلسان واحد :
أيها الراعي الصالح لا تخدم إلا الله .

ولاح لي حينئذ ذلك الشبح كأنه جماعة من الشعوب والأمم . بيد
ان نظراتي الأولى التي ارتبته رجلاً واحداً لم تخدعني . ولم تخدعني أيضاً
عندما ارتبته مجموع شعوب وأمم . ثم رأيت تلك الشعوب متململة على
فراش شدتها قائلة : من أين جاءت آلامنا ونحولنا وجوعنا وعطشنا . والسلاسل
التي أغرزت بلحمنا .

ثم أدركوا أنهم أبناء الله ولم يحكم عليهم بالعبودية من أبيهم وأن
عبوديتهم منبع ويلاتهم فحاولوا تحطيم سلاسلهم وقيودهم فلم يظفروا
بذلك .

وتناظروا بتأثير عظيم فتحركت المحبة في قلوبهم وقالوا في نفوسهم :
لنا كلنا فكر واحد . فلم لا يكون لنا قلب واحد ؟ فلنخلص أو قلنمت
جميعاً . فشعروا إذ ذاك أن قوة إلهية فيهم وسمعت قطعة سلاسلهم
فحاربوا مقيدتهم ستة أيام فغلبوهم واستراحوا في اليوم السابع .

وكانت الأرض يابسة فاخضرت وأكلوا من ثمارها وأخذوا يجيئون
ويروحون دون أن يقال لهم : إلى أين ؟ ومن هنا لا تعبروا .

لم يعد في ذلك اليوم ولا تلك الساعة لا فقراء ولا أغنياء وحصل كل
إنسان منهم على حاجاته لأنهم تحاربوا وتعاضدوا كأخوة .

وسمع صوت في الأعالي يقول : المجد لله الواهب بنيه النور والمحبة .
والقوة والمجد للحمل الذي اشترى بدمه المسفوك حرية أخوية أبناء البشر .

حاربوا ولا تخافوا

إذا تألم أحدكم من ظلامه وثقلت عليه وطأة المضطهدين ودفعوه
بمناكبهم عن طريق الحياة . إذا أن تألم فبهيات أن يسمعه أحد .

إن صوت البائس يصعد إلى العرش الأعلى فيسمعه الأب القديم الأجيال .
أما إذن الإنسان فصماء عن كل نداء .

وسألت نفسي من أين جاء هذا البشر . هل الذي برأ الفقير كالغني
وخلق الضعيف كالقوي نزع من صدور الأغنياء الأقوياء كل خوف
فجاروا وظلموا . واقتلع من قلوب الضعفاء والفقراء كل أمل حتى عاشوا
مبتسئين بلا رجاء .

ورأيت أن في هذا تجديفاً على الله لأن كل إنسان لا يحب إلا نفسه
ولا يعيش إلا وحده . ويريد أن يكون وحده وأنيته لم يسمع أبداً .

عندما تدب الحياة في الطبيعة . وتنتشر حرارة الربيع تخرج من بين
الأعشاب ضوضاء أشبه بالدمدمة . تلك حركة مخلوقات حقيرة لم يكن
ليسمع صوتها إذا صاتت كل واحدة منها منفردة . إنما عندما اتحدت
أسمعت الكون صوتها .

إنكم مثلها مدفونون تحت أعشاب الاستبداد فلماذا لا يسمع لكم صوت .

إذا شاء الصبيان أن يعبروا جدولاً بنوا منهم ملماً كأطويلاً مزدوجاً
وتلازوا وهكذا يخرجون من التيار ظافرين قويهم وضعيفهم . فلماذا لا
تصنعون مثلهم لتقطعوا نهر البغي الذي يجرفكم إن كنتم منفردين ويطرحكم
على ضفتيه مهشمين .

كونوا ثابتين ولا تسقطوا . وإذا ظلمتم فاطردوا أولاً كل عاطفة
بغض من صدوركم وارفعوا أعينكم وأيديكم إلى السماء وصلوا
لأبيكم السماوي هكذا :

يا ربنا ! أنت حامي الأبرياء لأن محبتك هي التي خلقت الأرض .
وعدلك الذي يحكمها .

أتريد أن تسود عدالتك على الأرض والأشجار يقاومونها . اننا نريد
أن نحارب الشرير . فنور عقولنا يا رب وشدد أذرعنا .

ومني صليتم هكذا حاربوا ولا تخافوا . وإذا رأيتم الظفر باديء بدء
بعيداً عنكم فليس هذا إلا دليل على قربيه . ان دمكم كدم هابيل وميتكم
ميتة الشهداء .

- ١٣ -

مؤامرة هائلة

وكان الليل قائماً وانطبقت السماء على الأرض كما تنطبق قطعة رخام
سوداء فوق القبر .

لا شيء يزعج خاطر ذلك الليل غير حفيف أجنحة يسمع فوق المساكن
وفي فضاء البرية .

وأخذت الظلمة تتكاثف وتتلبد وشعر كل إنسان إن نفسه انقبضت
وتحشت الشعريرة في عروقه .

في غرفة مظلمة بالسواد ومنازة بمصباح ضئيل اجتمع في ظلمة ذلك
الليل سبعة أشخاص عصبت رؤوسهم بالتيجان وارتدوا البرفير والأرجوان
تربعوا على سبعة عروش من حديد .

نصب في وسط القاعة عرش مركب من العظام وطرحت خشبة العار تحت أقدام ذلك العرش كموطيء له . وأمام العرش وضعت منضدة من خشب الأبنوس وفوقها إناء مملوء من الدم المزبد . وعلى مقربة من ذلك الإناء جمجمة بشرية .

وكانت تغطي وجوه السبعة المتوحين غمائم الكآبة والحزن وعيونهم ترشق من وقت إلى آخر شرار نار مزرقة .

ثم نهض أحدهم واقترب من العرش العظمي مترجراً مضطرباً وداس خشبة العار فارتجفت عظامه وظهر كأن قواه قد خارت . أما الآخرون فكانوا ينظرون إليه مبهوتين كأنهم مسمرّون على عروشهم . وما لبثت أن رأيت ابتسامة على أفواههم هيئات أن يأتي بمثلها بشر .

ومدّ ذلك الحائر القوى يده وقبض على الإناء المملوء دماً وصب في الجمجمة وشرب فخلت أن ذلك الشراب قواه فرفع رأسه وأخرج من صدره صرخة كأنها الحشرجة وقال :

ملعون هو المسيح الذي بثّ في الأرض روح الحرية .

فنهض الستة المتوجون جملةً وصرخوا ملعون المسيح الذي بثّ في الأرض روح الحرية .

ثم جلسوا على عروشهم الحديدية فقال الواقف : يا أخوتي ! ماذا نصنع لنخفق الحرية فإن ملكنا ينتهي حيث يبتدىء ملكها . فليبد كل منكم رأيه . أما أنا فهاكم ما عنّ لي : لم يقف بوجهنا أحد قبل مجيء المسيح فديانته إذن هي التي ضعفت ملكنا . فلنلاش ديانة المسيح .

فصاحوا جميعاً : فلنلاش ديانة المسيح .

واقرب ثان من العرش العظمي وتناول الحمجمة وصب فيها دماً
وشرب وقال : لا يجب أن نلاشي الديانة فقط بل فلنلاش العلم والفكر
لأن العلم يميظ اللثام عما لا يتفق مع مصلحتنا والفكر مستعد دائماً لرفس القوة.
فصاح الجميع : فلنلاش العلم والفكر .

ثم تقدم الثالث من العرش العظمي وصنع كالأولين وقال : حسناً
نصنع بإغراقنا البشرية في الوحشية ثانية إذ نترع من قلبها الدين والعلم
والفكر . ولكن للوحشية غرائز وأميال خطيرة فلا يجب أن تسمع أمة
صوت أمة أخرى فتتأثر وتتصر لها فحذار إذن أن يلج مملكتنا صوت
من الخارج .

فصاح الجميع : لا يلج مملكتنا صوت من الخارج .

وفعل الرابع فعل من تقدموه ثم قال : لنا منافع وللشعب أخرى
لا تتفق مع منافعنا فإذا اتحد للدفاع عن مصالحه فكيف تقاومه . فلنقسم
نملك . ونجعل في كل إقليم ومدينة وقريه ومزرعة مصالح تضاد مصالح
غيرها من الأقاليم والمدن والقرى والمزارع وهكذا يتطاحنون ويتباغضون
فلا يفكرون بالاتحاد علينا والاعتصاب .

فصرخ الجميع : فلنقسم نملك . ان الاتحاد يقتلنا .

ثم تقدم الخامس من العرش العظمي وشرب ملء الحمجمة مرتين دماً
وصاح قائلاً : إن وسائلكم غير كافية . بشوا التوحش ثم خوفوا هذا
التوحش واضربوه بقضيب غضب لا يلين إذا خفتم أن يفترسكم عاجلاً
أو آجلاً : ان السيف أكبر وزراء المملكة العظيمة .

فصاح الجميع : إن السيف أكبر وزراء المملكة العظمى .

وقال السادس : العقابات الهائلة علاج ناجع بيد أنه يوجد نفوس قوية

عاتية وأراواح قاسية يشدها العقاب . فإذا شتم أن تحكموا بسهولة فلا شوم بالذات . ان الفضائل لا تجدينا نفعاً فهي تغذي القوة فافنؤهم بالمفاسد والشهوات .

فصاح الجميع : فلنلاشِ القوة والشجاعة بالملاذِّ والشهوات .

ونهض السابع حينئذٍ وشرب كغيره دمأ ، وقال وأرجله فوق الصليب : فليمح ذكر المسيح . الحرب بيننا وبينه إلى الأبد . ولكن كيف تفصل الشعب عنه . هذا تعب باطل فماذا يجب أن نصنع . أصغوا إلى كلامي . يجب أن نستميل كهنة المسيح بالعطايا والمنح وألقاب الشرف والقوة فهؤلاء يقودون إلينا الشعب باسم المسيح فيخضع في كل شيء لما نصنع ونأمر .

إن الشعب يؤمن بهؤلاء الكهنة ويطيعهم فباستمالتهم نوطد دعائم سلطتنا بلا معارض .

فأجاب الجميع : فلنستمل كهنة المسيح .

وانطفأ السراج فجأة . وانساب السبعة المتوجون كالحيات في أحشاء الظلمات .

وسمع صوت يقول لرجل صدِّيق كان جاثياً مصلياً أمام المصلوب : صلِّ ولا تخف فقد اقترب الأوان .

— ١٤ —

الأشباح السبعة

ورأيت كما يرى على الأرض في ساعة الشفق سهلاً أجرد مقفراً بارداً في وسط ضبابة شهباء .

وفي وسط ذلك السهل انتصب صخر عظيم تسقط عليه المياه السوداء
نقطةً نقطةً . ولم يكن في ذلك القفر غير ضوضاء صماء يحدثها تساقط
تلك النقط .

وكان في ذلك السهل الفسيح سبع طرق تتلوى كالأفاعي وكلها تؤدي
إلى ذلك الصخر . وقد وضع يقرب الصخر الكبير عند مدخل كل طريق
حجر مغطى بثوب نسجته الرطوبة .

ولاح لي على إحدى الطرق السبع شبح يتحرك ببطء وكان أن دنا مني
فلم أرَ به رجلاً بل ما يشبه الرجل . وفي مكان قلبه بقعة دم . جلس على
الصخر الرطب يرتجف ويشد بذراعيه على جسده كأنه يريد أن يحفظ فيه
بقية من الحرارة .

ثم رأيت ستة أشباح على مفارق الطرق الست الباقية جاؤوا وفعلوا مثله
وجلسوا جميعهم صامتين على الصخر الأخضر منحنيين تحت أثقال ضيقة
لا تدرك .

وظلوا هكذا مدة طويلة لأن الشمس لا تشرق على هذا القفر ولا
يعرف فيه لا صباح ولا مساء . والمياه السوداء تتساقط على نمط واحد
أبداً سرمداً .

لقد هالني ذلك المشهد المخيف إذ رأيت أحد الأشباح رفع صوته
وصاح بصوت أبعج جاف : لقد انتصر المسيح فليكن ملعوناً . فارتعش
الأشباح الستة ورددوا عبارته عينها وتكاثف الضباب وانقطع المطر الأسود
وساد على الأشباح سكوت عميق إلى أن قال أحدهم : ماذا أفادتنا تلك
المجامع والآراء .

فأجابه واحد : ان الإيمان والفكر قد حررا الأرض وحطما سلاسل الشعوب .

وقال آخر : أردنا تقسيم البشر فوحدهم ظلمنا واضطهادنا .

وقال غيره : لقد أرقنا الدم فسقط ذلك الدم على رؤوسنا .

وقال آخر : قد زرنا الفساد والدعارة فنبنا فينا وافترسا عظامنا .

وقال آخر : لقد ظننا أننا خنقنا الحرية فاييس نفَسُّها سلطتنا حتى جذورها .

فصاح السابع عندئذ : لقد غلب المسيح فليكن ملعوناً .

فرددوا جميعاً ما قاله بصوت واحد : ورأيت يداً تقدمت وغمست اصبعها في الماء الأسود ورسمت به جبين الأشباح السبعة فاخفوا . واخفوا إلى الأبد .

- ١٥ -

الطماع لا يحب

ليس لكم إلاّ يوم واحد على الأرض فاقضوه بسكينة وسلام .

إن السلام هو ثمرة المحبة ولكي نحيا بسلام يجب أن نعرف كيف نحتمل أموراً كثيرة .

لا أحد كامل ولكل منا عيوب ونقائص وكل إنسان يثقل على أخوانه . والمحبة وحدها تجعل الحمل خفيفاً . فإذا كنت لا تستطيع احتمال أخوتك فكيف تستطيع أخوتك أن يحتملوك .

لقد قيل عن ابن مريم : لقد أحب خاصته حتى الموت . فحبّوا
إخوانكم إلى النهاية .

إن المحبة لا تعب ولا تكل . إن المحبة لا تنفذ . تحيا وتولد من تلقاء
نفسها وتفتح قلبها وترداد وتفيض . ان من يحب نفسه أكثر من أخيه لا
يستحق من مات لأجل أخوته . أعطيتم خيراتكم ؟ ! أعطوا أيضاً حياتكم
والمحبة ترد لكم كل شيء .

الحق أقول لكم : إن قلب الذي يحب لفردوس " على الأرض والله
في ذلك الفردوس لأن الله محبة .

إن الرجل الطمّاع لا يحب أبداً لأنه جائع وعطشان إلى كل شيء
وعينه كعين الأفعى تسحر وتجذب ولكن لتفترس .

إن المحبة تستقر في أعماق النفوس الطاهرة كنقطة الندى في كمّ الزهرة :
ليتكم تعلمون ما هي المحبة .

تقولون إنكم تحبون وكثيرون من إخوانكم يحتاجون إلى الخبز
والثياب . إلى حزمة من قش ليناموا فوقها وإلى سقف يظللهم . بينما أن
كل شيء متوفر لكم .

تقولون إنكم تحبون . وعدد كبير من المرضى يهزلون ويذوبون على
مضاجعهم . وكم من التعساء يبكون وما من يبكي معهم . وكم من صغار
يرعد البرد فرائصهم يدورون على الأبواب يسألونكم فضلات مواثدكم
ولا يحصلون عليها . تجودون بها على الخنازير وتضنون بها على أخبيكم
الإنسان .

تفعلون ذلك وتقولون إنكم تحبون أخوتكم فماذا كنتم تصنعون لو
كنتم تبغضونهم ؟ ؟

إنني أقول لكم : إن من استطع أن يعزّي أخاه المتألم ولا يفعل هو عدو أخيه ، ومن استطاع أن يطعم أخاه الجائع ولم يفعل فهو قاتله وجلّاده .

- ١٦ -

جذر الإيمان لا يبس

قد يوجد أناس لا يحبون الله ولا يتقونه أبداً فاهربوا منهم لأن بخار اللعنات يتصاعد من أفواههم .

أهربوا من المنافق لأنه يقتل نفسه ولا تبغضوه لأنه من يعلم إذا كان لا يغير قلبه .

فالرجل الشديد الإيمان نفسه قد يقول : لا أومن أبداً وينخدع غالباً . أجل أنه يوجد في أعماق النفس جذر من الإيمان لا يبس أبداً .

إن الكلمة التي تنكر وتجدد الله تحرق الشفاه . والضم الذي يفتح للتجديف عليه منفذ لبخار جهنم .

إن المنافق وحيد في الكون . فكل المخلوقات تمجد الله حتى نجوم الليل فإنها تهلل له بلغتها السرية .

إن رقاد الأبرار حلو وموتهم عذب لأنهم عارفون أنهم راجعون إلى أبيهم .

وكما يترك الفلاح الفقير حقله عند زوال النهار راجعاً إلى كوخه ويجلس أمام باب ناسياً مشتتة فائراً إلى السماء . هكذا عندما يأتي المساء يعود رجل الرجاء بفرح إلى بيته الأبوي ويجلس على عتبة ناسياً مشتتة المنفى عند رؤيته الأبدية .

الأيتام لا يتركون

كان رجلان متجاورين ولكل منهما أولاد صغار وامرأة يعولهم من عمله . فاضطرب أحدهما وقال في نفسه : ماذا يحل بزوجتي وبنيتي إذا ماتت أو مرضت .

واستحوذ عليه ذاك الفكر لم يعد يفارقه وكان يقرض قلبه كما تقرض الدودة الثمرة وهي مختفية فيها .

ومرّ هذا الفكر في مخيلة الرجل الآخر مرور الطائر في الجو لأنه قال في نفسه : هو الله الساهر على مخلوقاته يتعهد زوجتي وأولادي : فعاش مطمئناً بيد أن جاره لم يذق الراحة .

وبينما كان يشتغل كثيراً خائر القوى رأى طيوراً تدخل عليقة وتخرج منها ثم تعود إليها أيضاً فتقدم منها فرأى عشرين قرب بعضهما وفي كل واحد منهما فراخ عديدة .

وكانت الطيور تروح وتجيء حاملة الغذاء إلى صغارها . وبينما كانت إحدى الأمين داخلة لتزق فراخها قبض عليها عقاب والتهمها . فاضطربت نفس الرجل أيما اضطراب وأيقن أن يموت الأم موت الفراخ . وقضى نهاره كثيراً مغموماً ولم ينم تلك الليلة . عاد في الغد إلى حقله ظاناً أن صغار الأم قد ماتت وما كان شدّ اندهاشه إذ رآها على أحسن حال فتعجب واختبأ يلاحظ ما يحدث فجاءت الأم الثانية بالزاد ووزعته على فراخها والفراخ اليتامى بدون تمييز لأن الأيتام لا يتركون في رؤسهم .

فأسرع الرجل المرتاب بالعناية الإلهية إلى جاره وقص عليه ما رأى

وقال : لماذا نقلق ونضطرب فالله لا يهمل أحداً . فلنؤمن ولنترج ونحب ونسر بطريقنا في سلام . فإذا مت قبلك كنت أباً لأولادي وإن مت قبلي كنت أباً لبنيك . وإن متنا كلانا فلهم أب واحد وهو في السماء .

- ١٨ -

صلوا ولا تملوا

ألا تشعرون متى صليتم إن قبلكم أخف ونفسكم أكثر راحة . إن الصلاة تخفف آلام الكآبة وتزيد الفرح فرحاً . إنها تخرج الكآبة بالقوة والتعزية والفرح بالعطر السماوي .

ماذا تصنعون على الأرض وليس لكم أن تطلبوا شيئاً من الذي أوجدكم فقد خلق لكلكم شيء .

أنتم كمسافر يسعى للوصول إلى وطنه فلا تمشوا أبداً برأسٍ منخفض بل ارفعوا أعينكم لتروا الطريق . إن وطنكم هو السماء . ومتى نظرتم إلى السماء أفلا تهترون ؟

يقول البعض : لماذا نصلي ؟ إن الله أسمى جداً من أن يسمع هذه المخلوقات الدنيئة .

الحق أقول لكم : إن من يقول إن الله يذلُ صنعه يديه ويحتقرهم يجدف على الله .

ويقول آخرون : لماذا نصلي ؟ ألا يعلم الله ما نحتاج إليه فيعطينا ؟ إن الله أعلم بحاجاتكم ولأجل ذلك يريد أن تطلبوا منه . لأن الله هو أول حاجاتكم وبالصلاة تمتلكونه .

إن الأب يعلم بحاجات ابنه . أيجب إذاً على الابن ألا يكلم أباه ولا يحدثه ولا يسأله شيئاً ؟

متى تأملت الحيوانات أو خافت أو جاعت ترسل صراخاً مؤثراً . وهذا الصراخ هو الصلاة التي توجهها إلى الله والله يسمع . أياكون الإنسان وحده في الخليقة لا يصعد صوته إلى أذن الخالق ؟

قد تعبر الجبال أحياناً ريح تجفف النبات . فتتوسد السوق النضيرة الأرض بيد انه متى بللها الندى تستعيد نضارتها وترفع رأسها الذابل . تهب كثيراً رياح محرقة على نفس الإنسان وتيبسها . والصلاة هي الندى الذي ينعشها ويجدد نضارتها .

- ١٩ -

الملوك للشعوب

ليس لكم إلاّ أب واحد وهو الله .

فإذا قيل لكم عن أصحاب السلطة العظمى على الأرض : هؤلاء أسيادكم . فلا تصنعوا . فإذا كانوا صلاحاً فهم خدامكم وإن لم يكونوا كذلك فهم ظلامكم .

خلقنا متساوين ولم يجلب أحد معه شيئاً إلى الأرض . من جاء إلى الدنيا حاملاً صكاً بالولاية والحكم ؟

رأيت في سرير طفلاً صارخاً راثلاً ورأيت حوله شيوخاً ساجدين أمامه يقولون له : يا سيد . فأدركت إذ ذاك بؤس الإنسان .

هي الخطيئة أوجدت الأسياد فبدلاً من أن يتحاب البشر ويتعاضدوا

كأخوة أخذوا يضربون بعضهم بعضاً . وحيثذ اختاروا منهم واحداً
أو كثيرين ظنّوهم أكثر عدلاً ليحموا الأخيار من الأشرار فيعيش الضعيف
بسلام .

ولكنه وجد أناس كثيرون يريدون أن يحكموا بنفوسهم كأنهم أرفع
وأسمى جبلة من أخوانهم . ان سلطتهم غير مشروعة وحكمهم هو حكم
الكبرياء والمطامع .

في ميزان العدل الإلهي تثقل مشيئتك على مشيئة الملوك . لأن الشعوب
هي التي توجد الملوك والملوك وجدوا الشعب ولم يوجد الشعب للملوك .
إن الآب السماوي لم يكون أعضاء بنيه ليكسرها الحديد ولا نفوسهم
لتقتلها العبودية .

لقد وحد الشعوب عيالاً وكل العيال أخوة . وقد وحدها أمماً وكل
الأمم أخوة ومن يفصل عائلة عن عائلة وأمة عن أمة يفرق ما وحده الله
وبهذا يتم عمل الشيطان .

وتوحيد عائلة بعائلة وأمة بأمة شريعة الله وشريعة العدل وشريعة المحبة
وشريعة الحرية التي هي شريعة الله .

وبلا حرية لا يثبت اتحاد بين البشر بل يكونوا متحدين كما يتحد
الحصان براكبه ومقرعة السيد بجلده عبده .

وإذا جاءكم أحد وقال لكم : أنتم لي : أجيئوه : نحن لله .

أأنتم أحرار؟؟

لا تنخدعوا بالأكاذيب . فكثيرون يحاولون إيهامكم إنكم أحرار لأنهم كتبوا كلمة « الحرية » على صحيفة من الورق وعلقوا الإعلانات في الشوارع .

ليست الحرية بكلمة ولا بإعلان بل هي قوة حية يشعر بها الناس في نفوسهم وحواسهم . هي الجبار الحامي البيوت الكافل الحقوق الاجتماعية بل هي أول هذه الحقوق فالطاغي المستر باسمها هو شر الطغاة لأنه يضيف الكذب إلى جورهِ وطغيانه . ألا إن اسم الحرية لمقدس .

حذار إذن ممن يقولون : حرية . حرية . أما أعمالهم فتحاول خنقها . أنتم انتخبتم الذين يحكمونكم ليفعلوا هذا ولا يفعلوا ذلك . ليقطعوا الجبايات على أملاككم وصناعتكم وأشغالكم . إذا لم تكونوا أنتم فكيف تكونون أحراراً؟؟

أستطيعون أن تتقفوا أولادكم كما ترتجون . وتسلموهم لمن تتقون به ليهذبهم . وإذا كنتم لا تستطيعون ذلك فكيف تكونون أحراراً؟

إن طيور السماء وحشرات الأرض تجتمع لتقوم مشرقة بعمل لا يستطيع واحد منها عمله وحده . أفلا تستطيعون أنتم أن تتحدوا لتدافعوا عن حقوقكم وتخففوا شيئاً من أحمال مصائبكم وبلاياكم . وإذا كنتم لا تقدرُونَ أن تفعلوا ذلك فكيف تقولون إنكم أحرار؟؟

أتقدرون أن تذهبوا من مكان إلى مكان آخر إذا لم يسمحوا لكم؟؟
كلوا ثمار الأرض غلة أيديكم . غطسوا أصبعكم في مياه البحر ودعوها

تنقط على الأرض حيث تطبخون دون أن تدفعوا الغرامة أو تزجوا في السجن . وإذا كنتم لا تستطيعون ذلك فكيف تكونون أحراراً ؟؟

أتكفلون عند نومكم مساء أنهم لا يطلعون بفتة وينبشون خباياكم ويفتشون بيوتكم ويسحبونكم من مضاجعكم ويطرحونكم في السجون لأن السلطة الجبان تحذركم . وإذا كنتم لا تستطيعون ذلك فكيف تكونون أحراراً ؟؟

ان الحرية تولد فيكم شجاعة ونباتاً وتحرركم من عوديتكم . ان الحرية تضيء لكم إذا قلمت في قلوبكم نريد أن نكون أحراراً . ومتى تحررتم صرتم أهلاً للتضحية والتألم .

إن الحرية تضيء لكم من حيث مات المعلم الحر ليعلمكم أن تموتوا من أجل بعضكم .

- ٢١ -

أيها أنتم

الشعب جاهل لا يدرك النافع من الضار . وحرصاً على منفعه وخوفاً عليه من التهور في بلج البوار يجب أن يكون مقيداً بسلاسل الوصاية . أوليس على الذين في النور أن يقودوا المتسكعين في الظلام .

كذا يقول جماعة المرائين الذين يطلبون الوصاية على الشعب ليسمنوا مما يأكلون من ثروته وماله . يقولون لكم أنتم غير أكفاء للقيام بمصالحكم ولا تحسنون حتى إدارة بيوتكم . ولا تعرفون حتى كيف تربون بنيكم فيسترعونهم من بين أذرعكم ويرمونهم في بواليع النفاق والدنايا .

إذا كان كل ما يقولونه عنكم حقيقياً تكونون دون البهائم لأن البهيمة تعرف كل ما تتحققه وأنتم لا تعرفونه . فهي لا تحتاج إلا إلى الفريزة لتعرفه .

لم يصنعكم الله لتكونوا قطعاً يراعاكم بعض الطماعين ليدفأوا بصوفكم ويتغذوا بلبنكم ويتلذذوا بلحومكم ؛ لقد أوجدكم لتعيشوا أخوة أحراراً في الهيئة الاجتماعية وليس للأخ أن يحكم على أخيه بشيء . إن الأخوة يرتبطون ببعضهم بعهود مشتركة . وتلك العهود تسمى الشريعة . واحترام الشريعة واجب على الكل على السواء . على الكل أن يرتبطوا بالشريعة ليصدوا عنها هجمات أعدائها الذين يحاولون اختراق حرمتها . إن الشريعة ملجأ ونبوع خيرات للكل لا ينضب .

كونوا رجالاً . فلا يستطيعون أن يقرونكم كالثيران في الأنبار مرغمين ولا أن يزنقوكم مكرهين .

على الأرض حيوانات بلهاء يزرّبونها في الزرائب ويغذونها للعمل وعندما تشيخ يسمونها للذبح . وعلى الأرض أيضاً حيوانات تعيش حرة لا استطاع إجبارها على العمل . ولا تقاد بالتمليق ولا تنخدع بالمليئة ولا تؤخذ بالتهديد والضرب .

إن الشجعان من البشر أشبه بهذه . أمّا الجبناء فيشبهون الأولى . فأيهما أنتم ؟؟

- ٢٢ -

الحرية كملكوت الله

أعرفون كيف تتحررون ؟؟؟

حباً لله يا من تحب الحرية . فمضى أحبته صرت حراً . من يحب الله يصنع مشيئته . ومشية الله هي العدل والمحبة . والحرية وليدهما .

إذا مددنا أيدينا إلى أموال الغير ، إذا منعنا الناس أن يفعلوا ما يريدون ،
إذا أجبرناهم أن يفعلوا ما لا يريدون ، إذا اخترقنا حرمة حقوقهم ، ماذا
نسمي ذلك ؟ ؟

أليس ظلماً ، إن الظلم إذاً هو الذي يهدم الحرية .

إذا كان الرجل لا يحب إلا ذاته ، ولا يحلم إلا بنفسه . يسد أذنيه
إذا سمع صراخ المستغيث . أفلا يضطر الفقير أن يختلس مال قريبه ليعيش ؟
والضعيف ، ألا يظلم ممن هو أقوى منه ؟ وهذا القوي ألا يظلمه الأقوى ؟
وهكذا إلى ما لا نهاية له ؟ أجل هكذا يسود الظلم في كل مكان . فالمحبة
إذن هي التي تصون الحرية .

حبوا الله والقريب تحتف العبودية عن وجه الأرض . أما النفعيون
فيطولون عهد العبودية بالكذب والقسوة .

يقولون عن سلطتهم الاستبدادية وعن عبودية البشر أنها من الله .
« ولا سلطة إلا من الله » أفلا يخافون من هذا التجديف عليك يا الله ؟

أجيبوهم أن إلههم هو الشيطان عدو البشر وإن إلهكم هو الذي غلب
الشيطان .

لا تنبت الحرية إلا بين أشواك الاضطهاد ولا تنمو ما لم تسق بالدم .
فإذا كنتم لا تفصلون أن تحاربوا بلا ملل فاحملوا قيود ذلكم وناموا في
ظلال الموت إلى الأبد . تنزلوا عن حرية أنتم غير أهل لها .

إن الحرية كملكوت الله تتألم بشدة والعتاة يختلسونها . والقوة التي
تملككم الحرية ليست قوة اللصوص وقطاع الطرق ، ليست قوة الظلم
والانتقام ، ولكنها إرادة قوية صلبة وشجاعة هادئة شريفة .

إن أقدس العلل قد تستحيل فتصير علة جائرة مكروهة إذا جعلنا
الجريمة دعامة لها .

إن الشقي من البشر قد يتحول من عبدٍ إلى طاغٍ جائر ولكنه لن يصير
حرّاً أبداً .

- ٢٣ -

مملكة الله

من أعماق بؤسنا نصرخ إليك يا رب . كصراخ حيوانات أجدبت
مرعاتها وجفت مسقاتها .

كصراخ النعجة التي اختطف حملها .

كصراخ الحمامة التي انقض عليها العقاب .

كصراخ الغزال في براثن النمر .

كصراخ الثور وقد أنهكه التعب وأدمت جسمه المناخس .

كصراخ الطائر الجريح الذي يطارده الكلب .

كصراخ السنونو الساقطة عياءً بعد قطعها الأوقيانس وهي تحتبط
في الموج .

كصراخ مسافر تائه في برية مقفرة ولا ماء فيها .

كصراخ الغرقى على شاطئ جديد .

كصراخ من وُجد بغتة قرب مقبرة ورأى طيفاً مخيفاً شنيعاً .

كصراخ أب اختلست منه كسيرات خبز يحملها إلى صبيته المتضورين
جوعاً .

كصراخ سجين طرحه البغاة في سجن رطب مظلم .

كصراخ عبد أعمل سيده في جسمه السوط .

كصراخ بريء يقاد إلى الشق .

كصراخ اسباط إسرائيل عندما ضاعف البغاة أيام عملهم وانقصوا
طعامهم .

كصراخ شعوب الأرض قبل أن لاح لها فجر الحرية .

كصراخ يسوع على الصليب عندما قال : يا أبنا لماذا تركتني .

إن دمه هو الذي حرر البشر من عبودية ملوك الأرض .

انظروا أرجله ويديه المثقوبة وخصرته المفتوحة ورأسه المغطى بجراح
مضرجة بالدم .

يا معلم !! في الأرض التي أعطيتهم إياها ميراثاً حفرها لك قبراً .
طرحوك فيه وختموه بحجر وعليه اضطجعوا . ولكن ليس إلى الأبد .

لقد تفكك الختم النجس وتشقق الحجر واستفاق الراقدون وابتدأت
مملكك التي هي عدل ومحبة وسلام وفرح في الروح القدس .

- ٢٤ -

في تلك الساعة

لكل شيء يحدث في هذه الدنيا علامات تسبقه . فإذا أوشكت الشمس .
أن تطلع من وراء الجبال تلون الأفق بألف لون . وهدير شواطئ البحار
ينذر بقدوم الزوابع وثوران الأمواج يعلن طلائعها .

إن الأفكار العديدة المتلوة التي تنمو وتمتدج في الأفق الروحي هي علامة بزوغ شمس المعرفة « الكامنة وراء جبال جماجم الشهداء الذين شهدت مصرعهم الدهور »

إن ضجيج الأمم المضطربة علامة تبشر بالزوبعة التي ستحرك الأمم المرتعشة . فاستعدوا لأن الزمان قد أتى . انه ليوم رهيب لم يسمع بمثله من ذي قبل . سيعوي الملوك على عروشهم كالذئاب ويمسك كل منهم بكلتا يديه تاجه الذي تكنسه العاصفة عند هبوبها . في تلك الساعة يخرج العظماء والأقوياء من قصورهم خوف أن يدفنوا تحت أنقاضها . سيقفون في مفارق الطرق يسألون العابرين خرقاً ليكتسوا وقليلاً من الخبز الأسود ليأكلوا وهيهات أن يكون لهم ذلك .

سيكون ما بينهم أناس عطاش إلى الدم ويعبدون الموت . والموت يمد يده القوية كأنه يباركهم فتمس أنامله قلوبهم فلا تعود تنبض . ان علم العلماء سيكون في تلك الساعة ككلغة سوداء في شمس المعرفة . ولا تكاد تبرز تلك الشمس حتى تحول الغيوم التي كومتها الزوبعة بخاراً لطيفاً تطرده الرياح نحو المغرب . فتخضر الأرض وتخصب وينقى وجه السماء ويلوح في الكون نور بهي بدلاً من النور الضئيل الذي ندعوه فجرأ . نور يشبه انعكاس وجه الله . فيعرف الناس إذ ذاك ما هو الإنسان فيحب كل أخاه ويسعد إن خدمه . في تلك الساعة تتلاشى السيادة الكاذبة وتساوي المحبة بين البشر فتصير جميع الأمم أمة واحدة . وهذا تفسير الحروف الأربعة التي علقها العميان فوق خشبة صليب الناصري .

الحياة محبة ورجاء

في إحدى ليالي الشتاء حين كانت الريح تعول والثلج يكفن البيوت كانت عجوز في غرفة ضيقة تغزل وتدفيء يديها من وقت إلى آخر على جمرة صغيرة . ينير غرفتها شعاع سراج من الفخار تنكسر أنواره الضئيلة على صورة م الرجاء معقلة على الحائط وقد جلست الفتاة ساكنة قرب أمها تنظر إلى شبيبته ثم قالت لها : ما كنت دائماً يا أماء في هذا العدم .

فأجابت العجوز : تلك مشيئة الله وهو خالقنا وما صنعه فهو حسن .

وسكتت هنيهة ثم قالت : كنت أظن حين فقدت والدك أن لا تعزية لي فكننت عزائي . فلو عاش ورانا في هذه الفاقة لانسحق قلبه . إن الله كان ينظر إليه بالرحمة .

فتساقطت على وجني الفتاة بضع دمعات حاولت إخفاءها . أما العجوز فقالت : والذي كان ينظر إلى أبيك بالرحمة نظر إلينا أيضاً . فماذا ينقصنا ؟ أجل انا تعودنا على القليل الذي نحصله بعرق جبيننا وهو يكفيننا . لقد أعطانا الله خبزاً ومسكناً وكثيرون لا خبز ولا مسكن لهم . إن الله قد أعطانيك فله الشكر وعلى م أتأسف .

فسقطت الابنة على ركبتي أمها وارتمت في حضنها باكية . فتجلدت الأم وقالت : ليست السعادة في أن نملك كثيراً بل في أن نحب ونترجى كثيراً . وسعداً لمن يحيا بالمحبة ويموت على الرجاء .

الحقيقة والخيال

إن ما تراه أعينكم وتلمسه أيديكم ليس الا ظلال . وان ما يقرع آذانكم ما هو إلا صدى داخلي خفي بعيد ويصلي ويثن ويتحب في حشا الإبداع والتكوين . لأن كل خليقة تتحب . كل خليقة تتمخض لتضع . إنها تجد لتولد وتظهر الحياة الحقيقية . لتعبر من الظلمة إلى النور . لتجتاز من منطقة الخيال إلى منطقة الحقيقة .

ما الشمس اللامعة الجميلة إلا ثوب مظلم يرمز إلى الشمس الحقيقية التي تضيء وتدفيء النفوس . وهذه الأرض المخضرة ما هي إلا كفن شاحب أدرجت فيه الطبيعة ، لأن الطبيعة ساقطة كالإنسان في القبر ومنه ستخرج أيضاً .

وتشبه نفوسكم في أجسادكم مسافراً بات ليله في خيمته فرأى أو ظن أنه رأى خيالات تمر وتعب . ان الدنيا الحقيقية محجة عنكم . فمن يفتش في أعماق قلبه يرها وراء الشفق البعيد . ان فيها أسراراً قوية كالموت ترقد ثم تستيقظ هنيهة وتفتح كوة من الحجاب الذي يمسكه الزمان في يده المتجعدة المتشنجة . والعين الداخلية تندهش مما تراه من الغرائب .

أنتم جالسون على شاطئ بحر الكائنات ولكنكم لم تلجوا أبداً أعماقه . إنكم تمررون مساءً على سيف البحر ولا ترون إلا قليلاً من الزبد الذي تلفظه الأمواج على الشاطئ .

وبماذا أشبهكم أيضاً . إنكم تشبهون طفلاً في حشا أمه ينتظر ساعة الولادة . أو مثل الدودة التي ترحف على الأرض منتظرة الساعة التي تصير فيها فراشة فتفلت من سجنها الأرضي . وتطير نحو السماء .

يا أبتاه اغفر لهم

من هم الذين ازدحموا حول المسيح ليسمعوا كلمته ؟؟
الشعب .

من هم الذين اتبعوه إلى الجبل والمكان القفر ليصغروا إلى تعاليمه ؟
الشعب .

من هم الذين اختاروه ملكاً ؟
الشعب .

من هم الذين فرشوا ثيابهم على طريقه وطرحوا أمامه سعف النخل
صارخين « أوصانا » عند دخوله إلى اورشليم ؟
الشعب .

ومن هم الذين شكوا في نفوسهم لأنه شفى المرضى يوم السبت ؟
الكتبة والفريسيون .

ومن هم الذين سألوه بالمكر والحيلة ليأخذوه في الفخ ؟
الكتبة والفريسيون .

ومن قال عنه لقد ملك . ومن دعاه رجل قصف محباً للشهوات ؟
الكتبة والفريسيون .

ومن أعده مشاغباً ومجدفاً ؟ ومن تأمر ليميته ؟ من صلبه على الجلجلة
بين لصين ؟

الكتبة والفريسيون وعلماء الشريعة وهيردوس وأعوانه والحاكم
الروماني ورئيس الكهنة .

لقد خدعوا الشعب بدهائهم فطلب قتل من غذّاه . ورأى يسوع أنهم خدعوا الشعب فصرخ منادياً أباه قائلاً : يا أبته اغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون .

ومنذ ثمانية عشر قرناً ولم يغفر لهم الآب . وهم يجرون وراءهم منكلتهم في كل الأرض . وفي الأرض ينخفض العبد رأسه ليراهم .

إن مغفرة المسيح لم تفدهم . لم يجيء ليخلص فريقاً من البشر بل جميع الناس . ولكن الصغار والضعفاء والمتواضعين والفقراء وكل الذين كانوا يتألمون أحبهم محبة مميزة . لقد نبض قلبه لقلب الشعب . وهناك من قلب يسوع تتعش القلوب المريضة . والشعوب المظلومة تستمد منه القوة لتحرّر . فويل لمن ينكره .

إنه يعيش في بؤس مقعد وعبودية أزلية .

- ٢٨ -

تذكروا الدياميس

في ذلك الزمان كان يظن من يذبح من يخالفه معتقداً انه يرضي الله بتقديمه له ضحية شهية . فما أمقت ذلك الذبح والقتل . بل كيف يرضي الله ذبح الإنسان وهو قد قال : لا تقتل .

عندما يسيل دم الإنسان على الأرض كقدمة لله تركض الشياطين لتشربه وتدخل في من سفكه .

لا يبدأون بالاضطهاد إلاّ عندما يقنطون من الإقناع ولا يقنط من الإقناع إلاّ من يلعن في قلبه قوة الحقيقة أو يكون غير واثق بصحة العقائد

التي يبشر بها . يا له من مجنون ذلك الذي يقول للناس . آمنوا أو موتوا .
إن الإيمان هو ابن كلمة الله يدخل القلوب مع الكلمة لا مع الخنجر .
جاء ابن البشر ليصنع الخير فاجذب إليه بصلاحه ولطفه أشد النفوس
صلابة . لقد باركت شفاهه الإلهية ولم تلعن إلا المرائين .
لم يحتر جلادين ليكونوا رسلاً .

لقد قال لخاصته : اتركوا كل شيء ينمو معاً . إن رب البيت ينقي
القمح من الزؤان على البيدر . وقال للذين دفعوه ليسقط ناراً من السماء على
مدينة الزنادقة : لا تعلمون من أي روح أنتم .

إن روح يسوع كانت روح سلام ورحمة ومحبة . فالذين يضطهدون
ويظلمون باسمه . والذين يسبرون الضمير بالسيف ويعذبون الجسد ليردوا
النفس إلى الإيمان . والذين يسيلون الدموع بدلاً من أن ينشفوها ليس فيهم
روح يسوع .

ويل للذين يدنسون الإنجيل يجعله وسيلة للرعب والرعدة . ويل للذين
يكتبون بشارة جديدة على ورقة مزرجة بالدم .
ألا فاذكروا الدياميس .

ففي ذلك الزمان جرّوكم إلى النطع ورموكم إلى الوحوش الضارية
في المسارح المدرّجة ليتلذذ ويتسلى بمنظركم الرعاع . كانوا يطرحونكم
ألوفاً في قاع المناجم والسجون . لقد ضبطوا أملاككم . كانوا يدوسونكم
بالأرجل كما تداس الوحول في الساحات العمومية . كنتم تلتجثون إلى
أحشاء الأرض لتحفظوا بأسراركم المحرمة المضطهدة .

ماذا كان يقول عنكم مضطهدوكم ؟ ؟ لقد كانوا يقولون إنكم تديعون

عقائد خطيرة. وان بدعتكم تهدد الأمن والسلام العام. وإنكم خونة النواميس
والشرائع وأعداء الجنس البشري ترزعزون السلطنة بزعة دينها .

بربكم ماذا كنتم تطلبون في تلك الضيقة وذلك الاضطهاد . ألم تطلبوا
الحرية ؟ لقد طلبتم إلا تخضعوا إلا لله . وأن تخدموه وتعبدوه حسب
ضمايركم .

فإذا ضل أحد اليوم في إيمانه وجاهر بما جاهرتم أنتم به في الأمس
وطلب الحق المقدس : الحرية . فلماذا لا تحترمون مجاهرته كما طلبتم في
الأمس أن يحترم عبدة الأوثان مجاهرتم وحريرتكم ؟؟

احترموا هذا الحق المقدس حتى لا تلتطخوا سمعة معترفكم ولا
تدنسوا رماد شهدائكم . ان سيف الاضطهاد ذو حدين يجرح يميناً وشمالاً .
فإذا كنتم لا تذكرون تعاليم المسيح تذكروا الدياميس .

- ٢٩ -

لا تقفوا في المحاكم

انموا في نفوسكم العدل والمحبة فهما ينجيانكم ويتردان من بينكم
الشقاق والفتن . فالذي يولد الشقاق والفتن والخصومة ويهدم العيال هو
الطمع القدر والشهوة النهمه للاكتساب والتملك .

ماذا تأخذون معكم من كل ما تجمعونه . ان القليل يكفي الإنسان
الذي يعيش قليلاً من الزمان .

إن للشقاق الذي لا نهاية له وجه الأرض سبباً آخر هو الشرائع الفاسدة .
وفي الدنيا شرائع عديدة فاسدة .

إذا وقع بينكم نزاع وخصام فلا تقفوا في المحاكم التي تظلم الأرض وتفسدها . أليس بينكم شيوخ يعرفون العدل والمحبة . اذهبوا إلى واحد من هؤلاء الشيوخ وقولوا له : لم تنفق يا أبانا فاقض بيننا . فيقضي بينكم بعد سماع دعواكم ويبارككم . فإن أذعنتم للحكم حلت بركته عليكم وإلا فبركة ذلك الشيخ تعود عليه لأنه قضى بالعدل .

إن المتحدين يقوون على أجل الأعمال . إن النهار هو حيث تكونون متحدين . فذاك يوم النجاة والخلص .

لما خرج شعب إسرائيل من أرض مصر فاراً من وجه مضطهديه لم ينسَ أحد منهم أخاه بل خرجوا كلهم أجمع فلم يستطع أن يمنعهم أحد . أنتم أيضاً في أرض مصر ساقطون تحت عصا فرعون وسوط ظلامه . فاصرخوا إلى الله ربكم ثم انهضوا وانخرجوا جميعاً .

- ٣٥ -

الشرية : المجد

لما بردت المحبة وأخذ الظلم ينمو على الأرض قال الله لأحد عبده : اذهب إلى ذلك الشعب ونخبّره بما ستره . وما ستره سيكون دون ريب ما لم يتركوا سبلهم الرديئة ويتوبوا راجعين إليّ .

فأطاع الربّ عبده ولبس المسح وذرى الرماد على رأسه وذهب إلى الجماعة وقال لهم : أتغيظون سيدكم ليفنيكم . دعوا سبلكم المعوجة وتوبوا راجعين إليه . فأثر كلامه في فريق واستهزأ به فريق آخر وكذّبه قائلاً : من هو هذا وما جاء يقول لنا . من كلفه ليوبخنا . يا له من أحقق .

وأدرك النبي الغيب بروح الله وانكشف الزمان لعينيه ومرت الدهور أمامه فشق فجأة ثوبه وصاح :

هكذا ستمزق ذرية آدم . ان الأئمة قد قاسوا الأرض بالحبل وأحصوا
البشر كما يحصون البهائم رأساً رأساً . لقد قالوا فلنقتسم هذا ونضرب
منه نفوداً . وتمت القسمة وظفر كل منهم بنصيبه فأصبحت الأرض ميراثاً
للظالمين فتشاوروا فيما بينهم متسائلين كم يساوي ما تملكه ؟؟ فأجابوا
جميعاً : ثلاثين فلساً .

وأخذوا يتجرون بالثلاثين فلساً وأوجدوا الشراء والبيع والمقايسة .
الناس للأرض والأرض للناس والذهب للرواتب . وطمع كل واحد
في نصيب الآخر فتدابجوا ليشلحوا بعضهم بعضاً وبالدم الذي أراقوه
كتبوا على صفحة : الشريعة . وعلى صفحة ثانية : المجد .

كفى كفى يا رب .

هاك اثنين منهم يرميان صنارتها على الشعب . قد انتزع كل واحد
منهما قطعة من ثياب الشعب البالية . لقد اعملوا فيه السيف مراراً . ألا
تسمعون صراخاً يفتت الأكباد : هو أنين العرائس ونحيب الأمهات .

لقد انسلّ خيالان في الظل يجوبان البراري والمدن . أحدهما مهزول
كاهيكل العظمي يقرض بقية حيوان قدر . والآخر تحت إبطه دملة سوداء
والثعالب تتبعه عاوية .

أ يكون غضبك وسخطك أبدياً يا رب . أتظل ذراعك ممتدة للضرب .
اعف عن الآباء رحمة بالبنين . ترأف يا رب على هذه المخلوقات البائسة
الناتئة في مهامه الجهل .

لقد اتسعت الدنيا وبعد قليل يولد فيها السلام فيجد كل إنسان مكاناً له .
الويل ! الويل ! لقد فاض الدم وغطى الأرض فصارت منطقة حمراء .
من هو هذا الشيخ الناطق بالعدل ماسكاً بإحدى يديه كأساً مسممة . وفي

الأخرى يداعب بغياً تدعوه بيا أبي . انه يقول ذرية آدم لي . فمن هو
الأقوى لأورثه إياها .

أجل . وهكذا كان . فبدون أن يتحرك عن عرشه أعطى كلاً
غنيمته فالتهموها جميعاً فكلبوا وانقضوا على بعضهم فكان اللحم يرتجف
والعظام تقضقض تحت أضراسهم وأسنانهم . وانتفحت سوق اقتادوا إليها
الأمم وفي عنقها الحبال . فجسوها ووزنوها واركضوها ومشؤها وساموها .
لا بلبله ولا ضوضاء هناك كالماضي بل سوق تجارة منظمة .

ما أسعد طيور السماء وبهائم البقاع . ما من بأسرها فهي تروح وتجيء
كما تحب .

ما هذه الرحي التي تدور بلا انقطاع وماذا تطحن ؟ أي بني آدم !
إن هذه الرحي هي شرائع من يحكمونكم وما يطحن هو أنتم .

وكانت تستولي رعدة خفية على السامعين كلما رمى هذا النبي الأشعة
المحزنة على المستقبل . واختفى صوته فجأة كأن فكراً عميقاً قد تشرّبه .

وكان الشعب يسمع ساكناً بصدر منقبض محتجج كأنه يحتضر . فصاح
النبي إذ ذاك : لا ترك يا رب شعبك أبداً في شقائه ولا تسلمه .
إلى الأبد إلى ظلامه ومضطهديه .

وأخذ غصنين نزع منهما الأوراق وصلبهما وربطهما ورفعهما فوق
الجموع قائلاً : هذه علامة السلام وبهذه العلامة تغلبون .

وأتى الليل واختفى النبي كطيف عبر وتفرقت الجموع في كل جهة
في الظلام .

كلمة الله

عندما يسقط المطر على الأرض بعد قيظ طويل تتشرب الأرض بلهفة وهو ينعشها فتخصب . والأمم العطشى إلى البر تتشرب كلمة الله فتنبت في أحشاء الشعوب العدل مع المحبة والسلام والحرية .

ويعير إذ ذاك كما كان في ذلك الزمان حينما كان الناس أخوة . فلا يسمعون فيها بعد صوت سيد ولا صوت عبد ولا ارتعاش فقير ولا تنهد مظلوم بل ترانيم البهجة وتهليل البركة .

حينئذ يقول الآباء لأبنائهم : إن أيامنا الأولى كانت مضطربة مملوءة بالدموع والغم أما الآن فالشمس تغرب وتغيب على فرحنا فليتمجد الله الذي أرانا هذه الإحسانات قبل موتنا .

ستقول الأمهات لأبنائهن : انظروا جبيننا الهادئ الآن . ألا ترون عليه خطوط الحزن والألم والاضطراب ؟ إن جباهكم كالربيع أو كوجه بحيرة لا يجعده نسيم . فليتمجد الله الذي أرانا هذه الإحسانات قبل موتنا .

وسيقول الشبان للعداري : أنتن جميلات كأزهار الحقل ونقيات كالندى الذي ينعشها وكانور الذي يلونها . فما أشهى مرأى آبائنا والمكث قرب أمهاتنا . أما العذارى فسيقلن : ان الأزهار تذبل وتفتى وسيأتي يوم لا ينعشها الندى ولا يلونها النور . ليس على الأرض إلا الفضيلة لا تذبل ولا تفتى . ان آباءنا كالسنبله المملوءة حباً في الخريف وأمهاتنا كالكرمة المثقلة بالثمار فما أحلى مرأى آبائنا وقرب أمهاتنا .

فليتمجد الله الذي أرانا هذه الحسنات قبل موتنا .

مجتمع النور

ورأيت شجرة الزان صاعدة إلى علو لا عهد لي به . ومن قمته كانت تتلألأ أغصان عظيمة تغطي الأرض العارية . وخرجت سديانة من عند قدم الجبار « يريد شجرة الزان » وانحنت وانعكفت بعد أن ارتفعت بضعة أقدام . ثم امتدت في الأفق ثم ارتفعت أيضاً والتفت . واخيراً رأوا رأسها الضامر يستطيل وقد تجردت من ورقها تحت أغصان شجرة الزان القوية ، وأخذت تنتش عن قليل من الهواء والنور .

ففكرت في نفسي قائلاً : انظروا كيف ينمو الصغير في ظل الكبير .
من يتجمع حول أقوياء العالم ؟ من يقرب منهم ؟ ؟

هل الفقير ؟ كلا . فإنهم يطردونه من حضرتهم ومن قصورهم .
لا يدعونه يلج بساتينهم المفتوحة للجميع ما عداه لأن جسمه الذي أنهكه العمل متشح بأثواب الفقر .

فمن يجتمع إذاً حول أقوياء العالم ؟ ؟

يلتف حولهم الأغنياء والمملقون الذين يريدون أن يصبحوا نظيرهم .
والنساء الساقطات المتهتكون ورؤساء الأديان المنهمكون في شهواتهم
السحرية والمهارجون والمجانون الذي يبررون بمجونهم وسائط الأقوياء .
والأنبياء الكذبة الذي يخدعون وجدانهم .

ومن يلتف حولهم أيضاً ؟

رجال القوة والدهاء وعمال الاضطهاد والظلام القساة وكل الذين
يقولون لهم : سلمونا الشعب فنسيل لكم ذهبه في صناديقكم وسمنه في
عروقكم .

حيثما تكن الجثة تجتمع النور .

إن صغار الطيور تضع عشها في العشب . أما الطيور الجارحة فتبنيها
في معازل الصخور .

- ٣٣ -

الحلم الرهيب

بينما أوراق الحريف تتناثر كان شيخ مثقل بحزمة من الأغصان المقطوعة
راجعاً إلى كوخه القائم على منحدر الوادي . وكانت الشمس تتوارى وراء
الأفق ساخرة بأقزام غيوم المغرب .

وصل الشيخ إلى كوخه فرمى حزمة الأغصان من ظهره وارتمى على
مقعد خشبي هناك سوده دخان الموقد . وحن رأسه كأن هموم الحياة
وأحلامها قد أثقلته .

ثم تنهد وقال : ليس لي إلا ولد انتزعوه مني وبقرة أخذوها ضريبة
عن حقلني . ثم ردد هذه الكلمة :

ولدي ولدي ! ! وتغرغرت عيناه بالدمع فسمع صوتاً يقول له : أبي
فلتحل بركة الله عليك وعلى من لك .

فجاوب الشيخ . ومن للفقير؟ أنا وحدي وليس من يفكر بي .

والتفت فإذا بسائح في الباب متكئ على عصاه فأهل به وقال :
ادخل يا بني فما يملك الفقير فهو لأخيه الفقير .

وأوقد أغصاناً في الموقد وشرع يطبخ لضيفه ولكن من يستطيع أن
ينسيه ظلامته فقد كانت دائماً في قلبه وعلى لسانه . وأدرك السائح ما يؤلم

نفس مضيفه فقال : ان الله ليبتليك يا ابي وفي الدنيا بلايا لا تحصى أعظم من بلوتك . ليس المظلوم يتألم وحده بل الظالم أشد ألماً منه .

فهز الشيخ رأسه ولم يجب ، فقال له السائح : إن الذي لا تصدقه الآن ستصدقته بعد حين .

واستولى على الشيخ رقاد ثقيل مملوء بالمخاوف وخيل إليه أنه في قصر فسيح قرب فراش على جانبه تاج . رأى النائم صاحب التاج جموعاً حوله يطلبون خبزاً وسمع هدير الأمواج تتكسر على جدران قصره فأظهر جهود رجل يحاول الهرب ولا يستطيع فكانت ضيقة عظيمة جداً .

وبينما كان الشيخ يتأمله خائفاً انتقل فجأة إلى قصر آخر . فرأى الراقد فيه أشبه بجثة منه برجل . رأى ذلك النائم رؤوساً مقطعة أمامه ففتح فاه فقالت الرؤوس .

لقد كنا مخلصين لك فكان هذا جزاءنا . نم أنت أما نحن فلن ننام .
إننا ساهرون حتى ساعة الانتقام وهي قريبة .

فصاح النائم برعدة : هل أستطيع أن أترك تاجي لولدي الصغير ؟
فظهر له رجل آخر يشبهه ملامح فامسك الولد على الحائط وذبحه .

فكاد يغمى على الشيخ من الخوف فانتقل إلى مكانين مختلفين يؤلفان مكاناً واحداً في نظره . فرأى رجلين من عمر واحد كأنهما توأمان يرقدان كمجرم تنتظره المنكلة فظهرت لهما خيالات عليهما أكفان ملطخة بالدم .

وكل شبح من هذه الأشباح يلمسهما فتقلص أعضاؤهما وتشنج كأنها تريد أن تلمص من ملامسة الموت . ثم تناظرا بابتسامة مرعبة واشتعلت أعينهما وارتجفت أيديهما على قبضة خنجر .

ورأى الشيخ بعد ذلك رجلاً هزياً ممتقع اللون وبلت الشكوك
وازدحمت قرب مضجعه تقطر سمومها على سحنته وهو يتحتم غارزاً
بأظافره جمجمته المبللة بالعرق البارد . فاقرب منه شكل إنسان أصفر
كالكفن وأراه بإصبعه دون أن يكلمه أثراً أدكن حول عنقه . فاصطكت
ركبتا النائم في فراشه وانفتح فمه من الخوف فجحظت عيناه رعباً .

وانتقل الشيخ إلى قصر أضخم وأفخم فرأى النائم فيه يكاد لا يتنفس
إلا بعناء عظيم . وكان شبح أسود يتربع على صدره ناظراً إليه ضاحكاً منه
هامساً في أذنه كلمات تتحول رؤى يرتعد منها ذلك النائم .

كان ذلك النائم كأنه محاط بجحافل لا تحصى وكلها تصرخ به صراخاً
هائلاً :

لقد وعدتنا بالحرية وأعطينا العبودية .

وعدت أن تحكمنا بالشرية فلم تكن الشريعة غير أهوائك . وعدت
أن تعطي زوجاتنا وأبنائنا الخبز فضاعفت شقاءنا لتضخم كنوزك .
وعدتنا بالمجد فاحتقرت الشعوب وأحفادها .

وصاحوا به جميعاً فلتسقط . فخيّل الله أنه يسقط ويجره الثائرون عليه
فتعلق بأعدال الذهب فانشقت واندفق منها فانتثر على الأرض . وهام
ذلك النائم على وجه البسيطة عطشان يطلب الماء رحمة فيعطى قدحاً وحلاً
وحماة . يهرب الناس منه ويلعنونه لأنه كان مدموغاً على جيبه بعلامة الخائن
فحول الشيخ عينيه عنه مشمئزاً .

وانتقل إلى قصر آخر فرأى رجلاً طرد الله من قلبه وحلت محله دودة
لا تكلم ولا تني وعندما يشتد قرضها يتمتم تجاديف صماء فتتغطي شفاهه
بزبدة حمراء .

وظهر كأنه في سهل فسيح وحيداً مع الدودة التي لا تتركه أبداً .
وكان ذلك السهل مقبرة أمة قد ذبحت .

وارتجت الأرض فتفتحت القبور ونهض الموتى فتقدموا إليه جمهوراً
واحداً وهو لا يستطيع أن يتحرك أو يصرخ .

وأولئك الأموات رجال ونساء وأولاد ينظرون إليه صامتين . ثم
تحركوا جميعاً كأنهم جسم واحد وأخذوا يصخور قبورهم ورجسوه بها .

فامتلات نفس الشيخ رعباً غير أنه تجلد ومشى فعبر قاعات خاوية
حتى رأى رجلاً أبلته السنون في غرفة صغيرة يضيئها قنديل مصفر . رأى
حول فراش الرجل أشباحاً سبعة تخيفه فيرتعد ويرتجف بخفيف يشبه حفيف
أوراق الخريف المتناثرة .

تلك كانت آخر الرؤى واستفاق الشيخ من رقدته حامداً العناية على
ما أصابه من مشاق الحياة .

فقال له السائح : ترَجَّ وصلِّ فبالصلاة تنال كل شيء . ان ابنك لم
يهلك . ستراه عينك قبل أن تغمضاً . انتظر السلام . انتظر يوم الله .

وكان الشيخ يسمع هادئاً .

— ٣٤ —

مدينة الله

إن الشرور التي تخزن الأرض ليست من الله . فالله محبة هو . كل هذه
الشرور من الذين هم جنود الشيطان وهو أب لهم وسيد .

أجل أن أبناء الشيطان عديدون في هذا العالم والله يدون أسماءهم في كتاب محتوم يفضض أمام الجميع في نهاية الأزمنة .

يوجد أناس لا يحبون إلا نفوسهم وهؤلاء رجال البغض . لأن من لا يحب إلا ذاته يبغض الآخرين .

يوجد رجال كبرياء يريدون أن يتسلطوا ويملكوا . ورجال طمع يطلبون دائماً الذهب والمجد والفرح ولا يمتلكون أبداً .

ويوجد خطفة ناهبون يرصدون الضعفاء ليعروهم بالقوة والحداع ويطوفون في الليل حول مضجع الأرملة ومسكن اليتيم .

ويوجد أناس قتلة ذوو أفكار هائجة يقولون : أنتم أخوتنا ثم يقتلون أولئك الذين يدعونهم أخوتهم . نعم يتهمونهم ويقتلونهم ويكتبون الشرائع بدمهم .

ويوجد رجال جبن يرتعدون أمام الشرير ويلثمون يده آملين أن يتملصوا من اضطهاده . وإذا اضطهد رجل بريء في الساحات العمومية يسرعون إلى بيوتهم فيلجونها ويقفلون أبوابها وراءهم .

كل هؤلاء يقتلون السلام ويخفقون الحرية على الأرض .
إنكم لا تجدون أبداً الحرية والأمان والسلام لأنكم تقتلون بدون كلل .
إن المدينة التي بنوها هي مدينة الشيطان وأنتم تجدون بناء مدينة الشيطان .
في مدينة الله كل يحب أخاه كنفسه . ولذلك لا يهمل أحد ولا يتألم لأنه يوجد دواء الآلام .

إن جميع الناس متساوون في مدينة الله ولا أحد يتسلط لأن العدالة تملك هناك مع المحبة .

في مدينة الله كل واحد يملك بدون خوف ما هو له ولا يطلب شيئاً
فوق ذلك لأن ما هو لواحد هو للكل وكل ذلك يملكه الله الذي يحتوي
كل شيء .

في مدينة الله لا يضحى أحد بالآخرين بل كل واحد يتمنى أن يضحى
بنفسه لأجل الآخرين .

إذا ولج شرير مدينة الله يتعدون عنه أو يتحدون عليه ليردعوه .
لأن الشرير عدو كل واحد وعدو كل واحد هو عدو الجميع .

عندما تجددون بناء مدينة الله تزهر الأرض ويزهر الشعب لأنكم
غلبتم أبناء الشيطان الذين يضطهدون الشعوب ويدمرون الأرض . لأنكم
غلبتم المتكبرين والهداعين والقتلة والجبناء .

— ٣٥ —

الطاعة العمياء

إذا ترك ظلام الشعوب بلا مساعدين ولا أنصار فماذا يستطيعون أن
يفعلوا بالشعوب ؟

فإذا أرادوا أن يسترقتوا الشعب فليس لهم عضد غير أولئك الذين
فضلوا الاسترقاق . وماذا يستطيع أن يفعل هذا العدد القليل بالشعوب جمعاء .

إن حكمة الله نظمت الأشياء هكذا وجعلت الناس يقاومون ظلامهم .
فالجور لن يكون إذا فهم الناس أسرار حكمة الله .

إن سلاطين الأرض عارضوا حكمة الله حتى لم يعد يفهم الناس إلا
حكمة ملوك العالم والشيطان .

إن الشيطان هو ملك مضطهدي الأمم والشعوب وهو يلقنهم ليثبت
جوره بدهاء جهنمي .

وهو يقول لهم خذوا من كل عائلة أصلب أفرادها عوداً وسلحوهم
وعلموهم الرماية فيحاربوا معكم آباءهم وأخوانهم لأنني أقنعهم أن في
ذلك مجداً لهم .

إنني أحب إليهم الشرف والأمانة وشريعة يدعونها الطاعة العمياء
فيعبون هذه الأصنام ويخضعون عن عمى لتلك الشريعة لأنني أستميل
عقولهم فلا تخافوا .

وصنع ظلام الأمم ما أمرهم به الشيطان وتمم الشيطان ما وعد به
ظلمة الأمم .

ورأوا أبناء الأمة رافعين أيديهم على الأمة يقيدون أبناءهم ويذبحون
أخوانهم وينسون حتى البطون التي حملتهم .

وإذا استحلقوهم باسم كل ما هو مقدس ليفكروا بالظلم والفواحش
التي يؤمرون بها يجيبون أننا لا نفكر أبداً بل نطيع وإذا قالوا لهم : أليس
فيكم حبة لآبائكم وأخوتكم وأخواتكم أجابوا : لا نحب أبداً بل نطيع .

تجلدوا ولا تخافوا . ان انخداع النفوس المستقيمة لا يطول بل يمر
كحلم رهيب وفي اليقظة يباركون الله الذي نجاهم من الزوبعة .

إن ذلك لا يدوم إلا أياماً والذين يحاربون مع الظالمين سيقاتلون دفاعاً
عن المظلومين . والذين قاتلوا حتى كبلوا آباءهم وأمهاتهم وأخوانهم
وأخواتهم سيحاربون في سبيل حريتهم .

في ذلك الزمان العتيد يهرب الشيطان من كهوفه مع سلاطين الأمم .

الجندي الصغير

قف أيها الجندي الصغير وقل لي إلى أين أنت ذاهب ؟؟
أنا ذاهب لأقاتل في سبيل الإله الواحد . لأدافع عن وطني . لأحارب
مع العدالة التي اعتزل حربها الناس . لأدود عن قضية الأمم وحقوق
الإنسانية المقدسة .

تبارك سلاحك أيها الجندي وإلى أين ؟؟

لأنقذ أخوتي المظلومين وأحطم قيودهم وقيود العالم أجمع . لأقاتل
البغاة الذين يدوسون الناس بأقدامهم الحديدية والأسياذ الذين يرهقون
عبيدهم البؤساء ولأثأر للحرية من العصابات المستبدة الجائرة .

تبارك سلاحك أيها الجندي وإلى أين ؟؟

إلى الحرب المقدسة حرب المبادئ الشريفة حتى لا نعود نرى اخوتنا
البشر فريسة لبعض اخوانهم الضواري . إلى الحرب التي ترفع الرؤوس
المنحنية وتشدد الركب المتخلعة . إلى الحرب التي لا يعود يلعن بعدها الأب
يوماً قيل له فيه قد رزقت ولداً ولا الأم ساعة ضمته فيها إلى صدرها .

تبارك سلاحك أيها الجندي وإلى أين ؟؟

إلى الحرب التي لا يحزن بعدها أخ حين يرى أخته تذبل كزهرة أبت
الأرض أن تغذيها ولا تودع أخت أخاها بالدموع لأنه يذهب من حيث
لا يعود .

إلى الحرب التي يأكل بعدها كل إنسان ثمرة عمله براحة وسلام
وتنشف بها دموع الأطفال الصغار الذين يطلبون خبزهم بالصراخ والعويل

فيجيّبونهم لا خيز لنا وقد أخذوا منا كل مالنا .

تبارك سلاحك أيها الجندي وإلى أين ؟ ؟

إلى الحرب التي تعطي الفقراء نصيبهم من ميراث الأرض العام وتبدد
الفاقة من الأكواخ فتعيش العائلة بسعة ورخاء وطمأنينة وفرح .

تبارك سلاحك أيها الجندي وإلى أين ؟ ؟

إلى الحرب التي تعيد إلى من طرحهم البغاة في ظلمات السجون هواء
تلمسه صدورهم ونوراً تتطلبه أعينهم .

إلى الحرب التي تحرر الانسان والفكر واللسان والضمير من عبودية
المضطهدين الجائرين .

تبارك سلاحك أيها الجندي إلى أين ؟ ؟

إلى حرب شريفة تهدم الحواجز التي تفصل الشعوب عن بعضها وتمنعها
من أن تتعاق كآبناء أب واحد أوجدتهم ليعيشوا متحدين .

تبارك سلاحك أيها الجندي وإلى أين ؟ ؟

لأتطوع في جيش الشرائع الأزلية الهابطة من السماء على أجنحة الإلهام .
لأقاتل في صفوف جنود العدالة التي تصون الحقوق وتحميها . لأجاهد
تحت علم المحبة التي تلتطف وتخفف الشرور التي لا بد منها ولا مناص .

تبارك سلاحك أيها الجندي وإلى أين ؟ ؟

إلى أقدس الحروب التي تصير للإنسانية جمعاء إلهاً واحداً في السماء
ووطناً واحداً في الأرض .

تبارك سلاحك سبع مرات أيها الجندي الصغير فسر بسلام .

شريعة الدم والاسترقاق

لماذا تتعبون عبثاً في بؤسكم. إن أمنيتكم صالحة ولكنكم لا تعرفون كيف يجب أن تم . احفظوا هذه القاعدة : لا يأخذ الحياة إلا الذي وهب الحياة . إذا تقلبتم على مضجع الضيقة فأني خمود في أوجاعكم تحرزون . لقد جندلتم بعض الخونة فنشأ من هو أردأ منهم . لقد نسختم شرائع الاسترقاق فكانت لكم شرائع الدم ثم شرائع الاسترقاق.

احذروا الذين يقفون بينكم وبين الله حتى يخفيه ظلمهم عن عيونكم فهؤلاء الناس سيئو القصد .

ماذا يفيدكم رجل قانونه فكره وشريعته إرادته . وإن كان حسن الطوبى ولا يريد إلا الخير وجعل إرادته شريعة وفكره قانوناً . أليس كل البغاة يفعلون هكذا .

لا يجب أن نفتحم كل شيء لنقلب كل شيء ونبدل باغياً باغٍ آخر . إن الحرية لا تثبت بإبدال هذا بذلك بل بتزع سلطة كليهما .

والذين يقولون لكم : إن الذين كانوا قبلنا لا يعرفون ما هي العدالة فالعدالة لا تأتي من الله بل من البشر . ثقوا بنا ونحن نقيم بينكم العدالة التي تتوقون إليها .

إنهم يخذعونكم . وإن وعدوكم بالحرية بصدق وإخلاص فهم يخذعون نفوسهم أيضاً . إنهم يطلبون منكم أن تعرفوهم أسياداً فلا تكون حریتكم الحديدية إلا طاعة أسيادكم الجدد .

أجيبوهم ان سيدكم هو الله ولا تريدون سواه سيداً وهو يحرركم .

الحرية والعدل

إنكم بحاجة إلى صبر لا يكل وشجاعة لا تتعب لأنكم لا تغلبون يوماً ما . إن الحرية هي الخبز الذي يجب أن تحصله الشعوب بعرق الجبين لأن خبز الصدقة لا يشبع ولا يفذي .

الكثيرون يبدأون بحمية ثم يملّون قبل أن يصلوا إلى زمن الحصاد . إنهم يشبهون أناساً قليلي العزم ضعفاء لا يطبقون الشغل حتى يتزعوا من حقولهم الأعشاب الرديئة كلما نبتت . يزرعون ولا يحصدون لأنهم تركوا البذور الصالحة تَحْتَق .

الحق أقول لكم ان المجاعة واقعة لا محالة في بلاد كذا ناسها .

إنهم يشبهون أيضاً أناساً مجانين بنوا بيوتهم حتى السطوح ليسكنوها . فملّوا العمل وخاروا فلم يسقفوها فهبت الرياح فهدمتها ودفتهم تحت الردم .

إذا خابت آمالكم ليس سبع مرات فقط بل سبعين مرة في سبع مرات فلا تقطنوا ولا تياسوا . ان من كان مؤمناً في ذاته يظفر بالعدل إذا استمر إلى النهاية . فإذا كانت الحسنات لا تأتي إلا متأخرة ولا تتمتعون بها إلا قليلاً من الزمن فأولادكم يتمتعون بها وأولاد أولادكم .

ليس لأولادكم إلا ما تتركونه لهم . فانظروا إذن إذا كنتم تتركون لهم الحديد والعصي والجوع إرثاً . إن الذي يسأل ما قيمة العدل ينجس العدل في قلبه . والذي يقول ما تسوى الحرية يحدد الحرية في قلبه .

يوجد شعوب لا تعرف حتى الآن ما العدل والحرية . الحق أقول لكم إن لا بؤس يساوي بؤس تلك الشعوب . وأسعد الأمم تلك التي تحارب

ليل نهار وتكافح دائماً في معركة الحقوق لا تحصي جراحها ولا تعد أيامها
وليلها التي قضتها بلا راحة ولا رقاد بل تقول : إن الحرية والعدل لحرمان
بأكثر من هذه الأعمال .

- ٣٩ -

بالحرية تحيا الأمم

يحمل الفلاح أثقال النهار ويتعرض للقمحات الشمس والرياح والمطر
ليهيء بعمله حصاداً يملأ أهراءه في الخريف .
والعدل حصاد الأمة .

ينهض الصانع قبل الفجر فيضيء مصباحه ويتعب بدون كلل . ليربح
قليلاً من الخبز .
والعدالة خبز الشعوب .

لا يرفض التاجر نعباً ولا يشكو عذاباً فينهك جسده وينسى نومه
ليجمع الغنى .
والحرية غنى الشعوب .

يمخر النوتي البحار ويستسلم للأمواج والزوابع ويقتحم المهالك . يؤلمه
البرد والحر حتى يضمن بضع سنين راحة في شيخوخته .
إن الحرية راحة الشعوب .

يعيش الجندي بالشظف ويسهر ويقاتل ويهرق دمه ليحرز ما يدعونه مجداً
والحرية مجد الشعوب .

إذا كانت أمة تحترم العدل والحرية قليلاً فلرفع حارتها وصانعها
وتاجرها ونوتيتها وجنديها سوراً عظيماً يصونهما حتى لا يفسد ما حولهما
من الأرض فتحيا بهما الأمم .

- ٤٠ -

من الأسعد

أتظنون أن البقر التي تعلق في المراح لتكذب والتي تسمن لتذبح ألا
تحسد الثور الذي يطلب غذاءه في الغابات حراً .

أتظنون أن الحصان الذي يلجمونه ويسرجونه وله العلف الوافر في
معلفه يفرح أكثر من حصان خال من كل الوثاقت يسرح ويمرح في الحقل .

أتظنون أن الديك المخصي الذي ينثرون له الحب في القن هو أسعد
من اليمام الذي لا يعلم أنه يجد في الصباح مرعاه اليومي .

أتظنون أن الذي يتنزه في هذه الحدائق التي يسمونها ممالك هو ذو
حياة أهنأ من ذلك الشارد من غاب إلى غاب ومن صخر إلى صخر .
يسير وقلبه مملوء أملاً بأنه يجد وطناً .

أتظنون أن العبد الغبي الجالس على مائدة سيده يتلذذ بالأطعمة الشهية
ذو عيش ألد من جندي الحرية الذي يأكل الخبز الأسود .

أتظنون أن الذي ينام والحبل في عنقه على المفروش الذي يطرحه له
سيده هو أهنأ نوماً من ذاك الذي يقاتل في نهاره لكيلا يخضع لسيد وينام
بضع ساعات من الليل على الأرض في زاوية من الحقل .

أتظنون أن ذلك الجبان الذي يجر وراءه حيث سار سلسلة عبوديته
هو أقل أثقالاً من الشجاع المكبّل بسلاسل المسجونين .

أتظنون أن الرجل الخائف الذي يتنفس في فراشه مخنوقاً بالهواء المتن
الذي يحيط بالبغي يموت موتاً أشهى من ميتة الرجل الشديد على المفصلة
معيداً إلى ربه نفسه حرة كما أخذها منه .

إن العمل في كل مكان والعذاب في كل محل . إنما يوجد عمل مجذب
وعمل مخصب . والأم دنيئة سافلة والآء مجيدة .

- ٤١ -

المنفي

لقد ذهب يضرب في مجاهل الأرض فليرشد الله المنفي المسكين .

مررت بين الشعوب فتفرسوا بي وتفرست بهم ولم تتعارف :

إن المنفي وحيد حيث كان .

ورأيت عمود دخان يرتفع من أحشاء الوادي والشمس قد أذنت
بالمغيب فقلت في نفسي : ما أسعد الموجودين في تلك الأكواخ ملتفين
حول المواقد مع أهلهم :

إن المنفي وحيد حيث كان .

إلى أين تذهب تلك الغيوم التي تطردها العاصفة . إنها تطردني مثلها
ولا أدري إلى أين :

إن المنفي وحيد حيث كان .

جميلة هذه الأشجار وأزهارها أجمل منها ولكنها ليست بأزهار وطني
ولا بشجره . إنها لا توحى إلي شيئاً :

إن المنفي وحيد حيث كان .

وهذه السواقي تسيل في السهل ولكن خريرها ليس كالحرير الذي سمعته وهي لا تعيد إلى مخيلتي أقل ذكرى :

إن المنفي وحيد حيث كان .

عذبة هي هذه الأغاني ولكن ما توقظه من الأفراح والأحزان ليس بأفراحي وأحزاني :

إن المنفي وحيد حيث كان .

سألوني لماذا تبكي ولما أخبرتهم لم يبك أحد منهم لأنهم لم يفهموني .

إن المنفي وحيد حيث كان .

رأيت الشيوخ محاطين بأولادهم كما تحاط الزيتون بفروعها لم يدعني شيخ منهم بيا ولدي ولم ينادني أحد أولئك الصبيان بيا أخي .

إن المنفي وحيد حيث كان .

رأيت بنات باسمات ابتسامة ألقى من نسيم الصباح إلى الذين أحبوهم واختاروهن زوجات وأنا لم يتبسم لي أحد :

إن المنفي وحيد حيث كان .

رأيت فتياناً يتصافحون بلهفة وشدة كأنهم يريدون أن يجعلوا حياتهم واحدة . وأنا لم يشد على يدي أحد :

إن المنفي وحيد حيث كان .

أيها المنفي المسكين ! لا تنح فكلنا مطرودون منفيون مثلك . كلنا مضمحلون عن العيان : آباء وأخوة وزوجات وأصدقاء . ليس الوطن هنا

فعبثاً يفتش عنه الإنسان وما فأخذه لنا وطناً هو مأوى ليلة واحدة .
لقد ذهب يضرب في مجاهل الأرض : فليرشده الله المنفي المسكن .

- ٤٢ -

النسر المثلث

ورأيت الوطن :

اختنطفت بالروح فوق عوالم الأشباح فرأيت الزمان ينقلها بسرعة فائقة
الوصف في الخواء كما تنقل نفحة الجنوب الأبحرة الخفيفة التي تسقط في
المكان القصي . صعدت وصعدت أيضاً فظهرت لي الحقائق التي لا ترى
بعين الجسد وسمعت أصواتاً لا صدى لها في دنيا الهيولى .

والذي سمعته ورأيته كان حليماً جليلاً جداً فقد أدركته نفسي بقوة هائلة
وظهر لي أن كل ما ظننت أنني رأيته وسمعته لم يكن إلا حليماً مبهماً في
الليل . فما عساني أن أقول لأبناء الليل من أعالي اليوم الأزلي وهل يفهمون ؟
ألم أكن هبطت معهم في أحشاء الليل في عالم الزمان والأشباح .

رأيت بحراً جامداً متسعاً غير محدود وفي هذا البحر ثلاثة بحار : بحر
قوة وبحر نور وبحر حياة يلج الواحد بدون اختلاط بالآخر . وهي بحر
واحد بوحدة غير مقسمة مطلقة أبدية .

وفي أعماق هذا البحر الذي لا ساحل له يسبح الكائن ويطفو وتمدد
وتنبسط الخليقة التي ليست فيه إلا كجزيرة تمتد شطوطها وسط بحر لا
حد له . وهذه الخليقة تتفتح كزهرة تطرح جذورها في الماء وتمتد عروقها
والياقوت الطويلة وتاجها الملون على سطح المياه .

ورأيت الكوائن مقيدةً بالكوائن تتولد وتتكاثر في أنواعها التي لا
تحصى تروى وتتغذى بعصارة لا تنفد من القوة والنور والحياة .

والذي كان مخضياً عن ناظري حتى ذاك الحين انقشع وزال . لقد
فُضَّ ذلك الغلاف الهولي عن الجوهر .

وكمعتق من القيود الأرضية ذهبت من دنيا إلى دنيا كما يذهب الروح
في هذه الأرض من فكر إلى فكر فشعرت إذ ذاك وأدركت ما هو الوطن .
سكرت من النور وانتقلت نفسي مع الأمواج المترنمة .

وسقطت نقطة من دم على الطبيعة السقيمة المريضة فتغيرت ورأيت
جميع الخلائق التي تحتويها الطبيعة قد اختلجت بحماة جديدة ورفع الجميع
صوتهم قائلين :

قدوس قدوس قدوس ذلك الذي أفنى الشر وغلب الموت .

فأدركت إذ ذاك سرّاً إلهياً مثلثاً والسماوات ارتعشت بسكون .

القسم الثالث

صور ومقالات

صوت من العجين

صوت الروح

- اذهب حدثهم بما رآته عيناك .
- هيهات أن يصغوا إليّ يا سيد .
- إن الأخيار يسمعون كلمتك التي تؤثر في الأشرار أيضاً تأثيراً غير محسوس يظهر عندما تلمسهم نار غضبي الآكلة .
- أنت تعلم يا سيد اني قد بلغت من الكبر عتياً وقد خفت صوتي .
فدعني أصرف البقية الباقية من العمر مستريحاً . عما قليل يا رب يذهب ذكر عبدك مع الدوي .
- إن الشمس قد آذنت بالزوال وكاد النهار يتقضي فعجل . لا تطلب الراحة حيث لا تكون . ان الراحة تأتي في حينها . تذكر الذين ينامون في القبور وسيوفهم تحت رؤوسهم . ان السيف مخلة الجيابرة فتشجع .
- سأذهب يا سيد حيث تريد وأحارب في سبيل عدالتك ما بقي في عرق ينبض . فلتكن مشيتك .

- سر ولا تخف فبقوتي أظلك وانطق بلسانك . ان الأرض مغطاة
بضباب الجرائم وسأرسل العاصفة فتكنسها . ان الظلام يفرحون بأعمالهم
ويظنون أن قوتهم ثابتة إلى الأبد . لقد أمرت الديدان أن تنخر الجذور وغداً
تبيس الشجرة حتى أغصانها .

لقد قرب يومي وهو هناك قريب جداً . كلم الطغاة وأهرق تهديدياتي
في آذانهم . ستلحقهم قشعريرة الخوف الأزلي فتكون لهم أشد عذاب .
لقد قالوا في نفوسهم إني لم أكن فيعلمون أنني كائن .

قل للمضطهدين بصغوا إلى الأنين والنحيب . فليسمعوا صراخ ضحاياهم
في نومهم ويقظتهم ويروا تلك الضحايا حائمة حولهم مبعثرة كأشباح
صفراء . ستبعهم الرؤى المرعبة كيف ساروا ولن تبعد عنهم إلا ساعة
الفجر عندما يذهبون إلى أعيادهم النفاقية . إنهم يشعرون إذ ذاك بعلامة
الخيالات فرتجفون رعدة .

قل إلى المظلومين ان عيني ناظرة إليهم . وخبر المضطهدين ان صوت
آلامهم وعذاباتهم قد بلغني وسأحوله إلى صوت فرح وبهجة .

قل لهم أنهم سيغلبون الأشرار بالعدل وسيتصرون بالمحبة على عبي
الذات والمبغضين .

لئن استطاع الشر أن يفني الكون فلمعة صديق واحد تولده ثانية.

قل لجميع الحزاني البائسين وصانعي الخير الذين يرددون صباح مساء:
ليأت ملكوتك . انه سيأتي كما وعدت وكما حققت ذلك بذاتي . فيا ابتاء
الغد اقطعوا النخل ونظموا الأغاني لتمجدوا مجيئه . ففي ذلك الحين ييسم
الصغار في مهدهم لأنه يظهر لهم في أحلام الصبا . في ذلك الحين يرتجف
الشیطان برعبة خرساء . ومن الشرق حيث تدفقت الحياة تظهر علامة
مهدة . سيلوح إذ ذاك شيء سام ونحيف مثل ظل يدي .

أين عدالتك يا رب

لاحت الشمس وسال نارها على منحدرات الجبال فاخترق أحشاء
ظلال الغاب . وحبك من الهباء الذي يغطي خيوطه الدقيقة شبكية من التبر
متحركة لا تلمس فتشر بين الضواحي والحقول رائحة عطرية جديدة
- كأنفاس نوابع الأرض - تعطر الهواء الهادي .

لامست أصابع القلق عيني فنهضت باكراً مع الطيور استنشقت أنفاس
الفجر وانتظر الساعة التي أقابل بها مليكة النور . سمعت أصواتاً خفية
تتموج في الفضاء الواسع هامة ألقاظاً لا تكاد تلتقطها أذني كما تكاد
المخيلة لا تستولي على آثار أحلام الليل .

رأيت شيوخاً جعلت السنون صفحات وجوههم وشباناً امتصت سموم
الهموم نضارة شبابهم . رأيتهم منحنين تحت أعباء آلات الحراثة خارجين
من أكواخهم المبعثرة هنا وهناك على الأودية والأكم . تفرست بهم فإذا
هم يسيرون ببطء كأنهم يجرّون وراءهم قيوداً أجهل أثقالها ويقفون أحياناً
ينعمون النظر في جمال الطبيعة الفتان والكآبة على وجوههم .

سمعت الأشجار تحدثهم والمائية طاغية من جذوعها وأغصانها وأوراقها
قائلة لهم : انظروا هذه الأزهار الباسمة عن ثغرها فعمال قليل تتحول نماراً
ثم تنضج فتقطعونها بأيديكم وتتلذذون بها .

سمعوا وظلوا حزاني .

ناجتهم الكرمة هامة في آذانهم : اني أنضج لكم في أغصاني عصارة
مقوية تعشكم وتدفيء أعضاءكم عندما يقرسها البرد .

فهموا وظلوا مكتئبين .

حدثتهم الحقول : لقد أعددت الطعام لأغنامكم وبقركم وعجولكم
فقودوها إلى هنا لترعى وتسمن وتدر لكم لبناً طيباً .

هزوا رؤوسهم ولم يتعزوا .

نادتهم الأرض التي زرعوها وحرثوها : هينوا أمراءكم فإنني أعمل
ليل نهار لأملأها من خيراتي فلا تهتموا بأمركم ولا بأمر نسايتكم وبنيتكم
فأنا الكفيلة منذ البدء بإعداد طعامكم .

صدقوا ولم تفارقهم تلك الكآبة .

صرخت بهم الطبيعة بأسرها أنا أمكم فاقربوا مني فأضمكم إلى
صدري . إن ثديي نبع لم ينضب لبنه .

لقد سمعوا وظلت الكآبة على وجوههم ونخفت قلوبهم وتساقطت
دموعهم . فما هذا الأمر وماذا يوجد في قلب الإنسان ؟ اسمعوا فأجيبكم .
تسربت وجوههم بالكآبة لأنهم لا يذوقون الثمار الناضجة ولن يختسوا
الحمرة فتدفثهم . لا يبقى لهم شيء من جزائر أغنامهم ولبان بقرهم ولحوم
عجولهم . إن الظالمين يحصدون ما زرعوه .

ظلت الكآبة على وجوههم لأنهم تركوا في أكواختهم صغارهم جياً
وسيقابلونهم باكين معولين ويرون قلوبهم منسحقة تحت أقدام البؤس
والشقاء . ظلوا مكتئبين لأن فئة من الناس نحت قلوبهم من الشفقة والحنان
وقفوا حاجزاً بينهم وبين الطبيعة أمهم . فئة قاسية غاشمة لا تتأثر إذا رأت
الابن بعيداً عن ثدي أمه الذي لا ينضب لبنه وهو جائع متألم . فأين عدالتك
يا رب

لا ريب أن يوم العدالة آتٍ فتقدسه السماء وتفرح به الأرض .

العامل اليتيم

ارحم يا رب عبدك الفقير إليك .

مات أبي قبلما ولدت . نازله البؤس وصارعه طويلاً فسقط على فراش الآلام فأنحني فوقه الموت وهمس في أذنيه : لقد أتممت عمالك الشاق في هذه الدنيا فاعبر الآن إلى دنيا أفضل منها .

دفنته أمي بيديها وبقيت تنازل القدر . أتت ساعة المخاض فولدتني بالأوجاع باكية . بكيت لأنه ليس لها أقمطة تلف بها مولودها الحديد . جف حليبها وبردت زفراتها لقلة الغذاء فعجزت عن تدفئة طفلها . لقد كانت تغاني في سبيل سعادي وتفرح مني رأني باسماً .

نموتُ ونمت متاعبها وجهودها بنموي . كم كانت تسر إذ ترى صغيرها عائداً من المدرسة يعلق في كتفه كتبه ومعدات دراسته .

ودنا وقت العمل فتخيلت أنني أحسن إلى تلك التي أحسنت إليّ فتصورت أنني أحمل إليها باكورة أعمالي وقد قلت لها عند تقديمها : والدتي ! لقد وفيت قسطك لي فاستريح .

هيئات . لقد قضت قبل أن سمعت مني هذه الكلمة العذبة . لقد دعاها إليه ذلك الذي حفظها وعضدها . لقد قضت بين ذراعي وهي تباركني وتلقي عليّ آخر نظرة .

لقد حال التراب بيني وبينها فأصبحت أعزل في هذه الدنيا أحيا بتذكاراتي وأوهامي وأحلامي المبهمة وآمالي الكثيبة .

ومن أحشاء هذه الخيالات انبتق شعاع أمل يمزق ظلمات اليأس .
أوجدت العناية على طريقي فتاة يتيمة مثلي فسرنا جنياً إلى جنب . ان ندى
الربيع أقل نقاوة من قلبها . فبعد النظرة الأولى انخفضت أعيننا وتكلم
سكوتنا واتحدت نفسانا اتحاداً أبدياً منذ تلك الساعة .

لقد كانت أفراحنا تفوق أفراح السماء . لقد قلت لها : ليس من يتم
بي ولا بك فالدنيا في نظرنا كالقفر . فيا يمامة الغاب إنني ذاهب لافتش
لك عن الغذاء وسأبني لك عشاً فتسريحين بمأمن من البرد والعاصفة .

فأجابني : وأنا أنصرف إلى أعمال آخر مدة غيابك فقد سريعاً تجد
ثغراً باسماً وقلباً جديلاً .

لقد كنت مسرفاً فخففت حدة إسرافي قائلة : فلنقتصد ياديه بدء .
فلنفكر بالغد .

قلّ العمل فانقص أرباب العمل أجور العمال . واستمروا على ذلك
حتى قالوا لنا أخيراً : إما القبول وإما الموت .

لم نرضخ واعتصبتنا لأن أذرعنا ملك لنا فزجوننا في أعماق السجون
وقالوا : هؤلاء ثوار شذاذ متشردون .

فيا ويل العدل البشري من العدل الإلهي .

وبت في السجن شهوراً متوالية . وبعد بضعة أسابيع سمح لزوجتي
أن تزورني . فرأيتها ثلاث مرات من خلال قضبان نافذة السجن . رأيتها
في المرة الأخيرة ذات عينين مقعرتين تحترقان بنار غريبة وركبها تشني
تكاد لا تقف .

ثم لم أعد أراها .

لقد قضت لان الحمى المسبية عن أحزانها قضت عليها .

أماه ! زوجتاه ! أنتما اللتان أراكما في العلى . من الذي يدعوني .
لا تركاني لا تركاني . إنني أشعر بوثاقاتي تتحطم وأغلامي تتكسر . فبعد
قليل نجتمع .

ارحم يا رب عبدك المسكين .

— ٤ —

العقاب

في قاعة فسيحة مظلمة وحول منضدة مغطاة ببساط أخضر منقط يقع
سوداء جلس رجال وكانت تظهر على واحد منهم سيماء الرئاسة وأبنتها .
رجهه أصفر ترابي ينعكس عليه نور أدكن وعيناه تجعلان انحراف نظره
مشووماً وجسمه المائل إلى الوراء يريكه كالعقاب وهو ذاك .

لقد قال العقاب : ماذا نصنع . ليس الحكم عليهم بالأمر السهل . فلا
ذنب لهم يؤاخذون عليه . نعم انهم يحطون من كرامة أسيادنا الرؤساء
الأجلاء وقد أمرونا بدينونتهم . قالوا لنا : حاكموهم وأنتم وشأنكم في
إيجاد الدليل عليهم .

فأجابه واحد منهم : إذن فلنكذب .

فقال العقاب : هذا ما عولت عليه ولديّ رجل داهية سأسده بينهم
فيغتر بهم ويوقعهم في أحبولة مكره . بيد أنني أخاف ألا يتخدعوا لأن
ثقتهم بنا قد ضعفت .

فقال أحد الجالسين : يكفي أن يتخدع ثلاثة .

فأجابه العقاب : نعم يكفي ولكن هل نستطيع ذلك . فلنجرب قبل
الشروع في العمل .

وحضر الرجال المعول عليهم وكان زعيمهم مقنعاً وتكلم بصوت
خافت خشن كأنه ينبعث من أعماق القبور .

فقال له العقاب : نحن شركاء ولكل منا آمال وأنا قادر على العطاء .
أتصدقون ذلك ؟

فأجاب الرجل المتنع : نعم . وسأجعل اثني عشر رجلاً غيري يصدقون.
فقال العقاب : إلى العمل إذن . . .

- ٥ -

الروح تستهزيء بهم

في مساء يوم من أيام الخريف هبت نسمة من المغرب تداعب البحار
النائمة وعامت الشمس في الأفق على بحر من الأبحرة الشفافة . وكانت
السحب الزرقاء القائمة تنتشر في الجو الفسيح تتخللها ألوان الشفق الوردية
وكان الطائر البحري يلمس بجناحيه الأمواج الهادئة والستونو على كئيبان
الرمل ترسل صراخاً محزناً فتمترج أصواتها مع هدير الأمواج المحتضرة
تحت أقدام الصخور . وهناك انتصب السجن الذي يرسل إلى مكان قصي
ظله الجباري الهائل . وتكاثف الهواء رويداً رويداً كماء يعتكر وبسط
الفسق حجابيه الذي كان يسود رويداً رويداً على قمة الجبل .

وخرج صوت من أحشاء الأمواج وارتفع مبهماً يشبه تنهد الهاوية
وامترج به صوت آخر خرج من الصخرة المنفردة في وسط البحر وهو
يقول :

لقد قيدوا الجسد أما الروح فتستهزىء لأنها لا تزال حرة .

نعم . لأنني أحببتك يا وطني . لأنني أردتلك كبيراً وسعيداً . طرحني
عداتك ومبغوضك في هذا السجن مقيدين الجسد . أما النفس فلا تزال
طليقة تستهزىء بهم . نعم انها حرة تستهزىء بأولئك العبيد الساقطين .
عبيد الدناءة والشهوات . عبيد الخوف المرذولين .

ما هي قوتهم يا ترى ؟ لا شيء . فما هم إلا أجسام تصير غداً رماداً
يداس وتذريه الرياح . أتحول جدران سجنهم دون أفكاري . أتمنعي منه
القضبان الحديدية من الاتصال بالروح بإخواني ومواطني وأحبائي . أليست
حياتهم حياتي .

أيها المواطنون الأعزاء .

إن نسمة خفيفة خفية هي رسول الانحيا . بيني وبينكم فليقبضوا عليها
إن استجاعوا .

لقد قيدوا الجسد أما النفس فتستهزىء بهم .

وسكت الهاتف هنيهة ثم قال :

كل شيء في الطبيعة صامت مستريح . انه يخرج من قلب هذا السكون
ما يهمس في الأذن . أهو صوت أم شبهه ؟

في سكونة الليل وانغماس الحياة في مضاجع الأحلام العذبة استيقظت
تذكاراتي ونقلتي إلى الأزمنة التي كانت ولن تكون فيما بعد .

ما أجمل الشمس والطبيعة . ما أقوى وأحلى وأنقى فرح الطفل الصغير
الجالس قرب سياج الورد البري والأشواك الطيبة الرائحة يصغي إلى الجلبة
المبهمة التي تحدثها الأوراق المتحركة . تخدش الأشواك جسمه الناعم وهو
راكض خلف الفراشة المتقلة من غصن إلى غصن ومن زهرة إلى زهرة

أنا لا آسف على الماضي ولا أخاف من المستقبل فكم من أفق انتشرت
فيه الغيوم الخفيفة ثم طردتها نسيمات المعطرة .

أتذكرين يا أختاه ركضنا صباحاً على الأعشاب المبللة بندى الصباح .
أتذكرين لعبنا في الأحراج والغابات ومنعك إياي بالبكاء والدموع
تخريب الأعشاش رحمة بأمهاتها .

مرت الأيام والسنون والنفس منفردة متأثرة بعوامل خفية . فبعد
أحلام الشباب الحميلة ومسرات الصبا تجيء واجبات الرجل القاسية ويبرز
إلى ميدان الجهاد والعمل . إلى المعركة المقدسة . حيث السقوط وهو الغلبة
والنصر وحيث الموت وهو تجديد الحياة .

لقد سقط المحاربون لأجل الوطن وأصيبوا بسيف الجبان الخائن
واخترقت صدورهم رصاصة بندقية الضعفاء .

لقد سقطوا . لقد انتصروا .

إن الذين يلفظون اسم الوطن على فراش العذاب بصوت منطفىء هم
الظافرون ولهم أكاليل المجد والشهادة .

إن هذه الفئة المجاهدة المسجونة معي أسمعها تقول لي :

أسمع يا أختانا الشهداء القدياء في الأعالي يدعوننا إليهم . انهم متوجون
بالبهاء وكرسل الهيئ ينتقلون من فلك إلى فلك ومن كرة إلى كرة يغنون
ترنيمة المستقبل .

إن نسيمات الفضيلة التي تهب علينا من ناحيتهم تنعش قلب الأمة فترداد
نبضاته والأرض والسماء ترتعشان والعوالم تختلج في أحشاء اللانهاية والكل
يتهامسون : سيسود العدل أشعرتهم بهبوب نفثة الله وروحه .

وسكت الصوت كأنه اضمحل في مجاهل الفضاء ثم عاد فصاح فجأة
وبقوة :

« لقد قيدوا الجسم أما النفس فحرة طليقة تستهزئ بهم » .

- ٦ -

الحرية هي الحب

يا سيد ان أحكامك لا تدرك . من نزل إلى أعماق عدلك وفي هوى
علمك .

في حكمتك أسرار مخفية في قاع النور الأزلي . والكبير في مخلوقاتك
تلك كطائر صغير يرفرف على شاطئ الأوقيانوس غير المحدود .

كل مرة يا سيد تسمع جودتك وتنازلك أن يبتهل إليك خادمك لتبدد
شكوكاً تمدق به وتسكن اضطراب قلبه .

بعد الأيام القائمة والعواصف الشديدة تخضر الأرض وتغطي الأشجار
بالأزهار وينبت الرجاء فلا تسمع إذ ذاك إلا أصواتاً تنادي : امسحوا
دموعكم أيها الخزانى فينبوع الدموع ينضب أخيراً . ألسنا كلنا أخوة فلا
أحد يعود في زمن الحصاد ويده فارغة ونفسه حزينة .

إن الوطن الكبير والقوي يرفع رأسه المهان وتملك الشريعة المنقذة في
حرم عظمته وتزهر الحرية على آخر بقايا بنايات الظالمين .

يا سيد أليس هذا ما يقال ويرجى إلا أنه من تراه يدرك قصدك .

.

انظر يا سيد ماذا يقلقني ويقلق كثيرين غيري .

إن الشعوب تنظر إلى بعضها بعجب وتتساءل أين هي عدالتك وأين
عنايتك ؟

ويتساءلون إذا كان قد قرب الأوان . إذا كان الخير الذي يرجونه
عميلاً . أنهم ينتظرون غلبة العدل والحق .

ما هو الحق ؟ أيعرفونه ؟ أيعرفون ما هو الواجب ؟ أفيهم جذوره ؟
أنهم يريدون الحرية ولا يعرفون ما هي . . .

هي نسيان ذواتهم والإخلاص المتبادل . الحرية هي الحب .

.
.

يظهر أن كل ذلك بعيد فاذهب وقل للأمم العطشى إلى الحرية ما
رأيت وما سمعت .

— ٧ —

الفتاة البائسة

وملأت الشمس الغرفة حيث كانت تسكن صببية ذات لباس بسيط
وشعر طويل كالنباتات المسترسلة على جوانب الصخور تتمايل كلما هب
النسيم .

كانت الفتاة تطرز رسماً على قطعة من القماش ووجهها أصفر ومن
عينها ينبعث لمعان تكاد الكآبة تطفئه . ويحيط بجبينها العاجي إكليل من
نور الطهارة والعفاف .

كانت تهمل التطريز آوتة رافعة رأساً بلورياً كأنه كأس زنبقة . يخالها
الناظر إليها محذقة إلى شيء لا يرى إنما تشعر به العواطف ويكاد يلتمسه
الوجدان .

وارتفعت أصوات البحار والأنهار والبحيرات والسهول والصخور
فأخرجت ألوف الألوف من الأصوات التي يتألف منها جميعها صوت عام
إلهي النعمة .

أصغت الفتاة إلى صوت نفسها فسمعت أسراراً عميقة وأنعاماً سرية
وكلاماً ليس في لغة البشر فشاهدت جمالاً فتاناً لا يعادله جمال وشعرت
كأن روحها اختلست من جسمانها ثم عادت إليه ثانية بقوة مد وجزر النار
التي تأكل الحياة ثم تجددتها .

أجل . تلك هي الحياة عينها في جوهرها الخالد الأزلي .

واضمحل الزمان مع حقائقه الزائلة التي تقاس بها مدته العاجلة وغرقت
روح الفتاة في ذلك الكائن الذي صدرت منه واستقت نفسها خمرة الحياة
الأبدية فسكرت بها إلى الأبد وتسربت ثوب البهاء الأزلي .

— ٨ —

مملكة الشرير

وجمع إبليس يوماً أعوانه قائلاً لهم : لقد أغرينا الناس بألف طريقة
ودفعناهم في المنحدر فسقطوا سريعاً ومع ذلك ان تقدمنا بطيء نخسر هنا
ما نربحه هناك . فما سبب ذلك ؟

فأخذ كل واحد منهم ينحني باللائمة على سواه ويبرىء نفسه حتى
علت الضوضاء وامتلات تلك القاعة بالتجاديف واللعنات الجهنمية . كاد

ينجلي ذلك الاجتماع عن شجار عنيف في الوهدة المظلمة بين الأبالسة لو لم
يصرخ بهم اركونهم صرخة هائلة تشبه الرعد القاصف تحت طبقات الأرض.

صرخ بهم : اسكنوا . فساد السكوت .

ثم عاد فقال : اني أعرف ما تجهلون . ان مجهوداتنا ذهبت سدى
لأننا أسأنا التدبير فكل واحد منكم بذر تعاليمه حيث شاء غير ناظر إلى
العواقب ولهذا لم نحصد غير القش والشوك فإذا دام الحال على هذا المنوال
تقوضت أركان مملكتنا . فهل تظنون اني أرضى بذلك ؟ لا وألف لا .

إني أريد أن أبني مملكة الشرير وأوطد بنياها على الأرض التي
تحاربني . ولهذا يجب أن نتدبر بالحكمة والشجاعة . ولنجعل لعملائنا هذا
مركزاً تصدر عنه جميع أعمالنا ومنه نتفرق ونتغلغل في طرق عديدة فنلج
حتى أقصى ذلك الجسم الذي يسمونه « الهيئة الاجتماعية » فلنتفخ من
أحشائنا ناراً أكلة فتلتهم البشر بدون صوت .

فتعالت أصوات تهليل الأبالسة عندما سمعوا كلمات اركونهم الأعظم .
فاقشعرت الأرض فجأة واحتجبت الشمس وأظلم الجو وتصاعدت
من القبور أبخرة مزرقة دكناء وسمع في الأفق البعيد أصوات الأجراس
تقرع حزناً .

وفي مكان قدر حيث مستودع الرجس رأيت قوماً مجتمعين . لهم
هياوات بشر وليسوا ببشر . جباه مشوهة . خدود غائرة . بعضها حمراء أو
بنفسجية اللون وعليها سيماء الشرور والفجور وفي تلك العيون تقرأ ألفاظ
الوحشية والدناءة والسفالة . لقد كانوا أشبه بالأفاعي والضباب منهم يبني
الإنسان .

وقد تألبوا هناك من جميع الطبقات . من الشحاذ اللابس الأطمار

البالية إلى المرتدي الثياب المزركشة المزينة بشارات المجد الكاذب والشرف
الذي .

وكان اركونهم جالساً على دكة عالية تحيط به طغمته الجهنمية وكان
يلقي عليها أوامره وقد جعلها فرقتين : فرقة ليلية وفرقة نهائية . الأولى
تنس في المحلات العمومية والثانية تتاب حتى أسرار المنزل المقدسة .
والفرقتان تعملان معاً بدأ واحدة .

التفت إليهم اركونهم وقال بابتسامة جهنمية إلى فريق منهم : ان إهنتكم
هي الشك والكذب والفساد والخداع . انزعوا السداجة من القلوب واجعلوا
الحاجة سلاحكم القوي . ليكن الجوع باب هوة التجربة . أروا الأب
الوهدة الفاعرة فاهماً لا ابتلاع امرأته وبنيه فليرن صراخهم في أذنه ينقد لكم
طائعا خاضعاً . انصبوا فحماخكم تحت أقدام البسطاء وصوروا لهم ما لم
يكونوا يعلمون به . ادفعوهم في سبل الشر والهلاك .

إن الغش والخداع والنفاق والمداجاة هي سلاحكم .

قال هذا ودفع إليهم شيئاً من الذهب فارتموا عليه يلتقطونه .

والتفت إلى الآخرين وقال لهم : أما أنتم فأهنتكم الشدة والتهديد .
هددوا الضعيف النقيير . اسلبوه خبزه الذي حصله يعرق جبينه إلا إذا
خضع لكم خضوعاً أعمى . فليخضع لكم خضوع البهيمة . فليتنكر مثلنا
إن شاء الافتكار وإلا فلا . لقد قلدتم من الأعمال ما هو موافق لطبائعكم
فقوموا بأعبائها حق قيام . ستجري الدموع على الأرض وتنهال الدماء من
الجراح - ولا خطر عليكم - إن ذلك اليوم هو العيد الذي نفرح فيه نحن
أما أعداؤنا فهو مناحة عندهم .

ولم يكذب يلفظ آخر كلمة حتى تفرق أولئك الأشرار وانتشروا في
المدينة العظيمة فنقشوا سمهم فسمموا النفوس والأجساد .

رأيت ذلك كأنني في حلم رهيب حتى أيقظني صوت تحيف. أصوات
صراخ وعويل ونحيب تمازجها قهقهات جهنمية .

التفت فإذا بي أرى شيوخاً وشباناً وغلداً وأطفالاً بنين وبنات مهشمي
الأعضاء وقد غرقوا في الدماء حتى الركب رأيتهم يحاولون ردم القوهات
التي خرج منها أعوان الشرير ثم أقفلوا عليهم الأبواب المصفحة بالحديد
وساد سكوت رهيب .

شعرت كأنني نقلت إلى غرفة مظلمة وهناك في أحشاء الغرفة رأيت
أركان الشياطين جالساً وحوله أشباح يتشاورون ويتباحثون سرّاً .

وبعد هنيهة انسحبت الأشباح السوداء فأردت أن أقتفي خطواتها
فاختفت عن ناظري بممرات مظلمة معوجة حيث كاد الهواء التثني يخنقني .

بقيت وحدي أفكر فيما يجري أمامي أحسب لاختفاء أنصار الشرير
ألف حساب وبيننا أنا كذلك رأيت المعركة التي تقدم وصفها عادت وانتشبت
بينهم . رأيت الأبالسة يدفعون أولئك المساكين إلى كهف مظلم وهناك
عذبوهم عذاباً شديداً . هناك تلاشت قواهم فانحنت ظهورهم ولفظوا
آخر نفس .

لقد ذهبوا ضحايا المبادئ الشريفة . لقد ماتوا في سبيل الحق والحياة.
وعند منبج الصباح نقلوا إلى المقابر بلا احتفال ولا صلوة يخيم على حاملهم
سكوت عميق .

فجزعت أيما جزع وانكسر قلبي وصحت بصوت كثيب : أهكذا
يتصر الشيطان ؟ فأين أنت يا رب .

فسمعت هاتفاً في الأعالي يهيب بي : انظر .

فرفعت عيني لأرى فإذا الشهداء يتبسمون وقد جللهم النور السماوي .

بين النور والظلام

انطوى عام من سني حياتي فقبل أن يلفظ النفس الأخير جلست أندب
آمالي الكاذبة وأبكي على الآمال الوهمية وأتأمل بالشكوك والأوجاع .

في تلك الساعة الأخيرة من السنة أخذت نفسي الكئيبة تفتش عن الله
لتستمد منه القوى الضرورية للقيام بأعباء الحياة . فقصدت معبداً كان هناك
على مقربة مني . جلست في صحن المعبد أناجي خالقي فإذا بي أسمع أنيناً
وكلمات متقطعة .

التفت إلى الجهة التي يصدر منها هذا الصوت فإذا برجل مسن ضعيف
قصير القامة ينزل شعره مسترسلاً حتى شفقيه التحيلتين ومن عينيه كانت
تنبعث أشعة حادة تلمعان كأنهما عينا فهد .

جلس عن يمين ذلك الشيخ النائم ملكا النور والظلام . وقد فاتحه
الحديث ملك النور قائلاً :

أحصى ثروتك الطائلة وأحسب إن استطعت ما اكتسبته حراماً .
كم ضحيت من بريء على مذبح غرضك الأعمى . وكم مرة اخترقت
حرمة القانون ودست الشرائع المقدسة . كم تاجرت بالأوجاع والدموع
وحياة الضعفاء والبؤساء . أما صعدت إلى مرتبتك السامية على جثث الشهداء ؟

أتظن أنك تخفي هذا عن هين الذي يرى كل شيء . كم كذبت
علناً ظاناً أن الله لا يسمعك .

إن رائحة قذارة الجرائم تنبعث منك وعبثاً تحاول الاختفاء في أحوال

نفسك . ان نار الغضب الإلهي تقرب منك لتطهرك فلذ بالندامة إذا كان لا يزال في قلبك شيء من بقايا الوجدان .

وكان ذلك الشيخ المجرم يتقلب على فراش كالشوك ليفتش عن التوبة والندامة في زوايا نفسه فلا يجدهما . انه لم يكن يعثر إلا على أهوال تبكيت الضمير التي تريعه وتخيفه .

أما ملك الظلام فكان يهمس في أذنيه قائلاً له : دع هذا الأخرق يقول ما شاء فإنه يجهل مرامي السياسة . إن الشكوك والمخاوف الدينية لعقبة في وجه الحكومات وهي قتل للحق العام . فليمت البعض ليحيا الكل ولا بأس بقتل أفراد إذا كان فيه حياة الجماعات .

ألم يكتب : لا سلطة إلا من الله . فمن يقاوم السلطة أو يقلق القوانين فهو تآثر والتآثر يعاقب . ان من يبكيك يعمل عملك لو حل محلك فهل تريد أن يسبقوك . سر ولا تخف .

تمتع بملاذ الحياة ومسراتها . اشرب كأس الملذات حتى الثمالة . لا تضطرب أمام ذلك الصوت الداخلي الذي يسمونه الضمير . لا تخف من هذه الأوهام وكل ما جنيت من ثمار الحياة . فهل يليق بك أن تطعم غيرك ما جنيت .

وانحنى ملك الشر هذا فوق سرير النائم الضعيف وهمس في أذنيه بضع كلمات لم أفهمها بيد أنني قرأت في وجه الشيخ المتجعد ما دلني أنها جددت قواه المتضعفة .

أما ملك النور فطار محلقاً في الفضاء والرعب مرسوم على جبينه . ثم سمعته يقول كلمة كالرعد القاصف في القبة الزرقاء :
ملعون إلى الأبد .

صبراً يا بني

على العشب اليابس في أطراف الغابة جلس طفل مسكين وقد أشعل
ناراً يندفيء على لهيبها يديه المجلدتين .

تصاعد الدخان في الفضاء ملتفاً التفاف الأفعى حول نفسها ثم أخذ
يتشر ويتبدد في الجو رويداً رويداً .

في ذلك الوقت لم يسمع الفتى ما كان يسمعه من تغاريد الطيور ولم
ير تلك الحشرات الذهبية الاجنحة التي كانت تصافح الأزهار زهرة زهرة
وتهمس في آذانها سرّاً من أسرار الطبيعة .

في ذلك الفصل الكئيب فصل الحريف ذبلت الأعشاب واصفرت
وتناثرت على الثرى كأنها كفن ينسجه ذلك الفصل للطبيعة المحتضرة .

كان ذلك الطفل البائس جامداً لا يتحرك كأنه مسمر في مكانه .
يرهبه التفكير بقدم الشتاء القامي فيتيه في فيافي المخاوف كمن وقف على
شفير هار . وقد يرى أسراباً من الطيور قادمة من أقطار بعيدة ترسل
صراخاً مزعجاً في الفضاء فترتعد لها فرائصه . يشيعها بأنظاره فيشعر أنه
غريب مثلها وأن يداً مجهولة تدفعه إلى حيث لا يعلم .

إنك على وشك الوصول إلى المحبة المطلوبة فصبراً يا بني فإن الله
سيقودك إليها .

يا أيها الشعب

وفي نصف الليل في ليلة مظلمة مملوءة رغبة شردت نفسي في أودية
الأوهام والاضطرابات فكنت إذا ذاك يقظان نائماً . يخيم عليّ الحزن
وتحلق بي أشباح مخيفة تروح وتجيء .

خيل لي أن ربحاً حملتني ورميتني في منحدرات متعوجة بين صخور
عارية مبعثرة هنا وهناك كأنها خرائب عالم متهدم .

تكائف الهواء ولاح ضوء ضئيل يضيء سهلاً واسعاً مملوءاً بجماعات
ضعفاء مهزولين تموج بهم تلك السهلة .

أما النسيم الذي قادني إلى هناك فقد تحول هاتفاً يقول لي :

هذا هو مصير الشعوب التي قرصها الذل وأكل نفوسها الهوان فهم
موتى ولا حياة فيهم إلا لشهواتهم الحيوانية . لقد فقدوا الوجدان والكرامة
والإباء والشرف حتى التفكر بالمصير والمآل .

سائل هذه الخثالة من الناس عن الشهامة عن العاطفة التي تحجب الموت
في سبيل الحياة . اقرع صدورها فهي ترن كالحللية الجوفاء . ان هذه الشعوب
قد تفرقت كلمتها فذاقت طعم ما جنت يداها من الهوان ولم تعد شعباً بل
جماعات لا روح ولا حياة فيها .

.

وكان ذلك الصوت متأماً حزيناً وليس له نبرات الموبخ المؤنب وبعد
صمت قليل عاد فقال :

ماذا بقي من الإنسانية في الرجل . أهو إنسان لأنه يتحرك ؟ فالحماد
والدود يتحرك أيضاً .

فيا أيها الشعب .

يا أيها الذي كنت موضوع إعجاب بني البشر . أنت الذي كان ينظر
إليك الناس فرحين مسرورين إذ يرونك مخلقاً في فضاء الحياة . تضيء
طريقك كواكب النور وتفتح للإنسانية طريق المستقبل . ماذا حل بك
وكيف صرت وماذا فعلت بمواهي التي زينتك بها . لقد انتهزوا فرصة
تراخيك فقيدوك وطرحوك على الخضيض ثم رموك فوق المنحدر حتى
تسقط في الهاوية . لقد قدموا لك كأساً مسمومة فشربتها بلا ترؤٍ ولا
حذر ألا أنني سأبعثك حياً ومن يقاومني ؟؟؟

لقد جعلت في قلب الشر بذور الخير لتنمو في حينها . وفي قعر البحار
انبت أشجاراً تنمو رويداً رويداً حتى تبتق أغصانها وتمتد فوق سطح المياه .

- ١٢ -

خمرة الموت

في يوم من أجمل أيام الخريف ذهب الناس زرافات ووحداناً إلى
شاطئ البحر .

كان البحر مموهاً بلمعان ماسي أكسبه إياه نور الشمس المنعكس
عليه . هناك على الشاطئ كنت ترى الناس يتراكمضون أسراباً ويتسابقون
أفواجاً على الرمال بين أرجاء معطرة بروائح القرنفل والبنفسج والياسمين
يحملون في أيديهم السلال والشباك والقصبات الطويلة ذوات الصنابير
ينتظرون أن تمتليء من عطايا العزة الإلهية . وعند المساء عندما هجم المدّ

يجيشه اللجب عادت تلك الجماهير على أعقابها فرحة بما اصطادته واغتمته
عاد الناس كلهم إلا فتاة حسناء كانت نائمة على صخرة منفردة .

مسكينة تلك الفتاة لم تفق من رقادها حتى رأت الأمواج فاغرة فاها
لتبتلعها وليس على الشاطئ من يمدّ لها يد المعونة لتخلص من ذلك المأزق
الحرج . الله وحده يعلم ماذا كان يجول في خاطر تلك الفتاة في تلك الساعة
الرهيبة .

وفي الغد وجد جثمانها على الصخرة لأن شعرها كان اشتبك ببعض
النباتات البحرية فواروها الثرى بحرسها صليب خشبي يرشد إلى ضريحها
صديقاتها اللواتي كنّ يزرنها ويبكين على ضريحها من وقت إلى آخر ناديات
شباباً غضاً ويسألن لها الرحمة الدائمة .

— ١٣ —

إن الدنيء قدر

كانت وطأة الحر شديدة . فاشتد ظمأ رجل فأبصر كرمة تكاد تسقط
تحت حملها فعوّل على ارواء ظمأه من عصير العنب . أراد أن يجني بعض
عناقيدها فرأى بينه وبينها مستقماً قدراً تموج أوحاله ولا بد له من اجتيازه
حتى يصل إلى الكرمة فتردد قليلاً .

ولما غلبه العطش قال في نفسه : قد يكون هذا المستنقع غير عميق
فلنجرب . ان حذائي وحده يتمرغ بالأوحال فالضرر قليل إذاً في جنب
الارتواء . واقتحم المستنقع فغاص في الوحل والقذارة حتى ركبتيه فتوقف
قليلاً بيد أن منظر العناقيد مدلاة أمامه نشطه على الإقدام فأقدم قائلاً في
نفسه : ان قليلاً من الماء ينظف هذه الأوساخ . إلا أن الأوحال وصلت

إلى صدره ثم إلى عنقه حتى كادت تغطي فمه ورأسه لولا بعض جهود
بنها مندفعاً إلى الأمام .

اجتاز المستنقع وخرج منه مكسوراً ثوباً أسود من الأقدار والأحوال
فمدّ ذراعيه وقطف من عناقيد الكرمه وأكل حتى امتلأ جوفه .

نظر إلى جسمه فحجل . خلع ملابسه وفتش عن غدِير يغتسل به .
ان الرائحة النتنة قد اخترقت حتى عظامه وكانت تنبعث منه حتى كادت
تفسد المحيط . والناس ابتعدوا عنه ناقرين متقرررين .

هذا الذيء السافل لقد جعل نفسه زحافة . فليعش اذن بين الزحافات .

- ١٤ -

الشر ظل الخير

هو العمل شاق اليوم يا أبت . فالمعول لا يشق قلب الأرض اليابسة
وسهام الشمس تقع على الرأس . والغبار تسوقه ريح الجنوب كأنه الزوبعة
الثائرة .

- إن الذي ينفخ الرياح الجحافة يرسل النسمات الرطبة البليلة فالعمل
تعبه الراحة يا بني وكل يوم له همومه ومتاعبه وآماله .

- تأمل يا أبي في هذه الأغراس كيف تعذب وكيف ذبلت نضارتها
وجفت فانتثرت أوراقها حول جذعها .

- إنها ستنهض من سقطتها يا ولدي فكل أوراقها محصاة وواحدة
منها لا تسقط بدون إرادة الأب السماوي . سوف ينعشها ندى الكنوز
السماوية الرطيب .

– إن الطيور قد صمتت وتخبأت بين الأوراق والسماوي جمدت بين الأتلام لا تتحرك والنعاج تبحث عن الظل والثور يخور وقد طوى ركبتيه والفيل ماداً عنقه يستنشق الهواء الذي يحتاج إليه .

– سيعيد الله إلى هذه المخلوقات قواها التي فقدتها يا عزيزي ويشدد عزائمها التي أنهكتها هذه الحرارة الشديدة . فما إن أصابع النسيم اللطيفة تداعب النبات فهو يتحرك طرباً وسروراً .

– هلم بنا يا أبت نجلس على بساط العشب الأخضر على شاطئ البحيرة في ظلال تلك السنديانة الهرمة . فما أصفى تلك المياه . إن الأسماك ترح فيها مغتبطة مفتشة عن قوتها فاتحة أفواهها لاقتبال المياه مع الهواء .

– إن الذي صنع كل شيء وزرع عطاياه وذخائره التي لا تنفذ . لقد فرق الحياة والفرح بالحياة بين جميع المخلوقات على السواء . لا شر في الحياة . فما الشر إلا ظل الخير إن هو إلا جهة مظلمة من شبح المحبة .

– أنت تتألم يا أبي وتجاهد في سبيل القوت وأنت مسكين وأمي بائسة وكلنا نقتات بما تحصله بعرق جبينك . قل لي بربك أنت يوماً وأنت واثق إن لديك قوت غدك .

– لا تهتم يا بني بما للغد فالغد يهتم بشأنه . يكفي كل يوم شره . فمن ينهض في الصباح وهو لا يعلم إذا كان يبقى حياً إلى المساء لا يحق له أن يهتم بوقت ربما لا يأتي ولا يراه .

إننا نمر في هذا العالم كالسنونو ساعين وراء قوتنا يوماً فيوماً حتى إذا دنا الشتاء شعرنا بقوة داخلية تدفعنا إلى مناخ ألطف مما نحن فيه .

– ماذا الذي أراه يا والدي كأنه ميت أدرج في كفنه أو طفل لف بالأقمطة .

- هذا كان يا بني دودة زحافة وعمما قليل ستصير زهرة حبة ثم
تتخذ أجنحة بهية اللون لم يلبس مثلها ملك من ملوك الأرض وإذا ذلك
تطير صاعدة إلى السماء .

- ١٥ -

أبكي لأنني إنسان ؟

آه ! من يردني إلى الوادي الذي أبصرت فيه النور وتنشقت فيه أول
نسمة من نسيمات الحياة . من يريني صنوبراتي الضخمة القائمة في سفح
الجليل حيث تغسل أقدامها جداول المياه وتنسبط أمامها بسط من الأعشاب
المختلفة الألوان . فهناك في ذلك المنحدر كنت أغتسل بمياه الثلوج الذائبة .

ما أشقاني أنا الجبلي . لقد فصلوني عن الأرض أمي وسجنوني بين
جدران غليظة فما عدت أنظر إلا من خلال قضبان حديدية ضخمة حبكتها
يد الظالمين .

عندما اقتادوني وأوقفوني أمامهم سألوني قائلين لي : من أي شيء
تعيش ؟؟

فأجبتهم : من عملي . إنما قست قلوب الرأسماليين فأبوا أن يشغلوني
في معاملهم وقالوا لي : اذهب وموت جوعاً .

أجل لقد استكبر الجناة هذه الجريمة الهائلة وهي أن أموت جوعاً
وصرخوا بي : أنت تموت جوعاً ؟ انه لخرق للقوانين . ومسكنك أين هو ؟
ألك مسكن ؟

فقلت لهم إذ ذاك كل الأبواب سدودة في وجهي لأنني فقير معدم .
أفتش في المساء عن مأوى وحيث ترشدني العناية الإلهية أنام وأستريح .

فهنفوا : ليس لك مأوى . أنت متشرد إذن والقانون يقضي عليك بالسجن ولا مجال للاجتهاد والتأويل فألى السجن . وهكذا كان .

اي أيها القوم المنافقون ! أنتم تدعون أنكم رسل ابن الإنسان . لقد مرّ في هذا العالم ولم يجد له مأوى يسند إليه رأسه . انظروا إلى رسمه الذي تصورونه في بيوتكم ومساجدكم . تأملوا شفاهه فهي تكاد تتحرك . انظروا إلى فمه فهو يكاد يفتح بغضب ليلعنكم ويلعن قوانينكم وشرائعكم .

أليس الهواء والشمس مشاعاً للجميع ؟ هل بني الله سجونا لمخلوقاته .

افرحوا وتهلّلوا يا رعيان بلادي وارقصوا وغنوا في أكوانكم الحقيمة فليس في الفاقة جرم والمار عليكم يجد دائماً عندكم غذاءه من الخبز والحليب فيسد جوعه . انه ينام عندكم مستريحاً على الأوراق اليابسة فهيناً لكم .

ما كان أسعد أيام شبابي التي قضيتها بينكم ما كان أشد سروري عندما كنت أتوسد العشب في ظلال الصخرة العاتية المكسوة بالطحلب . كم سكرت بروائح أعشابنا العطرية وتغاريد أطيارتنا الممتزجة مع خريف الساقية .

إن تخيلتي تكاد تغص بالتذكريات فيمحو بعضها بعضاً إنني أرى الغيوم ترحف على مناكب الجبال ثم تنطوي على بعضها وتلتف بألف شكل غريب . حتى إذا تسلقت القمم توجهتها بعمائم مختلفة الألوان والأشكال .

فما هي تلك النقطة السوداء التي لا أكاد أتميزها ؟

إنه النسر الذي يخلق في الفضاء بهدوء وسكينة فهو حرّ .

والوعول والأبائل تقفز على الصخور واللب يعيش في كهفه آمناً مستريحاً والعصفور يحمّد الغاب والحشرة تسرح وتمرح فوق الأعشاب هائلة .

آه كم وددت لو كنت حشرة أو عصفوراً أو دباً أو وعلاً أو نسرأ
لأروح بملء حربي كنتك المخلوقات التي لا أحسدها إلا على حرقتها...
فما من خليفة لا تستنشق تحت السماء نقي الهواء حيث لا يعارضها معارض
إلا الفقير . ان الفقير مقيّد . انه أتعس عبد في الخليفة .
ويلاه ! من كان يظن يا رب اني أبكي لأنني إنسان .

- ١٦ -

الصيد الصغير

في منحدر صغير وتحت صخر نقرت أسفله الأمواج وبين صخور
يتدلى منها النبات البحري جلس رجلان أحدهما فتي والآخر كهل مستندين
إلى مركب صيد ينتظران المدّ المتصاعد ببطء مدفوعاً بنسمة لطيفة .

ولاح بعد هنيهة مركبهما يبتعد عن الشاطئ وكان الكهل يدير دفته ثم
ينظر إلى السماء كأنه يفتش عن علامة النجوم الراقدة في الأفق .

منظر جميل . مركب يسري بهدوء ويشق الماء تاركاً وراءه خطاً من
الزبد الأبيض . يعلو تارة ويخفض أخرى فتظن أشرعت كأنها أجنحة طائر
عظيم أنهكه التعب . أما الرجل فكانت تقرأ على جبينه آيات العمل والجهاد
المستمر . وكان الجزر يحفر أودية صغيرة في اليم تغطس فيها الطيور البحرية
مستقمة منها وكان الشاب ينظر إليها بفكر شارد وعين تائهة إذ يراها تنطلق
كالسهم فتشق العباب ثم تخرج من الماء وتجم على الصخور البحرية السوداء .

مشاهد طبيعية مذهشة كان يزيد لها روعة وجمالاً شعاع نور أو نسيم
رخيم أما الفتي فكان ينظر إليها كأنه في حلم وكاد ينام على تلك الأصوات
الموسيقية اللطيفة كما ينام الطفل على أغاني أمه . بيد أن فكراً قوياً أيقظه
فصاح كأنه ينحطب على جم غفير : الحقول للفلاح . والغابات للصيد .

والبحر وأمواجه وصخوره وزوابعه لنا .

هو واقف بين أشداق اللجة إلا أنه حرٌّ ولا سيد له غير نفسه .

المركب طوع يديه يسيره فوق هذه السهول المتحركة يعارك الأمواج
ويحارب الرياح فيغلبها ويتتصر عليها . فمن هو قوي أو عظيم مثله ؟؟

أملاك البحار غير محدودة . لقد قال له الله : انظر هذا المحيط الواسع
فهو لك كله .

له في أعماق الماء غذاء وفير : أسماك لا تحد ولا تحصى تصطادها شباكه .

نظره يمتد في الأفق البعيد وفي الجو له من الغيوم سهول فسيحة تشبه
الرمال . تكون له الأنواء الجوية بحيرات جميلة سموية وأنهرًا وجبالاً
وأودية ومدناً مزخرفة تارة تغطس في الظل وآونة تضيئها أنوار المشرق
الساطعة .

ما أطف حياة الصياد وألذها فمعاركه القاسية وأفراجه الحشنة تروق لي .

ومع ذلك يا أماه ان قلبك يخفق عندما تهز عواصف الليل كوخنا .
إنك تستيقظين إذ ذاك مضطربة وتركعين مناجية حامية الملاحين المساكين .
إنك تبكين على أقدامها مصلية لأجل ولدك السائر في الظلام تحت رحمة
الزوبعة وهي تدفعه بقوة نحو بلجة عميقة يسمعون فيها أنين الأموات ممزوجاً
بزجيرة العاصفة .

— ١٧ —

الشعب الساقط

البكاء والعيويل يتصاعدان اليوم على الشعب الساقط . على تلك الأمة
التي كانت تقول عنها الأمم هذه مرشدتنا وهذه تصلح أن تكون لنا مثلاً

أعلى . كانت الشعوب تصرخ : فليعش هذا الشعب أمامنا فتبعه كما تتبع
الأمم نوابغها .

لقد فتح لنا طريقاً جديداً وكان لنا معلماً بقوانينه التي سنها مساوية
بين الضعيف والقوي والكبير والصغير . انه واضع حجر الأساس في بناية
الحرية والإخاء والمساواة . لقد حطم صوبلجاناات الملوك على أقدامنا وأسطط
التيجان على الثرى فكانت كالأطواق التي تلعب بها الأطفال .

إن الجندي هو فلاح الوطن الإلهي . انه يزرع في حقول المعارك
سلام الأمم . لقد نخطمت أغلال العبودية وتكسرت من ذاتها عندما نهض .
عندما تحرك في قلبه شيء عظيم مجهول وهو الشعور بأنه أصبح إنساناً .

الأمل في نفس المسكين كالنسيم العليل في رئة المصدور وأحلام السلام
والفرح تنعش البؤساء .

فما أبهى الأفق وما أصفاه . وما أجمل الخير يتبع الخير . ألا ان شبح
الماضي قد لاح للشعوب المحررة وملاأت الفضاء نتائته فأفسدت الأنفاس .

لقد وضع شبح الماضي يده على صدر الشعب المنعق فجمد الدم في
العروق ووقفت نبضات القلب . لقد نفخ أنفاسه في صدر الأمة فاعتراها
الدوار .

انظروا تروا ركب الشعب تضطرب . لقد نسي الشعب كل المظالم
الفاتنة . لقد نسي الشعب كل شيء حتى وجدانه .

لقد نلطح بالرشوة وقدم ببلادة رجليه للقيود والأغلال وعنقه للنير .

لقد انحنى ينبش الأرض بأظافره وكلما ازدادت حرارته لها أجذبت .
إنه يتعب ويشقى بالغرس وغيره يجني ما زرع . إن غيره يحصد مستريحاً .
فابكي ونوحى أيتها الحرية على الشعب الساقط .

تب إليّ

اسمعوا ما يقول الرب :

الويل للأمم التي تنساني . وتعساً للشعوب التي تبتعد عني .

أيها الشعب :

لأنك ابتعدت عني وسلوتني وألتهت نفسك .

لأنك التفتت بكبرياتك كملك المسارح بثوبه الأرجواني .

لأنك اتخذت حواسك مرشداً ودليلاً . وجعلت شهواتك شريعة

ودستوراً لك حتى ألتهت المادة .

ولأنك تركت كل شيء كان يجعلك كبيراً . من أجل هذا كله

أسبت عليك ظلمة مدلّمة تتوه بها تكتنفك الأشباح وتحقق بك أرواح

الخوف والكذب والخبث .

لذلك انتزعت منك كل عاطفة حتى الرغبة في الحرية .

لقد أوجدت كل سافل ولثيم . لقد أخرجت ذلك من مزابل بلدك

وصيرته حاكماً عليك مستبداً فذوق طعم جحودك وكنودك .

لقد أخضعتك لأدنى الأشياء وأسفلها . لقد تركت الظالمين يلهبون

ظهرك بسياطهم حتى تحسد البهائم على حياتها وزرائبها .

لقد جعلتك هزءاً وسخرية في أفواه مبغضيك . وعلى أقدامهم تركتك

مطروحاً .

أما كفاك مذلة وإهانة ؟ الحمى تأكل أحشاءك وعن الماء تفتش في

الرمال أيها الشعب الأعمى ولا تجده فتكوي الرمال المحرقة قدميك ولا
تنشق المياه لك .

بناتك وأولادك يفرسهم الجوع وعن خبز العهارة والدنس يفتشون
في الأوحال فلا يجدونه .

بربك قل لي أيها الشعب البائس . أبقى شقاء ولم يلتصق بك كالعار .
لقد ثقل عليك نيري فألقيته عنك فذق إذن ما يذوقه من شق عصا
الطاعة . . .

ها ان أعداءك يفرسونك ولا ينتذك من مخالبتهم أحد . استعن بأنبيائك
ينقدوك إذا قدروا . فافتح عينيك إذن وتب إلي . إن يدي التي ضربتك
ترفعك وتشفي جراحك فيشعر الذين اضطهدوك بثقل عدالتني وتعرف أنت
انني تواب رحيم وترجي أنت وجميع الشعوب المستقبل العجيب .

- ١٩ -

الخير لا يغلب

لقد قال المنافقون في قلوبهم سيقطع الخير ونستأصل جرثومته من
النفوس وإذا تجاسر أحد ورفع صوته عالياً مذكراً به الناس فلندفنه في
سجوننا المظلمة، فلنطلق عليه كلابنا الجائعة التي تهوش حول هيكل الشر
ومن أجل كسرة تطرح لها في الأوحال تنبح بالكذب والنميمة والنفاق .

أيها الجهلة ! إذا فعلتم اليوم ما سيفعله الموت غداً أتنتصرون على الخير
بالشر ؟؟ ليس الخير بإنسان لتغلبوه بالموت . فما الخير إلا مظهر من
مظاهري يقول الرب .

لما سحر الناصري على الصليب ومات بين لصين صاح المراثون والكتبة
والفريسيون الذين كانوا يفترون الشعب : لقد انتصرنا . وسرعان ما
تبددت آمالهم فجاء الغد ورددت أقطار المسكونة صوت الظفر الخارج
من القبر مع الذي غلب الموت بالموت ووهب الحياة لمن في القبور .

- ٢٠ -

لا تعبدوا المادة

لم تركضون وراء الأضاليل والأوهام ؟ وإلى مَ تنسون غايتكم
الحقيقية التي نشدتموها وضحيم الضحايا من أجلها .

إن الآمال تجذبكم إلى الصحارى المجذبة الماحلة كما يجذب السراب
الظمان . إن أشعة الأمل ستنطفئ في بيداء الظلام الأبدي .

لا بد للجسد من حاجاته لحفظ الحياة بيد أن للنفس حاجات أيضاً .
فهل نحن من أجساد فقط لنسعى للجسم وحده فما مصير هذا الجسد ؟
سيصير حفنة تراب تذريها الريح فهو كل يوم يزداد دنواً من القبر .

إن البهائم لا تستسلم بكليتها إلى ملاذ الحواس فهل تكونوا حيوانات
أكثر من الحيوانات نفسها ؟ أتعرفون ما هو هذا الطيف الذي يكبلكم ؟؟
إنه المادة وهي التي تعبدونها .

فيا أيها الناس اسمعوا ما يقول الرب :

إن الجسم ليس هو الإنسان بل غلاف الإنسان . وليست الحياة أكلاً
وشرباً بل معرفة ومحبة .

إن أحقر المخلوقات يأكل ويشرب وذلك يكفيه . أما الإنسان فيفتكر
ويحب ويخلص ويحسن ويجد في الحق والخير والجمال وبها يحيا .
فاطلبوا يا ناس ملكوت الله وبره أولاً وما بقي تزدونه .
ويل للباني على شفير الهاوية . وتعساً لمن يضل في قلب الوادي . ان
السنابل المعدة لغذائكم لا تثمر في المستنقعات .
إنني زرعت في المرتفعات البذور التي تقوتكم .

— ٢١ —

تذكروا الأموات

عندما خمدت الضوضاء واكتسى الشرق ثوب الظلام مشى طيف ما
مثاقلاً على طريق ضيق بين سنابل القمح .

لزمت النحلة خليتها وسكن العصفور في وكره وذبلت أوراق الأشجار
وخيم السكون فوق الأرض الهامدة . أجل لم يكن يسمع في تلك الساعة
غير صوت بعيد، صوت جرس المزرعة فإنه كان يرن في ذلك الجو الهاديء
يدق دقة الحزن كأنه يقول : اذكروا الأموات .

وتوقف الطيف لأنه خيل إليه ان صوت الأموات الخافت يمتزج
بذلك الرنين وقد ناداه : أيها الطيف ! ! أجيئت إلى هنا حيث مررت منذ
حين لتذكرنا بما لاقيت من الأفراح والأحزان التي مرت كالبرق .

لقد اضمحلت تلك الأيام كما يتبدد الدخان الذي يتصاعد من مداخن
أكواخنا . لقد كست الحضرة قبوركم تحت ظلال السرو وعندما يسمع
حفيف الأوراق تخال أنها الأرواح تنهد .

فيا عريس الموت ! قل لي لماذا تململ على فراش احتضارك؟؟ . أنت
اليوم خلوت من الهموم والهواجس، بعيد عن الدموع . أنت تسرح في جو
مضيء بكواكب ساطعة وشموس فضيئة الشعاع .

لقد تعبت نفسي من أشباح الأرض فخبرني عن أسرارها . حدثني
عن ذلك الذي أوجدها وملاها بذاته .

لقد دنت ساعتكم يا اخوتي بعد أن عيل صبركم وستأتي ساعتني أيضاً .
إن يوم العمل قد انتهى فعودوا إلى مضاجعكم واصغوا إلى الصوت الصارخ .
اذكروا الأموات .

القِسْمُ الرَّابِعُ

مغاور اللجن

ماساة غرامية أدبية تاريخية

ذات خمسة فصول

مقتبسة عن الفرنسية

اسماء الممثلين

| | |
|--------------------------------|--------------------------|
| الدوق | جان غلياس |
| الدوقة زوجته | كاترين |
| صديق كاترين | بريفارا |
| ابنته | لاب |
| ابن كارلوس ويسكونتي شقيق الدوق | كميل |
| ابنة الدوق وحبيرة كميل | فرجينى |
| حبيرة روبر | ميرفا |
| صديقا كميل | روبر ورودرىك |
| مربي كميل | لويجي |
| من رجال الدوق وبريفارا | مرتيني ودلبانو |
| مدير السجن | رفارو |
| سجان | طومازو |
| خادم كارلوس | بترس |
| سجان وأحد أصدقاء كارلوس | هوراس |
| | راع وولد |
| | ضابط . جنود . حجاب . خدم |

الفصل الأول

المشهد الاول

« بريفارا وحده »

سعت إلى العلى أبغي الفخارا وما خفتُ الأسنّةَ والشفارا
ودوخت البسيطة في دهائي وقد أضرمتُ في القطرين نارا
ومجدي نلته بيدي طريفاً فصرت السيد الحامي الذمارا
بريفارا أنا والكل يخشى بريفاراً إذا قدح الشرارا
وقد غدت الأبالس من جنودي وفي ما شئت تأتمر ائتمارا
فقولوا للذي يبغي عنادي لقد عاندت ليثاً لا يبارى

نعم لقد رببت في مهد الفواحش وشبيت على هوى نفسي وألفت
العصابات فدوخت بها ميلان وقلورنسا فصرت ذا مالٍ كثيرٍ وتزوجت
بالأميرات وأصبح الدوق بيدي كالحاتم في الخنصر وتوصلت بدهائي إلى
استملاك قلب الدوقة كاترين وهي الآن طوع بيدي فلهه درك يا بريفارا
ما أشد دهائك . لقد قتلت الدوق كارلوس ولا بدّ من أن الحق به ابنه

كميل واتبع بهما الدوق أمير البلاد فازوج ابنة جان ماريًا بابنتي لاب
وأزف فرجيني حبيبة كميل إلى ولدي فرنسوا فتصبح السلطة بيدي سلسلة
لا يعرف طرفاها وما أحلى تلك الدقيقة وأشهى الوصول إليها . ولكن لا
وصول إليها قبل قتل كميل وقتله هين على هذا المنوال . وما عليّ إلا أن
أجتمع بالدوقة لتنصب الفخ لذلك الثعلب « بهم بالخروج » .

المشهد الثاني

« كاترين بريفارا »

- بريفارا : أهلاً بسيدتي الدوقة ، وكيف حال الدوق ؟
كاترين : دعني من الدوق ، فهو لم يزل عازماً على إرسال جان لمحاربة
الفلورانسين .
بريفارا : أولم تحويه عن هذا العزم ؟
كاترين : لا ، فهو عنيد مستبد برأيه .
بريفارا : يا نخيبة الأمل ! ان بقاء كميل لعقبة في سبيل مساعينا ،
فالدوق يحبه ، ووجوده في ميلان يغل أيدينا عن كل عمل ،
وإذا لم تقتله فلا فلاح ولا نجاح .
كاترين : آه من هذا الفتى فهو شرٌ علينا من أبيه .
بريفارا : ان من قتل الوالد لا يصعب عليه قتل الولد .
كاترين : وكيف ذلك ؟
بريفارا : الأمر سهل . نتمنع الدوق بإرساله إلى فلورنسا، وهناك يلقي حتفه
كاترين : وإذا لم يقنع ؟
بريفارا : لو كنت امرأته لكنت أريك كيف أقنعه .

كاترين : فهمت . فهمت . فقد أوشك الدوق أن يحضر .
بريفارا : إذن : أرينا دهائك يا حواء الجديدة .
« يدخل الدوق ومعه حاجبان » .

المشهد الثالث

كاترين ، الدوق ، بريفارا

الاثنان : سلام على سيدي الدوق .
الدوق : « يجلس » لقد انبثت العصابت في أطراف المملكة . وطفى
الفلورانيون وتجبروا ولم يحسبوا لي حساباً . فلانكلن بهم
أعظم تنكيل ولأسحقهم سحقاً . . . غداً يكون في طليعة
الجيش الميلاني ولدي جان فيلي البلاء الحسن ويقول الناس
ان هذا الشبل من ذاك الأسد ، ومتى دوخ تلك البلاد وبسط
أجنحة سلطانه عليها أجلسه على هذا العرش .
كاترين : هل تعتقد أن جان كفؤ لهذه الحرب الطاحنة وهو لم يشهد
معركة بعد ؟
الدوق : إن هذه الحرب ستكون خير درس وبها يستميل الجيش إليه
فتكون مقدمة لخير نتيجة .
كاترين : إنني أخاف عليه يا سيدي ، ولا تقوى نفسي على فراقه .
الدوق : آه من قلوب الأمهات ، ان معارضتك له ستحول بينه وبين
العرش .
كاترين : أمن الضرورة أن يخوض أولياء العرش غمار الحروب ؟
بريفارا : أما أنا فلا أرى ذلك : ففي المملكة أبطال يقومون مقامه .

- الدوق : إذن . من يحمّد جذوة هذه الثورة الهائلة ؟
- كاترين : لو كنت تعبرني أذنأ صاغية لفضلت إرسال كميل فهو شجاع مدرب .
- الدوق : إنه كذلك . ولكن ولدنا يخسر مجدأ تاريخياً عظيماً .
- كاترين : خسارة المجد ولا خسارته .
- الدوق : لا تطمعي بالمحال فلا بد من إرساله .
- كاترين : إذا ألحق به أين سار .
- الدوق : ما هذا الجنون يا كاترين ؟
- كاترين : دعني وشأني ، فالذهاب معه أو الانتحار .
- الدوق : الانتحار ! ؟ ويا لها من كلمة . الانتحار ! لا يكون ذلك إن سلطان الحب يقضي بإجابة سؤاها .
- بريفارا : يا لدهاء النساء ، ما أقوى سطوتهن .
- الدوق : اذهبيا أيها الحاجبان ، وادعيا كميل لمقابلتي .
- بريفارا : (على حدة) وقع في الشرك .
- الدوق : أراقك ذلك ؟
- كاترين : شكراً لك سيدي . (تهم بالخروج) .
- الدوق : إلى أين ؟
- كاترين : إلى غرفتي ، فقد شعرت بنوبة عصبية (تخرج) اتبعني يا بريفارا .
- الدوق : ما أتعب السياسة ، لا يعرف الحكم إلا من يكابده . إن فكر الدوقة في محله . فجان ليس بفارس هذا المضمار ، أما كميل فلا يشق له غبار .

المشهد الرابع

الدوق ، كميل

كميل : « يدخل » السلام على سيدي العم . « يقبل يده » .
الحاجب : « يخرج » .

الدوق : وعليك السلام يا عزيزي . اجلس من عن يميني . واستمع :
لقد اتصل بك ما أضرم من نار الفتنة في أنحاء المملكة وعرفت
تمرد الفلورانيين الطغام . فقد تجاوزوا حدهم حتى بلغ
السييل الربى وحملونا ما لا نطبق إجماله فنحن قوم لا نقعد
على الضيم .

كميل : نعم وستحقق لك الأيام ذلك .

الدوق : لقد رأيت أن تتولى قيادة جيش يجب أن يخضد شوكتهم
ويكبح جماحهم ، فاجمع رفاقك الباتريسيين الشجعان
والفرسان البواسل وحقق آمالي فيك بتدويخ أولئك الطغاة .

كميل : لك عليّ إمرة مطاعة ، فحياتي أقل ما تروم .

الدوق : ثق يا ولدي أن انتصارك سيعود عليك بالسعادة ، فقد عزمت
على توليتك مقاطعة لمبارديا بعد أن أزف إليك فرجيني .

كميل : شكراً لك يا مولاي :

دعوت فتى يلقي الأستة باسماً نفسي ظمأى والمهتد صاد
فيا نفس كوني في الجهاد ضحية فانت فدى عمي ومجد بلادي

« الستار »

الفصل الأول

« الجزء الثاني »

المشهد الأول

(فرجيني وحدها)

أين عيناك أيها الحبيب تنظران إليّ في هذا المكان حزينة كثيفة لبعذك .
فكيف يواصل طرفي المنام أم كيف تكتحل مقلي الدامية بطيف الكرى
أم كيف يطبق هذا القلب أن يصبر على البلاء وأن يتحمل غصص الفراق...
آه رباه . . . كيف الصبر وماذا العمل . . . آه يا ربي . . . ألم يكفني ما
أنا به من الهم والمصاب حتى يرسل أخي جان ماريًا يكلفني أن أدس السم
إلى حبيبي كميل . آه يا للحماقة أأدس السم إلى حبيب أحبه أكثر من نفسي..
لا غرو ان جان ماريًا أحرق غي . ألا يدري أن قتل نفسي أسهل عندي
من تحاملي على حبيبي كميل بسوء . . . يتهددني ويتوعدني إن لم أقتله ،
ثم يريد إكراهي على الرضا بابن بريفارا . . . لا لا لا أحول عن حب
كميل . فإليه مال قلبي وصبا .

المشهد الثاني

(تلخل مينرفا)

مينرفا : فرجيني ! مولاتي فرجيني ! « تلخل » وتقبلها قائلة « ما
بالك مولاتي باكية ؟ أبهذه الدموع والحزن تستقبلين طلعة
كميل الوضاحة ؟

- فرجيني : « تنظر إلى الطريق » ما أراها إلا خالية . أعدك عن وداعي ؟
أما قطعه أحد عني ؟
- ميرفا : مهلاً سيدتي فلم تحن الساعة بعد .
- فرجيني : وأين تركت أباك ؟
- ميرفا : في غرفته يستعد لاستقباله . وأنا هيأت له الزهور التي يحبها .
وأنت لا تزالين باكية !
- فرجيني : آه ميرفا . الأيام تعانلني وما من يرني لحالي . فغداً يذهب
حبيبي إلى الحرب وهيئات اللقاء . فلو كان له أم لما رأته
يلقي بنفسه في المهالك . ولكنني لست أما بل حبيبة وقدر
للمحبين العذاب .
- ميرفا : أتومين كميل وقد دفعه ابوك إلى هذه الحرب ؟
- فرجيني : أفي كل يوم طعان وقاتل ووداع وفراق .
فيا ليتنا دما صغيرين عمرنا ويا ليت لم نكبر ولم نعرف البعدا
- ميرفا : كأنك تأنفين من لقاء غداً مظفراً وعلى رأسه إكليل الغار .
- فرجيني : ويلاه ومن يضمن لي وله العود والبقاء « تبكي » .
- خادم : وفد الأمير ، وفد الأمير ! (تخرج فرجيني وميرفا) .

المشهد الثالث

كميل ولويجي

- لويجي : (يدخل من جانب وكميل من جانب آخر) .
- كميل : لا تعن نفسك يا مؤدبي ، فالشباب خفيف الحركة ولا يحمل
به إزعاج جلال المشيب .
- لويجي : (يقبله بكل لطفة) آه يا ولدي ، لا ألقاك مرة إلا ويخيل لي

- أنني أرى والدك سيدي الأمير كارلوس : فأنت كبير الشبه إليه .
- كميل : وأنا أيضاً . لم أحرم منك انعطاف ذلك الأب وحنوه . فقد كنت لي أكرم مؤدب وخير صديق ، ولهذا أتيتك اليوم أستعين برأيك ونصيحتك على أمر نفسي .
- لويجي : تكلم يا بني ولا تخف عني شيئاً ، فإني ما خلوت بك إلا لأفشي إليك سرّاً كتمته عنك زمناً طويلاً .
- كميل : هل علمت يا لويجي أن عمي الدوق أشهر الحرب على فلورنسا وفوض إليّ قيادة الحملة وأمره الجند .
- لويجي : (يهز رأسه) نعم أعلم ذلك وهل أصرّ عمك على هذا العزم
- كميل : نعم . وقد خلا بي وأثنى على أمانتي ، وأعرب عن تفضيله إياي على ولده جان ووعدني أنه يزف إليّ فرجيني بعد عودتي وأن
- لويجي : وبمّ وعلك أيضاً ؟
- كميل : (يتسم ولا يتكلم) .
- لويجي : تكلم يا بني فقد يكون الذي يضحكك يبكي .
- كميل : وعدني أنه يعهد إليّ بشطر من المملكة أستقلّ بحكمه إذ ليس في بنيه من يستطيع حمل أعباء الملك .
- لويجي : ألم يكن في القاعة التي خلا بك فيها من يسمع حديثكما ؟
- كميل : كلا لست أظن ذلك .
- لويجي : أألم يحدثك بأمر المباراة التي دعاك إليها بريفارا ؟
- كميل : لا لم يكلمني بها لعلمه أنني كنت شديد الرغبة فيها ولو لم يتهددني ويتوعد بريفارا بالنفي لبارزته وخطفت روحه .

لويجي : وهل سألت الدوقة عن سبب إيصالها خبر المباراة إلى عمك
الدوق . وهل كان ذلك إشفافاً منها عليك أم مخافة على حياة
حبيبها بريفارا ؟

كميل : لا أظن أنها هي التي أخبرت الدوق بذلك .

لويجي : بل هي بعينها وليست المباراة لأجل فرجيني كما توهمت .
وأنه . . .

كميل : ولأي أمر إذا ؟

لويجي : لتحقيق أمانيه وأماني كاترين في الملك . فأنت تزاحمهما

عليه وقد أدركا أن عمك سيزف فرجيني إليك ويوليك
فخافا أن ينتهي أمر الملك إليك بعد وفاة الدوق عوضاً عن
كاترين . فدعاك بريفارا إلى المباراة . ولكن كاترين لخوفها
من أن تقنله صدته عن عزمه ووعده أن تمنع اقترانك
بفرجيني وأن تحتال في إرسالك إلى فلورنسا . وهكذا كان
ولا يزال بريفارا بوغر صدر جان ماريًا عليك وبأتمران
لقتلك كما تأمر بريفارا وكاترين على قتل أبيك من قبل .

كميل : (يتصب) أهما قتلا أبي ؟

لويجي : لقد حان يا بني أن أفشي لك هذا السر الهائل .

كميل : تكلم ، فقد عيل صبري وقل من قتله .

لويجي : إنني أكاد أفقد رشدي كلما ذكرت والدك ويخونني دمعي
في جريانه فقد احتالوا عليه وقتلوه مسموماً وفجعوني به
(يتحب) .

كميل : « يتحب ويمسح دموعه بمنديل » .

لويجي : اعلم يا بني أنه بعدما دوخ أبوك الممالك المجاورة فعنت لسلطان
عمك وخضعت له والتمس منه ولاية بائي لتكون له ولك
من بعده فأجاب عمك ملتمساً ولما درى بذلك بريفارا وكاترين

سأهما الأمر وأكبراه لأن اللوكة كانت تطمع بنيل الملك
بعد عمك، وبريفارا كان يتهاك على تحقيق أطماعها ليستولي
معها على البلاد ووجدنا أن تملك أهلك ولاية بائي مقوضاً أبراج
أمانيهما وخافا أن يغتصب بعد وفاة عمك الملك لنفسه فسعي
في هلاكه فتسنى لهما ذلك عفواً .

- كميل : ويل لكاترين وبريفارا فإنهما سيلاقيان عذاباً أليماً .
- لويجي : استفد يا بني من هذه الحوادث فتعلم كيف تجتنب أعدائك
واحذر من مكائدهم .
- كميل : ولكني كنت أعلم أن بين أبي وبريفارا صداقة ومودة أبرما
حبلها أيام كانا يسيران معاً إلى الحروب والغزوات .
- لويجي : إن البلية لا تكون في الغالب إلا من الصديق، وأن أباك لو لم
ينخدع بمودة بريفارا لما استطاع ذلك الفاجر أن يغدر به .
- كميل : وكيف احتال لقتله ؟
- لويجي : كل ما عرفته أن بريفارا أعدّ لأبيك وليمة ودس له السم في
كأس الشراب وفي الغد وجد أباك ميتاً قبالة قصره .
- كميل : « بحدة وغضب » الويل لأولئك اللثام الذين قتلوا أبي ظلماً
وعدواناً؛ بحق تربة أجدادي ورب السماء لست بعائش ما لم
أجرع بريفارا اللثيم وكاترين الظالمة كأس السم التي تجرعها
أبي ولا يطيب لي عيش إذا لم أرهما يجودان بأنفاسهما الحبيثة .
أموت أبي وأنا قبل أن أنكل بقاتله تنكيلاً، لا ورب السماء .
- لويجي : سكن جأشك يا بني فليس هذا وقت التأثر واعلم أن جان ماريّا
كتب إلى فرجيني يطلب منها أن تدس لك السم حين تقدم
عليها وتوعدها إن هي خالفت .

كميل : أبحاول ذلك الغر الأحمق إلحاقى بأبي قبل الأخذ بالثأر . ثق
يا مؤدبي أنني ساموت كمدأ إن لم أظفر بقتل كاترين وبريفارا
ولاب وجان ولو لم أعد عمي بمباشرة الحرب لعدلت عنها
واشتغلت بهلاك هؤلاء .

لويجي : مهلاً يا بني فأنت لم تذق من الحياة إلا حلوها .

كميل : هل عرفت يا لويجي في أي يوم مات أبي وفي أي مكان ؟

لويجي : عرفت أن تلك الحادثة جرت في السادس عشر من أيار سنة
١٣٩٢ أما المكان فلا يعرفه غير خادم أبيك بطرس تولومي
الذي كان يصحبه في تلك الليلة المشؤومة .

كميل : وما الذي يقعدنا عن البحث عنه ، فهلمّ نقتش عنه .

لويجي : لا تتعب يا بني ، فقد فتشت عنه في كل مكان . وجل ما
توصلت إليه أن أباك كتب على التراب في المكان الذي وجد
فيه ميتاً هذه الكلمات : إن كاترين وبريفارا وجان ماريّاً
والأميرة لاب دسوا لي سماً فقتلت ، ولكن هذه الكتابة
بعثها رجل كان يتبعه من المكان الذي سُمّ فيه والظاهر أن
والدك قطعته الألم فحال دون وصوله إلى المنزل ، فخط على
التراب هذه الكلمات التي عاجله الموت قبل إتمامها .

كميل : آه والهفاه عليك يا أبي .

لويجي : لا تحزن يا بني ، فإن الحكيم يستخرج من كل مضرة نفعاً .
واعلم بأن الضر الذي تعمداه لك قد انقلب نفعاً عليك .

كميل : وكيف ذلك ؟

لويجي : ان كاترين وبريفارا قد تعمداه هلاكك في ترحيلك إلى الحرب ،
حرب فلورانس لتستريح الأولى مما يربها وينال الثاني

فرجيني . ولكن يستحيل عليه ذلك وأنت تعلم حب فرجيني لك وعدم احتمال إكراهها . سيما لما سمع ما كلمك به عمك في تلك الخلوة التي دعاك إليها ووعدك بشطر من المملكة فندم أشد الندم على ما فعل .

كميل : وهل سمعا ما كلمني به عمي ؟

لويجي : كما أنت سامع الآن ما أقول لك . ولو لم أرَ ذلك لما تركتك تذهب إلى فررانسا .

كميل : كان وقع بننسي أن أتخلف عن المسير إليها ولو ساء ذلك عمي حتى أبلغ أعدائي ما يرومون مني .

لويجي : لا يا بني . فإنك بذلك تغيظ عمك وتوغر صدره عليك فيشمت بك أعداؤك الذين . لولا خوفهم منه ، لما أبقوا عليك ساعة . فسر إلى هذه الحرب وابل البلاء الحسن . فإن بصحبتك جميع الرجال والأبطال الذين يحققون لك النصر . ومتى عدت ظافراً منصوراً يُرد كيد أعدائك في نحورهم وتستطيع أن تأخذ بثأر أبيك وتبر في اليمين الذي أقسمته وتصبح فرجيني عروساً لك . أما تسلق عرش ميلان أو الاستقلال بمملكة من ممالك لمبارديا فلا تطمع به يا بني ، فإنه يورثك الهم ولا تنال منه إلا الشقاء كسباً .

كميل : إني أسمع منك كلاماً يدلني على أنك تريد لي الذل والحمول وترمي إلى إخماد همي بما تقول مع أني لا أكم عنك بأني راغب في المعالي الخطيرة وطامع في الملك ومقاتل في سبيله جهدي فكيف تردعني عنه .

لويجي : إن هذا الأمر الذي ترجوه يجعل لأعدائك على نفسك سبيلاً ولا يعقبه إلا العناء والجهد .

كميل : إن الباتريسيين من أشياعي وأنصاري وهم الكفة الراجحة ،
والنصر معقود بشفرات سيوفهم .

لويجي : لا تعلق نفسك بالمحال يا بني ، واعلم بأن ظن الشيخ خير
من يقين الغلام . فأنا أكبر منك سناً وقد دربتني الحوادث
وراضني الزمان حتى عرفت من أحواله ما ساغ وغصص
وصحبت الملوك والملكات ولزمت إياك عمراً فأدركت أن
رأس الملوك والعظماء مستودع الجزع والهم وأن حياتهم ألعوبة
بأيدي الحوادث كبريشة في مهب الرياح . ولكن كفى الآن ،
تعال لأقبلك . انتظر قليلاً لأبعث فرجيني إلى مقابلتك وكن
ثابت الجأش في موقف الوداع « يخرج لويجي » .

المشهد الرابع

كميل : آهاً من الأيام فهي خثونةٌ لا ترحمن متيماً ولهانا
قد مزقت قلبي بأسهم غدرها فغدوت أندب والداً قد بانا
قتلوه ظلماً . يا لثام تنبهاها أن وقت الثأر منكم حانا

المشهد الخامس

كميل ، فرجيني

فرجيني : « تدخل » .

كميل : أهلاً بحبيبة القلب « بصافحها » عذراً فرجيني ، فقد أحرني
عنك شأن خطير أنيطت به سعادة المستقبل .

فرجيني : ما عهدتك قاسي القلب تطيق عني هذا الصبر وأنا أترقب قدومك .
كميل :

حبيبة القلب أنت اليوم مالكتي ولا برحت بأمر الحب تأتيني
حبيبة القلب رقي وارحمي دنفاً فإن حبك يا ذات السنا ديني
إن تقبليني كعبد في الهوى فأنا أرى التذلل للمحبوب يرضيني
نعم أيتها الحبيبة قد جئتكم طائفاً لغرامي .

فرجيني : أفبعد هذا البعد تأتيني مودعاً « تبكي » .

كميل : ما هذه الدموع يا عزيزتي . فأنا لا أطيق أن أراك باكية .

فرجيني : كيف لا أبكي ، بل كيف لا أندب سوء حظي إذا كنت

سائراً غداً إلى ساح المنايا حيث تباع الأرواح ببيع السماح .

كميل : سوف أعود ظافراً واقتبل من يدك إكليل الغار . فكفكفي
الدمع ودعيني أسير إلى فلورنسا قرير العين ناعم البال .

فرجيني : إذاً لا بد من الفراق . واسوء حظي أنا التاعسة فلا أتجاوز

عقبة من البلاء حتى أعاني أشد منها قائل مَ أصبر قلبي على
ما لا يطيق .

كميل : لا تضجني يا فرجيني ، فعقبى الحرب ملك واستقلال واجتماع

شمل لا ينصدع ، وسحق رؤوس أعداء شر من الأفاعي .

فرجيني : بل هي مفرقة بيني وبينك . فتباً للدهر إن لم أمت حزناً
متّ جزعاً .

كميل : إن خوفي ليس من الحرب ، بل من بريفارا أن يغتصبك لابنه

فرنسوى .

فرجيني : تباً له من أحقق مغرور .

كميل : إنني أخاف من خالتك كاترين وأخيك جان أن يحققا آمالهما
فأكون أنا في فلورانساً أصارع الموت وتكونين أنت راقلة
في الحرير ولاهية بالحبيب الجديد ، متشاغلة بأفراح العرس .

فرجيني : أهذا وداعك لي أم ذا دلال على قلبي ، أظنت القلوب تشرى
وتباع لمن يزيد الثمن ؟ فالتنجر أقرب إلى قلبي من يدي ،
أعطيها إلى سواك طوعاً أم كرهاً .

كميل : صدقت يا حبيبي فإن كاترين وجان وبريفارا لا يستطيعون
صرفك عني ما دمت حياً. ولكن سيسعون في هلاكه ويتوهمون
إنك توافقينهم إلى ما أرادوا . وهم الذين سعوا برحيلي إلى
فلورانساً .

فرجيني : إنهم يرومون مرماً بعيداً ، فإن عاندتني فيك الأيام أو عاجلك
القضاء حيث أنت ذاهب جعلت القبر لي عرساً وسبقتك
إليه لأزين لك مدخله « تبكي » .

كميل : امسحي هذه الدموع فإنها جمرات تحرق قلبي .

فرجيني : دعني يا كميل ، فإنني شعرت بويل خفي يتهددنا وأسمع
صوتاً خفياً يقول لي أن لا لقاء بعد هذا الاجتماع .

كميل : انه خوف وجزع .

فرجيني : ومن يلومني على جزعي ، وقد علمت أن أعداءك يأثمرون
عليك ، وجان ماريّاً الجاهل الذي لا أريد أن أدعوه أخي
يطلب مني ، بتحريز أرسله لي ، أن أدس لك السم حين
قدومك عليّ .

كميل : يا له من مجنون إنني ألتبس منك الكتاب .

فرجيني : لا أبجل به عليك « تهم بالخروج تتوقف » .

- كميل : ما بالك فرجيني .
- فرجيني : كميل كميل لا تسربلي العار فإني عرفت ما أنت عازم عليه .
- كميل : أي أمر رابك من التماس الكتاب ؟
- فرجيني : إنك تروم أن تدفعه إلى أبي لئيتقم لك من جان شر انتقام فإن أنا أجبته كنت الساعة إلى حتفه لأن عمل جان غلياس يحمله على قتل ابته وهذا فعل يطوقني العار .
- كميل : أي عار عليك في ذلك ؟
- فرجيني : إن عزة نفسي تكره أن يموت أخي أو أموت ويبقى من الناس من يقول أن فرجيني قد أعمى بصائرهما العشق . فغلب على عقلها . حتى جعلت دم أخيها ضحية حب حبيبها . وعهدي بك أن تمنعني عنه .
- كميل : لله درك يا حبيبي ما أشد مروءتك وتحوفك فقد رأيت رأبك وأعاهدك قسماً بحبك أن لا أتخذ الكتاب سبباً لضرره .
- فرجيني : أنا على ثقة منك (تخرج الكتاب وتوقعه قائلة) ها قد دفعت لك عدوك فاحرص عليه .
- كميل : « يأخذ ولا يجيب ثم يتمشيان في الحديقة ساكتين » .
- فرجيني : هلم نجلس يا كميل حيث كنا نجلس صغيرين . ما كنت أظن أننا سنبلغ إلى يوم يردعنا فيه الغرام ويعز بعده اللقاء .
- كميل : هذه أطوار الحياة يا فرجيني هلمي نجلس « يجلسان ساكتين هنيهة وترقرق اللموع منهما » .
- ضابط : « يدخل » سيدي نحن في انتظار أوامرنا .
- كميل : عد إلى القواد وقل لهم إنني على قدم الرحيل فليسروا بالهيش من هنا .

ضابط : « يخرج بعد التحية العسكرية » .
كميل : لقد دنت ساعة الفراق يا فرجيني . فتجلدي وكفكفي
دموعك وعبراتك .

فرجيني : هيهات يا كميل أن نلتقي بعد .

ذكر المساء يروعي إذ ينتأي فيه الحبيب فليته لم يخلق
لو ان كل الدهر ليل مقمر لمضى الزمان ونحن لم تفرق

كميل : آها من الفراق .

فرجيني : وما أمر الوداع يا كميل .

(نفير جيش) والجنود من الخارج يهتفون : فليعش الدوق
وليحيي كميل يدخل الجنود (غناء وراء الستار - ثم دقة
مارش العسكر) .

كميل : يخطب في الجيش :

أيها الشجعان ،

أنتم زاحفون اليوم إلى بلاد متمرده ، فاخمدوا بوابل نبالكم
وسيوفكم براكين أحقادهم الثائرة . واعلموا أن وطنكم
يبتظركم ويده اليسرى على قلبه وفي الأخرى أكاليل الغار
فحققوا ما علق عليكم من الآمال والبسوا أكاليل المجد الخالدة .
نحن أيها الإخوان سائرون لاقتبال الموت فإن غلبناه كنا من
أبناء المجد فهلموا بنا إلى المعركة التي تجعلنا من أبناء الخلود .
أنتم تحاربون اليوم لأجل حرية وطنكم وما قهر شعب استبسل
واستمات في سبيل الدفاع عن استقلاله بالأمر الهين ، فإلى
الكفاح . إلى الجلال . فإما الموت وإما الحياة .

فتقدموا نحو العراكِ كامةٍ تبدي الجهود لتدرك استقلالها
إن الشعوب يجندها ورجالها تحيا فكونوا في النزال رجالها
إن لم تفوزوا في الوغى استعبدتمُ فإلى الوغى واستحقروا أهوالها
صونوا بلادكم بجد سيوفكم واستبسوا كي تصلحوا أحوالها
إن التضاني اليوم في إنقاذها خير لنا من ندبنا أطلالها
إنا لنبغى النصر وهو لنا . إذن خوضوا الحروب وقطعوا أوصالها
قولوا الحياة لنا وأبطال الورى من حققت أفعالها أقوالها
فإلى الأمام إلى الأمام وناضلوا كي تظفروا إن كنتمُ أبطالها
حتى يردد كل ليث منكمُ فلتحيَ أوطاني لكي أحيأ لها
يردد الجيش ثلاث مرات : فلتحيَ أوطاني لكي أحيأ لها

« الستار »

الفصل الثاني

المشهد الاول

« في قصر ميلان »

« بريفارا جالس على متكأ من حرير مقطب الجبين ولاب
جالسة أمامه بغنج وعظمة » .

بريفارا : أتؤثرين إذا يا لاب الذل والحمول على الملك والسلطان .

لاب : وما الذي ترجوه مني يا سيدي بريفارا !

بريفارا : آواه ! أمحضها النصح ، وأهدبها أسهل سبل عرش الملكات ،
وتتجاهل سائلة عما أروم ، فيا للحماقة !

لاب : كفاني ما أقاسيه من عذاب الضمير ، أو لم تكن تلك الضحية
التي ضحيتها بيدي كافية لسلي صفو العيش حتى جئت
تسألني القيام بضحية جديدة أقطع منها !

بريفارا : يا لها من غرة ترفض النعمة وتستخف بالرأي السيد لمجرد
تذكار مضي .

لاب : يا سيدي بريفارا !

بريفارا : لا تدعيني سيدك ، فليست ممن تغرهم الألقاب . أتعجزين
عن إغراء أسيرك جان ماريًا ليدس السم لأبيه اللوق

فينصرف الملك إليه وتصبحين ملكة هذه البلاد، فليلة واحدة من صلودك تنيلك ما ترمين . ويجدر بك أن تخوفيه من كميل الذي سيغتصب الملك لنفسه وهذا أمر سينظلي عليه لما يعهده من ميل الدوق إليه وارتياحه إلى اقترانه بفرجيني .

لاب : نعم نعم سينظلي عليه ذلك « تنهد مطرقة » .

بريفارا : ألم يزل حب هذا الأحقق يهزّ فؤادك يا شقية .

لاب : (تنهد) واهاً يا بريفارا إني أسعى لقتل كميل ومن فرط حبي له قتلت أباه بيدي ظلماً إجابة لسؤالك وسؤال كاترين ولو لم يقابل حبي له بالحناء والبغض لضحيت لأجله الدوق وجان ماريّاً وروحي إذا شاء إلا أن بغضه حول حبي انتقاماً ومع ذلك لا يزال حباً فلا تلمني إذا هزّني وجددي به ومع محاولتي هلاكه .

بريفارا : آه النساء النساء ويلاه من أهواء النساء وويلاً لهذا الحب والحبيب الذي سيطالبك بدم أبيه : فإن لم يكن في قتله سوى راحتك من مطالبته بالثأر لكفى : فأوغري إذاً صدر حبيبك جان ماريّاً عليه ثم حبي إلي الملك وعزة السلطان وهوني عليه قتل أبيه الدوق وافهميه أن أباه قد سبقه إلى قتل عمه حتى تربّع في دست الملك .

لاب : يا له مشروعاً هائلاً وخيم العاقبة .

بريفارا : أيرهيك أمر يسمو بك إلى المكارم وقد باشرت قبله أموراً ترتاع لها الأفئدة لا فائدة لك منها ولا نفع .

لاب : لقد كنت واثقة من نجاح تلك ولكن من يضمن لي نجاح هذه؟

بريفارا : جمالك ودهاؤك يا لاب؛ أتجهلين مقامك بين ربّات الجمال فأنت شهابهنّ الساطع وبدرهنّ الطالع .

لاب : (معجبة) ان محاسني تتكفل بإغرائه ولكن أني له النجاح
وهو أكثر طيشاً من فراشة فلربما أخذ في الفخ وانكشف
السر فكيف أتصل من غائلة الأمر .

بريفارا : لا أسهل من نكران ما يعزى إليك .

لاب : ولكن كشف السر يؤدي بجان إلى الهلاك .

بريفارا : إنك تتيمنين أيتها المسكينة إذا مات فلا تجدين بعده عاشقاً .
قه قه قه . . . وينصرع فؤادك يا مخلصه الود . أوه أوه .
وتترملين يا بارونتي العزيزة . فما دامت لحاظك تتكفل بأسر
ألوف من القلوب فإن عاش أو مات على حد سوى .

لاب : هذه ضحية أشد هولاً من تلك .

بريفارا : إن الوصول إلى العرش يتطلب ركوب الأخطار فتاجري بحياة
جان ماريًا والقـ الدلو بين الدلاء فإن رجحت الصنعة نلت
السعادة وإن خسرت فلا أسف على حياة فتي لا أتوسم فيه
غير الشر ففي الحركة بركة .

لاب : « تفنكر » .

بريفارا : (على حدة) إن جان ماريًا يصيد وأنا آكل السمكة وحدي
فإن قتل أباه حولتُ الملك إلى كاترين وإن مات كان ذلك
غاية ما أتمنى فقد حاولت لأبعث به إلى حرب فلورنسا
فأبت فليحارب إذن أباه « ينظر إلى لاب » لم تزل غائصة في
بحر الأفكار « يقرب من لاب ويلمسها » أوطدت النفس على
إبرام الأمر ليتوج حيكما بتاج من ذهب .

لاب : نعم وطلتُ النفس ومن الغد أسعى إلى تحقيق هذا الأمر .

بريفارا : بورك فيك يا حبيبي لاب فجمال وجهك وألحاظك الفتانة

تدفع المرء إلى ارتشاف السم حباً بك أفلا يجرعه لغيره ليصبح
وإياك ملكاً ولنا فائدة أخرى وهي زفاف فرجيني إلى ولدي
فرنسوى بالرغم عن كل مكابر .

لاب : لم لا تطلب من جان إنجاز وعده .

بريفارا : لا أحمله ما لا يطيق فبعد هلاك كميل وقتل الدوق يتسنى لنا
كل شيء فالفوز منوط بنجاح سعيك .

لاب : طب نفساً أيها البارون فإنه يهمني إبعاد كميل عن فرجيني
بمقدار ما يطيب لك زفافها إلى فرنسوى فأنت تعالج داء
ولذلك وأنا أداوي داء غيرتي فكلانا في الهوى سوا .

الحاجب : (ينادي) قد أقبل مولاي الدوق جان ماريًا .

لاب : (تهم لاستقباله) .

بريفارا : (يمسكها قائلاً) حذار يا لاب أن يعلم الدوق أن لي يداً في
المؤامرة .

المشهد الثاني

جان ، لاب ، بريفارا

جان : (يدخل ولاب يبدأ بيبدا) « إلى بريفارا » لقد غادرتُ أمي
الدوقة تسأل عنك في البلاط أيها البارون ولم أعلم أنك
سبقتني إلى زيارة حبيبي لاب .

بريفارا : أقيمت لا ألوي على شيء لأحمل لها البشري وأخبرها أن نعمة
مولاي الدوق قد عدل عن أن يبعثك إلى حرب فلورنسا
فوجدتها باكية لعلمها أنك ستغادرها إلى ساحات القتال ولم

- أزل اسلي جأشها حتى طابت نفسها « يغمزها » .
- لاب : آه يا سيدي الدوق لقد أثر بي هذا الخبر حتى شعرت بأن نار الحرب مشبوبة في قلبي .
- جان : لو درى أبي أن بين قلبي وبين عينيك كل يوم حرباً عواناً لما عنّ له أن يبعثني إلى حرب فلورنسا .
- لاب : الحمد لله الذي لم يجرمني من طلعتك وأرسل كميل بهذه الحملة فأومل ان لا يفلت هذا العصفور من الشرك .
- جان : وهل يزاحم العصفور بازيا ؟
- بريفارا : هب انه أفلت فالذي سحق رأس الأفعى لا يعسر عليه قطع الذنب (يخرج) .
- جان : اقتربي مني يا حبيبي .
- لاب : (تعرض عنه)
- جان : ما هذا النفور ؟
- لاب : كيف لا أنفر وأنت قاعد عن أمورك لا تنظر إلى اكتساب المترلة الرفيعة فإنك تفضل البقاء محكوماً لا حاكماً فعلام لا تلقي عن منكيبك نير أبيك .
- جان : وكيف الوصول إلى ذلك ؟
- لاب : إذا قلبت صفحات التاريخ تجد أن الملك لم ينتقد لأحد عفواً فمن سعى رعى .
- جان : صرحي لم أفهم شيئاً .
- لاب : إن أباك يؤثر كميل عليك وقد وعده بالملك إن عاد منصوراً فتصبح إذ ذاك عرضة لانتقامه ليثأر لأبيه .

- جان : بحقك يا لآب دعينا من تلك التذكارات وقولي ماذا أصنع ؟
- لآب : إن أباك سجن عمه حتى قبض على ناصية الملك .
- جان : أسجن أبي ! إن دون ذلك أهوالاً .
- لآب : عش ذليلاً وتنعم بالحمول .
- جان : ويلاه ما العمل ؟
- لآب : إن لم تتمكن من سجنه فاقتله .
- جان : يا للفظاعة !!!
- لآب : يا للجبانة ويا للذل . عجل ودس له السم فإذا مات مسموماً فلا يؤاخذك أحد بقتله ولا يظن بك سوءاً فإن مثل هذه الحوادث كثيرة الوقوع في ميلان فتدارك أمرك لأنني ذائبة شوقاً إلى أن أراك جالساً على العرش فتقرّ بك عيناى وتصبح حاكماً وحاكم قلبي معاً وإن أبطأت قتلت ذاتي بهذا الخنجر .
- جان : لعينيك أفعل ما ترومين .
- بريفارا : « يظهر بين الكواليس ويقول : « لقد وقع في الفخ وصار الدوق على فراش الموت يكتب وصيته فهنيئاً لك يا بريفارا .

المشهد الثالث

بريفارا والذكورون

- بريفارا : سيدي ان والدك قد أصيب بأعراض الطاعون الذي تفشى في هذه البلاد وأفى العباد .
- جان : « بفرح ملتفتاً إلى لآب » .

بريفارا : إن الدوقة كاترين أخبرني بذلك أما الطبيب فقال لي أنه عارض وسيتقضي .

جان : ولعل ذلك ناشيء عن شدة فرحه بانتصار كميل فظفروه فشل وانتصاره شؤم علينا .

بريفارا : ستجني أنت ثم انتصاره ويصح المثل : هذا يصيد وهذا يأكل السمكة فلا أدعه يتجاوز سور ميلان .

جان : تلطف في الحيلة لئلا يداخل والذي سوء ظن بنا .

بريفارا : إن البلاد قد ملئت باللصوص فليتهم الدوق من أراد منهم وهب أنه ارتاب بنا فهل يؤخذ الفيل بمقتل الحوت والسمكة بمقتل جرد البرية والكل يعلم أن المهر قاتله .

جان : لقد وليتك أمر قتله فشأنك وما تريد واحذر الفشل .

بريفارا : لقد هيأت العدة وسأستعين عليه بلويس دليانو الذي أعده بابتي ميرفا إذا عاد منصوراً ظافراً ولا أطلب مكافأة غير إنجاز وعدك لولدي فرنسوى بزفاف فرجيني إليه .

جان : قسماً بلاب سأنجز وعدي ولتكن شاهدة عليّ .

لاب : طب نفساً فالدوق لا يخلف بوعدده .

المشهد الرابع

مرتيني والمذكورون

مرتيني : أدرك أباك يا سيدي فهو في نزاع اليم .

جان : « بعيد الصوت » في نزاع اليم !

- مرتيني : أواه يا سيدي . . . نازلة . فاجعة . اللوق مسموم .
- جان : (مدهوشاً) ويلك يا مرتيني خلّ عنك الخزع وقل ما أصاب أبي .
- مرتيني : قد عرض له عارض فجائي فأعيا الطبيب أمره فأسرع يا سيدي لعلك تدركه حياً .
- (صراخ عويل وضجة ثم يعقب ذلك سكوت) .
- أصوات : (من الخارج) مات اللوق . . . مات مسموماً .
- جان : (يحاول الخروج فلا يهتدي إلى الباب فتقرب منه لآب وتهمس في أذنه بعض كلمات تيرق لها أسرة جيبته ويخرج ويتبعه بريفارا) .
- بريفارا : لقد تمّ الفوز .
- لآب : ويحك أيها الخائن .

المشهد الخامس

لآب وحدها

أواه من الدهر ووبلاه من مستقبلي المظلم كيف حولت نظري لا أرى إلاّ حيات وأشباحاً تتهددني . . . بيكتني ضميري على جريمتي الهائلة على قتل اللوق كارلوس . أمثل جان ماريًا يتقلد أزمة الأحكام . . . آهأ منك يا بريفارا يا رجل اللؤم والخذاع . . . إنني أحبك يا كميل وأنت تقابل حيي بالإعراض والبقاء فذق إذا طعم انتقامي (فلاّ تجرعن) كأس الجرائم حتى الثمالة .

المشهد السادس

لاب وميرفا

- ميرفا : (مدهوشة) ما هذه الفاجعة لقد مات الدوق .
لاب : أعاضنا الله عنه بطول بقائك .
ميرفا : مسكين الدوق يقال انه مات مسموماً .
لاب : بل أظنه مات مطعوناً .
ميرفا : كيف كان الأمر فهو قد مات ولكن إلى من ينتهي العرش .
لاب : إلى كاترين وجان ماريًا .
ميرفا : (على حدة) آه سينتقمون من رويير وكميل (إلى لاب)
شكراً إذاً يا مليكتي العتيبة .
لاب : اسمع وطء أقدام .
ميرفا : أظن أبي مقبلاً (تخرج بعجلة) .

المشهد السابع

بريفارا ، كاترين ، جان ، لاب

(يدخلون)

- لاب : (تستقبلهم باضطراب) .
جان : (ينظر إليها نظرة خفية تعرب عن فرح داخلي) .
كاترين : تجلس وتتنفس ثم تقول :
قد مات الدوق يا بريفارا ومن مات هيهات أن يعود، فلتفرغ

لشأننا ونتدارك الحوادث قبل وقوعها .

بريفارا : تكلمي يا سيدتي فما من أحد يسمعنا

كاترين : لقد شاع خبر الدوق وأخاف أن يبلغ كميل فيزحف علينا
بجنوده ويوقعنا في شر ورطة فهات رأيك في هلاكه . أما قلت
لي بالأمس أنك واجد حيلة تهلكه بها ؟

ميرفا : — من بين الستائر — آه من هؤلاء الأفاعي .

بريفارا : (يفكر ثم يجيب) نعم . دلبانو يقتله .

جان : انه وحده خليق أن يصرعه فالخيلة أعظم من القوة، فسوف
يتقدمه من فلورنسا ويقتله مع أصحابه وهم على الطريق .

ميرفا : يا للأشرار .

كاترين : إن كان ذلك رأيك فعجل .

بريفارا : انعمي بالأى يا سيدتي فسألحقه بعمه كيلا يشق عليه فراقه .

« يجلس على مكتب ويكتب وجان وكاترين يحيطان به ليطلما
على ما يكتب أما هو فيقرأ » :

يا ولدي الحبيب :

إذا وصل كتابي إليك فعجل بالقدم ومن معك من أصحاب
فإن في ذلك مصلحة المملكة واعهد بأمره الحرب إلى روبر
ورودريك . عد بأسرع ما استطعت فميلان ستأهب لاستقبالك
كما استقبلت من قبلك أباك وأجدادك المنتصرين .

جان غلياس

بريفارا : أمهريه بطابع المملكة

- كاترين : — تمهر قائلةً — : لقد عهدت إليك بهذه المهمة الخطيرة
فحقق ظني فيك « تخرج » .
- بريفارا : (يلق جرساً) .
- دلبانو : (يدخل) .
- ميرفا : لقد أقبل الشيطان .
- بريفارا : لقد انتخبتك لأمر لم أجد له كفوّاً سواك فحقق ظني بك
لأتباهى بك أمام الدوقة كاترين .
- دلبانو : مرني بقتل نفسي أفعل .
- بريفارا : لا حاجة لي بنفسك إنما حاجتي أن تورد أعداءنا موارد الهلكة .
- دلبانو : إني عامل ما أمرتني به فلو كلفتني الفتك بإبليس وجنوده
لفعلت .
- بريفارا : أنا لا أكلفك قتال الأبالسة والجنود ولكن قتل كميل وأصحابه .
- ميرفا : خستم يا كلاب السوق .
- دلبانو : أليسوا في فلورنسا جميعاً .
- بريفارا : أجل ولكن الثعالب لها أنصار بين المنازل والقصور خذ واقرأ
بأية حيلة عنّي لي استقدامهم « يدفع إليه التحرير » .
- دلبانو : « يقرأ ثم يصيح » فهمت فهمت فالنعاج لا تخطفها الذئاب
من الحظيرة بل من المراعي على غفلة من الرعاة والكلاب .
- بريفارا : أسرع إذن وارسل الكتاب صحبة رجل ماهر في الدهاء وليلبس
ثوب حاجب وإذا سأله كميل عن عمه الدوق فليقل له انه في
انتظاره على أحرّ من الجمر ومتى أقبلوا إلى ميلان فاجتثهم
عند البرج المسحور ونكل بهم أشد تنكيل وافنهم عن آخرهم .

- ميرفا : يا للفضاعة البربرية ، هلك روبر .
 دلبانو : فليكن كما أمرت .
 بريفارا : واعلم أيها العزيز دلبانو أنني عاهدت نفسي أن أعقد لك على
 ميرفا فتتزوجها إذا عدت ظافراً .
 ميرفا : الموت والقبر ولا الاجتماع بك يا سافك دم الأبرياء .
 دلبانو : قد رضيت بهذا العقد وستأتيك الأخبار .
 بريفارا : حقق الله الأمل فلنسرع (يخرجان) .

المشهد الثامن

ميرفا وحدها

- ميرفا : آه من الطغاة انهم يسعون في قتل كميل وأصحابه . قبح الله
 وجهك يا بريفارا في كل يوم تركب مركباً خشناً ، أفي كل
 يوم دم ذكي يهرق؟! وبلي سيقتل روبر ويذهب ضحية
 الغادرين ، ضحية دلبانو ذلك الوحش الضاري وسيقضي
 على كميل ذلك الأمير الشريف . والوعتاه على مجده وشبابه .
 والحقني عليك يا فرجيني . رباه ماذا أصنع فلأنتصرن للفضيلة
 وأحبط مساعي والدي القاسي الذي نصب الشرك لكميل
 وروبر وبذلك أنخدم الفضيلة والمجد ويعلم الظالمون أي منقلب
 ينقلبون . فلاسرعن الآن وأبعث رسولاً إلى روبر وأخبره
 بالثأمر ليتدارك الخطر قبل الوقوع به « يقرع الجرس حزناً »
 آه لقد ذاب فؤادي واقشعر بدني ، آه من صولة الموت ،
 رحمك الله أيها الدوق لقد مت مسموماً ، أحبط الله مساعي
 الخائنين فعلى الباغي تدور الدوائر .

الفصل الثالث

في مغاور الجن

المشهد الاول

في السجن

رنارو ، طومازو

رنارو : آه ما أصعب الحكم يا طومازووما أتعب العيشة في مغاور الجن . نعم أنا والمملك شبيهان؛ كلانا تحت أمرته جند وأعوان فالناس يلقبوني بصاحب الدولة والشوكة .

طومازو : وأنا بكل احترام واعتبار يا صاحب «الجلال» .

رنارو : ولكن الأشغال قد أضعفت جسمي ولم تبق غير اللحم والعظم.

طومازو : حتى صرت مثل الخنزير المعلوف .

رنارو : ماذا تقول ؟ (يهجم عليه) .

طومازو : قلت يا صاحب الجلال يلزم نعمتكم خنزير معلوف ليعيد إليك قواك .

رنارو : صدقت. هل أحضرت الطعام للمسجونين ودفتر المصارفات؟

طومازو : نعم مولاي .

- رنارو : أضيف عليه إذن ٣٠ غرشاً على المسجونين و ٦٠ على الحراس
و ١٠ على الطبيب فكم يكون المجموع في هذا الأسبوع .
- طومازو : ٣٠ و ٦٠ و ١٠ - ١٠٠ غرش يا مولاي .
- رنارو : مائة غرش فقط ٣٠ و ٦٠ و ١٠ - ٣٠ و ٦٠ و ٤٠ غرشاً
يا ذكي .
- طومازو : مولاي !
- رنارو : أسكت واكتب ما قلت لك هات الدفتر و اذهب و آتني بكاس
من الخمر .
- طومازو : (يخرج) .
- رنارو : ما أصعب الحساب و خصوصاً مسك الدفاتر أي حساب الدوبيا
(يشتغل بالكتابة) .
- طومازو : (وهو داخل و بيده الكأس) حساب الدواب (يلطمه برأسه
قائلاً) خذ واشرب .
- رنارو : أهكذا تخاطب ولي نعمتك (ويصفعه فتسقط الكأس ويسقط
طومازو و فوقه رنارو) .
- طومازو : قتلتني قتلتني .
- رنارو : إني أعلمك الآداب (ينهض) أين الكأس ؟
- طومازو : لا يعرف غير الشرب و الضرب . الكاس على الأرض يا صاحب
الجلال .
- رنارو : من سعى على رجله رعى خذ الطعام إلى السجين وأنا أتولى
بنفسي أمر بطي .
- طومازو : عجل فالبرميل في انتظارك . شبيه الشيء منجذب إليه .

المشهد الثاني

كميل وحده

كميل : طالع النحاس صادفني ، والخير والهناء رحلا عني . رباه .
رباه . رحمتك وعدلك أي ذنب فعلت ضد ذلك المولى الذي
لم يدعني أسرع الطرف في نعيم هذه الدنيا حتى طرحني في
بحر زاخر من الهموم لم أر له شاطئاً . إلهي ارحمني واتقذني
من مغاور الجنّ المفزعة .

المشهد الثالث

« يدخل طومازو ويبيده الطعام يقدمه لكميل »

طومازو : عفواً أيها الضيف الكريم إذا لم تقم بواجب نعمتك فهذا
أفضل طعام عندنا .

كميل : (لا يجيب) .

طومازو : (يهر كفيه قائلاً) أتلف له في الحديث فلا يرد عليّ جواباً
ولكن سوف يأتي يوم وهو قريب يكلمني بأمره فلا أجيبه
ليعلم هذا الغبي أنه في مغاور الجنّ لا في قصره حتى لا يتنازل
إلى الكلام مع فقير مثلي (يهر بالخروج) .

كميل : (يمسكه) ناشدتك الله يا طومازو .

طومازو : إن طعامنا لم يحز من ذوق الأمير قبولاً ولا عجب فقد تعود
أن يأكل أشهى الطعام .

- كميل : بربك يا طومازو .
- طومازو : (بهم بالخروج) .
- كميل : (يمسه بلطف قائلاً) بعيشك أين سجنتم رفيقي رودريك؟
- طومازو : بربك في مغاور مثل هذه لأننا قوم نحب المساواة والإخاء أما إذا أساء المسجون إلينا أو مسه طيف نهبط به إلى الهل .
- كميل : الهل .
- طومازو : نعم الهل وما أدراك ما الهل مغارة في أعماق الأرض لا يقيم فيها المرء يومين حتى يذوق حتفه فاسأل الله أن لا يريكها أما رفيقك فلا بد من أن يزورها لأنه لم يزل هائجاً ولسوف يختل عقله .
- كميل : آه وهل جنّ رودريك .
- طومازو : ليس الجنون بعيداً عنه ولا بد أن نهبط إلى بل الهل .
- كميل : أحكم علينا أن نسجن في هذه القبور إلى ما شاء الله من الزمان .
- طومازو : نعم نعم إنك ستبقى عندنا بقية العمر فليس أحد يسجن في مغاور الجن ويعود فيرى ضوء النهار فأنصح لك أن تتناول ما آتيتك به من الطعام لئلا تموت جوعاً .
- كميل : وهل عرفت بأمر من سجنتم مع رفيقي رودريك .
- طومازو : بأمر الدوقة كاترين وجان ماريًا حاكم البلاد .
- كميل (بحيرة) جان ماريًا حاكم البلاد إنك لا تدري ما تقول أيها السجنان إنك تجهد أن الدوق جان غلياس هو حاكم البلاد وسلطانها .
- طومازو : إن الدوق العظيم مات من أربعة أيام وخلفه في الملك ابنه سيدي جان ماريًا وأمه كاترين وصية عليه .

- كميل : (ينهض مذعوراً) والدوق جان غلياس قد مات ؟
 طومازو : لقد أصيب بالطاعون فمات فجأة .
 كميل (يتظاهر بالجنون) .
 طومازو : يا مسكين ولعله جن أيضاً فلأذهب وانظر ما حلّ بضيفنا
 الثاني (يخرج) .

المشهد الرابع

طومازو ، رودريك

- طومازو : (يفتح غرفة رودريك فيراه جالساً في زاوية كالمجنون) .
 طومازو : هل عهدتني ميلان طيباً للمجانين .
 رودريك : (يثب عليه ويقبض بعنف على ذراعيه) .
 طومازو : (يصرخ من الألم) .
 رودريك : مهلاً أيها الشقي وقل لي أين وضعت الأمير .
 طومازو : في مغارة نظير هذه وماذا تريد .
 رودريك : أريد إطلاق نفسي لأنجو من هذا المكان .
 طومازو : هذا لا يعنيني فدعني وشأني .
 رودريك : لا أدعك تذهب حتى تهول لي متى تطلقني من سجنني .
 طومازو : إنك تكون ضيفنا إلى ما شاء الله .
 رودريك : إنكم تطلقون سبيلي فإن لي حبيبة ترقب عودي إليها .
 طومازو : « يهرب » ستجتمع بها في عالم الأموات أيها الأحمق « بنفسه »

يا له من جنون قاضح انه يريد الاجتماع بالأحباب بعد ولوجه
مغاور الجن .

رودريك : ويل " ثم ويل لي فلو علمت أنني سأنفصل عن الأمير كميل
وانقطع عن حبيبتي نياتراً لما رضيت بهذه الحياة « يرقد » .

المشهد الخامس

كميل وحده

كميل : « يستفيق من غيبوبته » ويل لي أنا الشقي فإني سأقيم في هذا
القبر المظلم عمري كله . مات عمي الدوق وصرت ذليلاً
قد كنت أحدث نفسي بأخذ الثأر من كاترين وبريفارا وجان
ماريّا والأميرة لاب ولكنهم شعروا فغدروا بي بعد أن
فصلوني عن الجيش مخافة أن أزحف عليهم وقتلوا أصحابي
الذين كنت أذخرهم لخير الشدائد لأصبح فريداً وحيداً لا عون
ولا نصير لي - وأنت يا فرجيني يا بهجة الحياة هيهات أن
تري وجه محبك كميل بعد فابكيه حياً وميتاً لأنه قد حكم عليّ
أن أسجن في مغارة تكتنفها الظلمة لا يبصر منها النور ولا
يستنشق فيها الهواء . يا كميل لقد تحرمتك بوائق الدهر ونزلت
بك المحن فما أنت فاعل بعد هذا .

قيداً أكابده وسجنٌ ضيقٌ رباه شاب من الهموم المفرقُ
إن لم يكن فرجٌ فموت عاجلٌ إن الحمام من البلية أخلقُ

المشهد السادس

كميل ، رنارو

- رنارو : « يدخل » سيدي هل لك أن تعهد إليّ بـسرك وتبلغني وصيتك قبل أن تفارق الدنيا .
- كميل : ناشدتك الله مظلوم أنا يا رنارو إن كاترين وبريفارا وجان ماريًا هم :
- رنارو : يقاطعه صه واحذر أن تذكر أحداً من الأسرة المالكة أو تفشو سرّاً من أسرارهم فكلمة واحدة ترديك ورب صيحة تذبح اللديك فاسكت وارفق بنفسك واصرف ساعاتك الباقية في الهدوء لأن التقرير أنجز فلا تكلفني أن أزيد عليه حرفاً .
- كميل : إنك تراني الآن ذليلاً معقر الخد واهي القوى كعصفورة في يد طفل يهينها ولكنك إذا أطلقت لي جناحيّ تراني رجلاً تخضع لمبارديا لقدرته ويوليك أمرها .
- رنارو : (بتهكم) إنك من أجل هذا سجنت يا مملكي على لمبارديا ومجلسي على عرشها .
- كميل : أتسخر بي يا رنارو .
- رنارو : أنت تسخر بنفسك على ما أرى .
- كميل : هل لك أن تطلق سبيلي .
- رنارو : إنك مجنون وهل تريد أن أنزل إلى قبري قبل الأوان . لا فإني أحب الحياة كثيراً لا أكل كثيراً وأشرب خمراً كثيراً .
- كميل : لي حاجة أتمسها منك فاسعني بها .

- رنارو : لا تلتبس مني شيئاً ودعني منك .
- كميل : مهلاً يا رنارو .
- رنارو : لا أريد أن أفهم ولا أسمع ولا أجيب ولا أتكلم .
- كميل : إن كنت لا تجود بإطلاق أسري أتبخل عليّ بسراج فلا أحب أن أموت دون أن أزود عيبي من النور وأنا قد هيأت لك هذه .
- رنارو : (يقاطعه) لا أسمع بشيء أبداً أبداً .
- كميل : قد هيأت لك هذه الجائزة (يخرج خاتماً ويريه لرنارو) .
- رنارو : (ينظر إلى الخاتم مدهوشاً) أنت يا مولاي أمير كريم من الأسرة المالكة والنظام يجيز لي أن أخصك بما تريد وكل شيء تطلبه ليس إلا واجبات مقدسة .
- كميل : هذا تذكاري وخاتم ثمين ورثته من أمي فخذها يا رنارو وتذكر كميل في مستقبل الأيام (يدفعه إليه) .
- رنارو : (يلتقطه بلهفة) لا أريد أن أحرملك من تذكاري حفظته من والدتك ولكني أحفظه لك عندي .
- كميل : (ينتفض من الحمى ويرتمي في غيبوبة) النار . آه فرجيني قد غرقت في لجة النار .
- رنارو : مالي ولكل هذا . الخاتم أحسن لي من الجميع فلا غتم هذه الفرصة وأذهب (يخرج) .

المشهد السابع

كميل ، والصوت

كميل : (ينهض من إغمائه) ما أمرّ الحياة ، حياة السجن والذل . ماذا أصنع لأتخلص من هذه الحياة الثقيلة فالانتحار خير وسيلة فلأمت ولألحق بأمي وأبي وأصحابي وتلحق بي فرجيني فنجتمع هناك .

ألا موتٌ يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه

الصوت : وبعد الموت ماذا يحل بك أيها المتحرر ؟

كميل : - يقف مذعوراً ويلتفت فلا يرى أحداً - ويلاه إن الجن تخاطبني فلانتحرن وأتخلص منها .

الصوت : إن الانتحار إهانة للأرض والسماء .

كميل : - يرتعد ويغطي وجهه ثم يصيح من الجزع - من المتكلم ؟

الصوت : من المتحرر ؟

كميل : (لا يجيب ويظهر عليه الخوف الشديد) .

الصوت : قل قل ولا تخف .

كميل : مسجون .

الصوت : أنا أعلم إنك مسجون فمن أنت ؟

كميل : أنا كميل بن كارلوس ويسكونتي .

الصوت : أنت كميل بن كارلوس . أواه (تنهدات عميقة وسكون) .

كميل : هيهات لا صوت ولكن هو الوهم . هو الوهم .

- الصوت : أنت ابن كارلوس سيدي .
- كميل : أنت من أنت أيها الرجل أجنبي ؟
- الصوت : أنا بطرس صاحب أهلك .
- كميل : يا للغدر . أنت بطرس الذي صحب أبي ليلة غدرت به
كاترين وبريفارا في قصر لاب .
- الصوت : نعم . نعم . وسجنوني كي لا أبوح بإثمهم الفظيع .
- كميل : ماذا أصنع لأراك .
- الصوت : هيهات فذلك محال « وقع أقدام » .
- كميل : اسكت فإني أسمع وقع أقدام « ينقطع الصوت » .
(يدخل طومازو) .
- طومازو : سلام يا سيدي الأمير .
- كميل : إن في زيارتك الحارقة العادة لسراً .
- طومازو : هو ما تقول يا سيدي فما وراء هذه الزيارة إلا الراحة والهناء .
- كميل : الراحة والنجاة إني لم أسمع منك هذه البشري .
- طومازو : بل السعادة التي يحن ويتوق إليها من كان مثلك إن أجبتي
إلى ما أريد .
- كميل : أ إلى طاعتي موكولة سعادتي .
- طومازو : هي أجلب للخيرات إليك وبها قوام أمرك وصلاح شأنك .
- كميل : إن سعادة السجين إطلاق سراحه فهل ستخلي سبيلي :
- طومازو : نعم فلهذه الغاية أتيتك الآن .
- كميل : لقد أفعمت قلبي سروراً يا طومازو فأفصح عن مرامك .

طومازو : لا أطيل عليك مدة الحيرة ولا ألبس عليك الأمر فإن من
الخنظل نجني العسل .

كميل : أظهر ما عندك من الحقيقة وبين لي الأمر .

طومازو : لا أكتمك أنه قد ورد بالأمس على الرئيس رينارو أمرٌ من
مولاي الدوق جان ماريًا بقتلك .

كميل : قتلي أنا ؟

طومازو : لا تجزع أيها الأمير ودعني أتم حديثي . لأن رينارو قد ساءه
هذا الحكم وتبين ظلم أعدائك فأخذته الشفقة عليك فحاول
أن يرفع عنك الشر والأذى وبعد شحذ الرأي اتفقنا أن نحمل
إليك عوضاً عن السم عصيراً مغيباً إذا شربته غبت عن الوجود
وأصبحت كالميت لا حراك بك فأتولى حملك لأدفنك على
مرأى من الجماعة ومتى أصبحت خارج الحصن عمدت إلى
إيقاظك من غيبوبتك بدواء آخر هيأته لك وأطلقت لك السبيل .

كميل : أحقيق ما تقول يا طومازو .

طومازو : لا شيء يلبثني إلى أن أسوق إليك هذا الحديث الطويل لو لم
يكن لرئيس الحراس رغبة في إنقاذك وأنت تعلم أن لا شيء
يؤخرني عن الإيقاع بك .

كميل : إذا قرنت قولك بالفعل يا طومازو فأني أعطيك مالاً جزيلاً
وأصلك بما عندي من أصناف الكنوز والذخائر الكريمة .

طومازو : تعاهدني متى نجوت من محبسك تهىء لنا من الأموال ما نصبح
فيه في سعة وغنى عن الخدمة والبقاء في هذا المكان .

كميل : إنك ستضع معروفك موضعه وتراني أوفى الناس ذمة وأشكلهم
للمعروف وأقوم بما وعدتك به فهات الإناء الذي فيه ذلك

الشراب العجيب (يعطيه السم . يأخذ الكأس ويضعه على فمه
فيسمع ضرب مطارق قوية فيجسد) .

طومازو : أرى أن الوهم قد غلب عليك فتشجع واعلم أن في فوات
الفرصة فساد الأمر وسوء التدبير فاشرب سريعاً .

كميل : (يرفع الزجاجات ليضعها على شفثيه ويهم أن يشرب فيسمع
طرق مطارق أشد من الأول) ثم يقول لطومازو - أعطني
شربة ماء (يخرج طومازو) .

الصوت : مولاي مهلاً ولا تشرب ما في التارورة التي أعطاك إياها
السحان . فإن فيها سمّاً رعاءً .

كميل : أنا مائت لا محاله فإذا تمنعت عن الشرب يقتلني دون شك فإن
كان سمّاً خفض عني وطأة الموت وإن كان كما قال السحان
نجوت بلا ريب .

اصوت : حذار حذار يا مولاي وارحم صباك واشفق على نفسك .

كميل : ليس لي حاجة في نفسي والموت عندي خير من الحياة فإنه
جامعي بأبي وأمي واخواني الذين قضوا محبهم قبلي... أستودعك
الله أيها الرجل الأمين الوفي فقد كنت تبكي أباً وعن قليل
سبكي ولداً مات ساخطاً فانطأ كأبيه. أستودعك الله أيها الوطن
العزيز. أستودعك الله يا فرجيني يا حبيبة القلب (يضع كأس
الشراب على فمه فيفتح باب مغارته فجأة ويظهر روبر ووراءه
رودريك) يا طيف حبيبي روبر هل تحث تصحب إلى
مقر كروحي .

روبر : مهلاً مهلاً عليّ (روبر يأخذ الكأس من يد كميل) مهلاً
أنا روبر ما برحت حياً أرزق . النحاة يا كميل فالأخطار

محيطة بنا (كميل بانهاال وحيرة) .

كميل : ماذا أرى ؟ روبر حي في مغاور الجن ورودريك حرّ طليق .
أين أنا وأين طومازو وما عساه جرى .

رودريك : أنج يا مولاي قبل أن يدركنا الحراس ولا تسأل عما جرى
(يخرجون) .

الصوت : مولاي ! يا سيدي الأمير ! قد نسيتني ! مولاي كميل أنقذني

كميل : انقذوا الشيخ صاحب أبي الأمين بطرس .

روبر : إليك عن سواك وانج بنفسك .

كميل : أستحلفكما انتشلا الرجل الذي يناديني من بطن الأرض .

رودريك : إننا نجهل عدد أبواب مغارته .

الصوت : سبعة . سبعة .

روبر : (يفتش فيرى المفتاح ويفتح باب الهل ويمد له يده فيخرج
الشيخ بطرس) .

جميعهم هبوا بنا . الفرار الفرار (يخرجون مهولين)
فيلتقون بطومازو فيعرضهم فيرفسه روبر فيقع على الأرض
مغمى عليه .

المشهد السابع

رنارو وحده

رنارو : ما هذه الضوضاء (يسرع إلى غرفة كميل) آه لا أراه .
طومازو ! . طومازو .

- طومازو : (يثن أئيناً جارحاً) .
- رنارو : ما هذا الأئين (يتقدم إلى غرفة ردرىك) ما هذا ؟ طومازو !
ويحك ماذا جرى .
- طومازو : (بصوت متلعثم) فروا نجوا الأمير نجوا كلهم (يدخل الجنود)
- رنارو : سلاحكم أيها الجنود ! إلقوا الفارين .
- الجنود : السلاح السلاح (يخرجون بضجيج) .
- رنارو : ويلاه بشس المصير .
- تنبيه : « يجب أن يكون السجن مؤلفاً من غرفتين تفتحان على المسرح في إحداهما روبر ورودرىك وفي الثانية كميل وبطرس في الهل وهو غرفة في قعر المسرح . ورنارو وطومازو وأتباعهما يروحون ويحيثون على المسرح أمام السجن .

« الستار »

الفصل الرابع

المنظر الأول

في سجن كاترين

المشهد الأول

هوراس وحده

هوراس : أواه من الدهر كيف يذلل العظام ويتوض أركان العروش .
كاترين دوقة ميلان مطالبة بأمرها أصبحت اليوم في أعماق
هذا السجن رهن البلاء والشقاء نعم . نعم . فمن فعل سيئة فلا
يُجزى إلاّ بمثلها والغادر مأخوذ بغدره فأبي جرم لم تقترفه
هذه الدوقة الشقية . . . أما قتلت كميل وجميع مريديه ألم
تشو رعيتها على النار .

كاترين : (من الداخل) آه . آه .

هوراس : هذا قليل : هذا قليل يا فاجرة : آه من الظلم وويل البغاة.

المشهد الثاني

كميل وحده

كميل : (يدخل) سلامٌ يا سيدي القائد « يدفع إليه الكتاب » .

- هوراس : (يأخذه ويتلوه - ثم يقول) من الرجل .
- كميل : من حجاب سيدي الدوق جان ماريًا - حملت هذا الكتاب إليك لأتولى قتل الدوقة كاترين بنفسي .
- هوراس : أوليس عندنا من يقوم بهذا العمل حتى تكلف نفسك به .
- كميل : لم آت إليك يا سيدي إلا لألتمس منك هذه الحاجة وأمضي بهذه الظلمة أمر مولاي الدوق لأثار بدم أبي .
- هوراس : أو هي التي قتلت أباك أيها الحاجب .
- كميل : أجل هي بعينها احتالت عليه وسقته السم وقتلت الكثيرين من أصحابي فلا تمنع عني ما أتوسل به إليك .
- هوراس : لقد توسمت في وجهك أيها الحاجب ملامح قريبة الشبه من أكرم أصحابي فمن هو أبوك ؟
- كميل : إن أبي كان رأس حجاب الدوقة وقد قتله لذنوب لا يستحق العقاب فأليت أن أثار منها بدمه فما برحت أجس الأخبار حتى عرفت أن ابنها يأتمر بقتلها فأطرفت رأس الحجاب بالمال حتى سمح لي بحمل هذه الرسالة إليك وأنا مستبشر بقضاء حاجتي وقد حملت منيتها في جيبتي « يريه قارورة السم » .
- هوراس : أمن ميلان آت أنت ؟
- كميل : لا ياسيدي ولكنني مررت بمغاور الجن أولاً وحملت إليك رنارو أمراً من جان ماريًا بقتل الأمير كميل ويسكونتي .
- هوراس : الأمير كميل ؟ ويسكونتي ؟ إنك تخلط السواد بالبياض فالأمير كميل ويسكونتي قد مات عندما كان عائداً من فلورنسا .

- كميل : لا يا سيدي فهو سجين بمغاور الجن والشائع انه قد قُتل .
- هوراس : « تغرورق عيناه بالدموع » آه لو عرفت قبل اليوم بسجنه
لكنت سعت جهدي في سبيل نجاته ولو هلكت فهو ابن أعز
أصدقائي فقد صحبت أباه في الحروب والغزوات ولا تعجب
إذا أطلت النظر فيك فإنك تحاكيه صورة .
- كميل : لا عجب فر بما يريكه الله بمعجزة .
- هوراس : هيهات لقد هلك لا محالة .
- كميل : ليس عند الله أمر عسير فزدي نظراً تعلم إن كنت أنا ابن
صديقك كارلوس .
- هوراس : كميل : « يعانقه » ما أحلى هذا اللقاء ولكن كيف اتصل
بك هذا الأمر وكيف جئت إلى هذا المكان .
- كميل : أما النجاة فسأحدثك عنها بعد مقتل كاترين لأن شرحها طويل
وأما الكتاب فقد اختلسه روبر من رسول الدوق جان إلى
رنارو رأس حجاب مغاور الجن وبسعي هذين الصديقين
قد نجوت أما الآن فلنعجل بقتل كاترين .

المشهد الثالث

كميل . كاترين (كاترين جالسة مسدولة الشعر)

- كاترين : آه من جان ولدي العقوق وألف آه من بريفارا اللثيم الغادر
- كميل : « يقف في الباب صامتاً مندهشاً » .

- كاترين : من أنت ؟ وما حاجتك يا رجل ؟
- كميل : أنا حاجب مولاي الدوق جان ماريًا .
- كاترين : قبّح الله مولاك .
- كميل : بعثني بأمر أنت المراد به .
- كاترين : هل من بشرى عذبة تطيب بها نفسي ؟
- كميل : بالعكس .
- كاترين : إذن ماذا ؟
- كميل : لم يرسلني إلاّ مأموراً بقتلك وقد جئتكم نذيراً ولو شق عليك ذلك .
- كاترين : « ترتجف » قتلي ؟
- كميل : نعم قتلك فإذا كان لك وصية ترومين أن تكلفيني بها فاجعليني مستودع سرّك قبل تنفيذ الحكم .
- كاترين : « تنهض بغضب » ألم يكفه سجنني ! ألم يقنع بالملك الذي استخلفه من بعدي حتى ضن عليّ بالحياة فلتلعه السماء والأرض وليمت قتيلاً من يد أعدائه « تسقط مغشياً عليها وتمزق ثوبها » .
- كميل : هذا مصير الظالمين . إتعظي يا نفس بمرأى هذه الدوقة الطاغية فلنسقها السم على غفلة منها « يصبّ السم في كأس ويجرعها إياه ويتراجع مرتجفاً » .
- كاترين : « تتبه وتجلس ناظرة إلى كميل » إني أراك أيها الفتى كريماً فاشفق عليّ .

- كميل : هذا كلام لا يفيد .
- كاترين : لي حاجة إن أسعفتني بها أعطيك كل مالي .
- كميل : « باستخفاف » وأي حاجة لك .
- كاترين : أن تعود بكتاب مني لولدي جان .
- كميل : لقد أمر بقتلك ولن يعود عما أمر : كاترين : كاترين : لم يعد في الحياة مطمع فاستغفري الله عن آثامك وتوبي إليه انه تواب رحيم .
- كاترين : أتجرؤ مع صغر شأنك أن تستقبلي بهذا الكلام ؟ فاخرج ودعي .
- كميل : لا خلاص لك ولا رجاء فاندمي على خطاياك .
- كاترين : إني أحب الحياة ولا أريد أن أموت .
- كميل : أنت مائة ما لك لا تفهمين .
- كاترين : سوف أسترد ملكي وأنتقم من أعدائي فأذبحهم وأصلبهم مع نسائهم وأطفالهم وأتلفذ إذ أرى لحمانهم تشوى على النار : ولكن آه اني أشعر بألم ويلاه تمزقت أمعائي جرعتني السم أيها الشيطان .
- كميل : كاترين ، كاترين تذكري كارلوس ويسكونتي .
- كاترين : « ترتجف » .
- كميل : كاترين : أما سقيته السم في قصر البارونة لاب؟ وابنه كميل أما سجنه في مغاور الجن ؟
- كاترين : انطردى أيتها الأرواح الشريرة « تصيح » ويلى لقد قتلت .

كميل : كاترين : كاترين إن أوجاعك ليست بأشد مما توجع كارلوس
وليس قنوطك شيئاً مذكوراً لو فكرت بقنوط كميل وعذابه
في مغاور الجحيم والأجسام التي شويتها على النار والأرجل التي
داست مسلوخة على الحصى والأنوف التي جدعتها والأيدي
التي قطعتها والدماء التي أهرقتها كلها تشتفي من ميتك الآن
كاترين « تغطي وجهها » ويلاه .

كميل : « يخلع ثوب الحجاب ويتقدم نحو سريرها » تفرسي بي ملياً
تعلمي من يد من شربت السم .

كاترين : (تنظر إليه وتصرخ) كميل : كميل لقد انتقمتم (تفيض
روحها) .

كميل : موتي فالغادر مأخوذ بغدره .

المشهد الرابع

هوراس . روبر . مارتينو - راهب

كميل : (إلى هوراس) لقد قمنا بمهمتنا خير قيام وذهبت نفس الشقية

هوراس : إلى حيث ألقى رحلها أم قشعم .

راهب : (يلخل ومعه روبر ومرتينو) .

كميل : - إلى روبر ومرتينو - بكل سرور أبشركم بالتقائي بأعز
أصدقاء أبي . القائد هوراس نصيرنا العظيم .

الجميع : هوراس كيف أبقتك الأقدار حياً .

هوراس : ابقتني لأمد لكم يد المساعدة في مثل هذه الظروف .

الراهب : اسمحوا لي واصغوا فلي كلمة أقولها باختصار - إلى كميل -
يا سيدي الأمير ان الوقت ثمين فعجل بالسفر إلى فرنسا لأن
فرجيني قد سبقتك إلى هنالك وقد أخبرت رفيقك بما جرى
بعد اختفائك عجل عجل لأن فرارك من مغاور الجحش قد شاع
وبث عليك جان ماريًا العيون ودفع ثمن رأسك ٢٠ ألف
ذهب فالعجلة العجلة .

كميل : لا أبرح مكاني حتى أبيدهم عن آخرهم قتلت كاترين وسألحق
بها ابنها جان .

الجميع : الوداع الوداع يا هوراس .

« الستار »

المنظر الثاني

في قصر الباروتة لاب

المشهد الأول

لاب : لو المحبوب لم يهجر محباً لما ازداد المحب به هياما
فإن الشيء حين يعزى لعلو وطالبه يزيد به غراما

آه يا بريقارا ان سفهي وجهلي حملاني على مطاوعتك حتى
أحببت من أكره وأبغضت من أهوى فسئمت الأول وفقدت
الثاني وما كان أغناني عن ذلك . ان حب الرفعة دخل مني
مدخلاً غلب عقلي حتى بذلت جمالي إلى جان ماريّاً الغليظ .
جاهرت بعداوة كميل الذي لم ترعيني مثله حسناً وجمالاً
وحلماً وكمالاً فويل لي أنا الجاهلة . آه يا كميل أين أنت
الآن ولكن إلى مَ أتعلل بالمحال فإن عاد فلا يزداد إلا تباعداً
عني وإن اجتمعت به فما عذري له وقد قتلت أباه بيدي
وحاولت إيصال الأذية إليه وإلى فرجيني حبيبته . أوه مالي
إلا السم (تناول القارورة) كميل كميل سأنتقم لك من
نفسي وأثار لأبيك عنك وفي قلبي لقربك حسرة - تدنيها
من فيها - .

المشهد الثاني

كميل يدخل فجأة

- لاب : ماذا أرى أخيال كميل . . . تكلم إن كنت أنت كميل . . .
- كميل : ألم تعرفيني .
- لاب : - ترتعش وتسقط القارورة من يدها - كميل أتراني أراك حقيقة بعدما قطعت الرجاء من لقاءك .
- كميل : ما أقرب ما نسيتني يا لاب .
- لاب : وهل تنسك من تحاول قتل نفسها من جفاك ولكن رأيت في ملامحك نفوراً .
- كميل : إن ذاك مما جلبته عليّ مغاور الجن .
- لاب : لقد كنتموا عليّ سجنك وبقاءك في قيد الحياة ولم أعرف أنك في مغاور الجن إلا بعد فرارك منها .
- كميل : أتكرين أمراً لك فيه اليد الطولى ؟
- لاب : أنا بريئة من ذلك أيها الأمير .
- كميل : أراك تبرئين نفسك ؟
- لاب : إذا أنا لم أتمس لنفسي العذر فلمن أتمسه .
- كميل : اقصري عن هذا الكلام فما جئتك معاتباً ومعنفاً لأن ذكر ذلك يحدث في قلبينا تغيراً ونفوراً .
- لاب : أوجتني لغير ذلك .
- كميل : جئتك مستعيناً على أمر لي ولك منه غبطة وصلاح .

لاب : ها أنا سامعة منك وموافقة لك فقل ولا تحتشم فأنا رهن إشارتك.

كميل : لقد قتلت كاترين وأضرمت الثورة على جان ماريًا ووجدت في البلاد أنصاراً وأعواناً لم يستطع جان مقاومتهم فحاصروه ولا يزال منحبساً بالدير وسأنتغلب عليه بإذن الله وقد قدمت عليك مستعيناً بعلمك وعملك لعهدي انه باق لي في فؤاك بقية من الحب .

لاب : قل فأنا أحب أن أراك سلطاناً وسلطان قلبي معاً فلو كنت تأخرت دقيقة لكنت وجدتي جثة هامدة وذهبت قبيلة هواك وشهيدة جفاك وأما الآن وقد انقادت لي الأمور ووثقت من لقاءك فسأبذل حياتي ودمي في قضاء الأمر الذي احتجت إليّ فيه وسوف يكون مصرع جان ماريًا هائلاً .

كميل : هذا أمر لا يرجي فيه غيرك يا لاب فكيف نصل إليه وهو لا يقابل أحداً غير استور وبريفارا .

لاب : ويوجد أيضاً ثالث يقابله .

كميل : ومن هو ؟

لاب : من يحمل إليه خاتمي .

كميل : هاتيه إن كنت صادقة الود فإنه ينفعني .

لاب : حباً وكرامة (تناوله إياه) وماذا عولت أن تفعل به أيها الأمير؟

كميل : إنني أريد الدخول به على جان ماريًا وقتله شر قتلة .

لاب : إليك عن هذا الأمر . لا تغرر بنفسك . أخاف عليك غدرة .

كميل : هذا أمر لا بد منه .

- لاب : دعني أحتل عليه بنفسي وأتولى قتله بيدي .
- كميل : إنك تتولين أمراً أعظم من هذا أيتها البارونة فإن أقدمت عليه أوليتني معروفاً عظيماً .
- لاب : قل ما هو ذلك الأمر .
- كميل : تذكر يا لاب قتل أبي في هذا القصر مسموماً بحيلة بريفاً ومكره
- لاب : أتذكر شيئاً من ذلك .
- كميل : حاشاك أن تنسي ما فعلت بالأمس فإن كأس السم قد شربها أبي من يدك اللطيفة .
- لاب : هذا كذب بلغك عني .
- كميل : إذا نسيت الليلة السادسة عشرة من أيار أو تناسيتها فانظري إلى ميدان قصرك تريبها مرسومة بأحرف نارية .
- لاب : لقد خدعوك أيها الأمير . . . ويلاه ما هذه التهمة .
- كميل : والأغرب منها يا لاب أنه وجد صاحب أبي بطرس الذي كان يصحبه في تلك الليلة حياً .
- لاب : إني لم آتِ إلى أبيك ذنباً .
- كميل : (يصفر صفرة خفية) .

المشهد الثالث

- بطرس : (يلخل) (يرتعد عندما يرى لاب) .

- كميل : إن لاب تنكر عليّ قتل مولاك كارلوس ؟
- بطرس : (يحملق بها ويستل خنجره ويصيح) ها هي الخائنة . ها هي قاتلة مولاي كارلوس . آه . . . هي السمامة الساحرة دعني أقتلها ، اقتلها فيني أرى الكأس في يدها .
- لاب : (خائفة القوي) رحماك يا كميل اقتلني اقتلني أو أبعد عني هذا الرجل الذي ذكرني بالذنب العظيم لقد سقيت أباك السم فاثأر له مني .
- كميل : — يشير إلى بطرس بالخروج — إنني لم آت إليك لأنتقم منك لأنني أعلم أنه لا ذنب عليك إن بريفارا هذا الذي استغواك فأريد أن يموت كما مات أبي .
- لاب : مسموماً ؟
- كميل : وأن يشرب السم هذه الليلة على مائدتك ومن يدك أنت لابسة ثوبك الأزرق .
- لاب : لا أفعل هذا أبداً فهذا أمر عظيم .
- كميل : أو لم يكن قتل أبي عظيماً فإن بريفارا قد قضى بذلك فمن العدل الانتقام منه تعويضاً وتكفيراً .
- لاب : كميل إنك ترجو أمراً مستحيلاً .
- كميل : إذا لم تفعلني أبلأني إلى قتلك .
- لاب : أتحدثني بمثل هذا وأنت في منزلي لقد تجاوزت حدك .
- كميل : قد أصبحت في قبضتي فإما قتل بريفارا أو قتلكما معاً .
- لاب : (تفرع جرساً) يدخل رودريك . مرتينلو . روبر . بطرس .

المشهد الرابع

- لاب : - تسقط على المقعد - ويلاه قد هلكت .
- كميل : دعي عنك المكابرة فلا نجاة لك إلا بقتل بريفارا فإن خدمك وجميع من في قصرك عندنا أسرى . فخذني طرساً واكتبي إليه أن يدانيك لتناول العشاء على مائدتك وإن تأخرت لحظة خرقت بهذا المسدس صدرك - يصوبه نحوها - .
- لاب : « تأخذ طرساً وتكتب » .
- كميل : (يملئ عليها) .
- سيدي البارون .
- إن لي كلاماً أقوله لك وهو من الأهمية بمكان فوافني لتقاسمني الطعام فأقصه عليك وإن تأخرت تلقاني في الغد جثة هامدة .
- لاب
- كميل : (يدفعه إلى مارتينو) خذ هذا الكتاب وعجل بإيصاله له (مارتينو يخرج مسرعاً) (إلى لاب) اذهبي حالاً وتردي بثوبك الأزرق الذي ألبسك إياه بريفارا ليلة قتل أبي وهو حاضر الآن فحذار أن تمتنعي عن دس السم وإياك أن تكاشفيه بأمرى وأمر أصحابي لأنهم سيترتبون بزي الخدم ويتولون تقديم الطعام فإن خنتي قتلتك معه أشنع قتلة .
- لاب : (تذهب تغير ثيابها) .

المشهد الخامس

كميل • روبر

كميل : آهاً منكم أيها الخونة اللثام الذين قتلوا أبي ظلماً وعدواناً فلقد حانت ساعة الانتقام واليوم سأمتع نظري بمصرعكم وأشفي غليل قلبي منكم تباً لكم من (سَفَلَة) . . . ظنوا الدهر سيقتي معهم . . . ولكن خابت آمالهم وأخفق سعيهم وسوف يعلم الظالمون أيَّ منقلب ينقلبون .

وما من يد إلاّ يد الله فوقها وما ظالم إلاّ ويبلى بأظلم.

روبر : سكن عنك يا مولاي وسوف تحقق أمانيك ولا بد من أن يحضر بريفارا الآن ويتجرع كأس السم من يد لاب كما تجرعها أبوك من قبل وبعد ذلك نعمل على هلاك أعدائنا جميعاً ونمزقهم تمزيقاً .
(يخرجون) .

المشهد السادس

(تلخل لاب)

لاب : ما أدري أي الأمرين أعظم أهلاكى وهلاك بريفارا معاً أم قتله وبقائي في الحياة بقرب كميل ونيلي حظوة عنده . . . إن في قتل بريفارا خلاصي وليس في موته مضرة ولا خسران فليمت .

المشهد السابع

(يدخل بريفارا)

بريفارا : ها قد أتيتك يا لاب فمالي أراك ترتدين الأثواب الزرقاء التي أكرهها .

لاب : نعم إني لبيستها ليلة قتل الأمير كارلوس أما اليوم فقد قابلت ابنه كميل .

بريفارا : كميل ؟

لاب : نعم قد جاعني في هذا الليل زائراً .

بريفارا : كميل في ميلان وهذا يسرك .

لاب : سيدركك العجب مما أقصر عليك فلنشرب أول الأقداح (يجلسان على مائدة) .

بريفارا : أخبريني يا لاب عما عرفت من كميل .

لاب : عرفت أن نار الحرب لم تضرم إلا للانتقام منا .

بريفارا : وما غاية كميل من قدومه إليك .

لاب : ليستعين بي على قتل جان ماريّا .

بريفارا : وما وعده .

لاب : وعده بقتله فانصرف شاكرًا .

بريفارا : لله درك ما أشد دهائك يا لاب .

لاب : (تدس له السم في الكأس دون أن يدري وكميل وأصحابه ينظرون من بين الكواليس) .

- بريفارا : فلنشرّب نخب البارونة لاب (يشربان) .
- لاب : (ترتعش) .
- بريفارا : ما بالك مرتعدة الفرائص ؟ فما نزل بك وأصابعك .
- لاب : تذكرت حلماً هائلاً أزعجني .
- بريفارا : وما هو ؟
- لاب : رأيت أن كميل قد قدم إليّ وسألني أن أدس لك السم فأبيت فتهددني بالقتل إن لم أفعل فوعده بذلك وكتبت إليك أدعوك لمناولة الطعام في قصري فأبيت وبينما نحن نتداول الكؤوس دسست لك السم في الشراب وأعين أصحاب كميل تحديق بنا من وراء هذه النافذة .
- بريفارا : آه أحس بألم في أحشائي .
- لاب : فتناولت أنت كأس الشراب وحاولت أن أمنعك فسبق السيف العذل فصحت صيحة عظيمة واستيقظت من رقادي مذعورة .
- بريفارا : (ينهض ويقبض على أحشائه صارخاً) ويلك يا لاب هل سقيتني سماً فقد تمزقت أحشائي .
- لاب : (بخوف) نعم لا ذنب عليّ وقد نجيت نفسي .
- بريفارا : آه إنك غدرت بي وقتلتني ولم تخلفي ظني بك يا ابنة الحنا فقد قتلت أباك يا خائنة .
- لاب : ويلاه هل أنت أبي .
- بريفارا : إنك من دم بريفارا وقد برهنت بغدرك إن هذا الدم سار في عروقك أيتها الغادرة .

- لاب : وابلوتاه لقد قتلت والذي .
- بريفارا : (يصيح صياحاً مزعجاً ويمزق ثيابه) .
- لاب : (تقف مذعورة كمن فقد الصواب وتتقدم من أبيها تنفقه) .
- بريفارا : « يشب عليها ويقبض على عنقها وشعرها قائلاً » .
- لا عشت بعدي ولا رأيت عينك بعد اليوم كميل فموتي على
مرأى من أحبيته أشنع الميتات .
- لاب : « تصيح وتستعين بكميل » كميل كميل .
- كميل : « يدخل وأعوانه وخنجره ملطخاً بالدم » .
- بريفارا : أواه لقد تأرت مني يا كميل .
- كميل : تذكر ما فعلت بأبي أيها الغادر وما صنعت بي أيها اللئيم فما دم
جان ماريًا يسيل على خنجري . نعم ؛ قد دخلت عليه بواسطة
خاتمك يا لاب وقتلته شر قتلة وتأرت منكم جميعاً وكفيت
البشرية شركم . فموتي . يا خائنة فعلى الباغي تدور الدوائر .
- بريفارا ولاب : يلفظان آخر نفس .
- كميل : « إلى رفاقه » أيها الإخوان ! لقد أدركنا 'تأرتنا وكلل سعينا
المجيد بالنجاح وناديننا باستور حاكماً على البلاد بعد جان
ماريا الذي لاقى حظه بحد هذا الخنجر . أما الآن فأنا عازم
على الذهاب إلى فرنسا للاجتماع بفرجيني فاتبعاني يا روبر
ومرتينو فقد انتصر الحق وزهق الباطل .

كميل : ورفاقه يشدون :

قطعنا البحر والبرا فافزعنا الورى طرًا
وقد خافت أعادينا سيوفًا تدرك النصرا

* * *

وهذا الدهر صافانا ويوم الفوز وافانا
قد ابيضت ليالينا لنا البشرى لنا البشرى
« يهتفون بالخروج » .

« الستار »

الفصل الخامس

الجزء الاول

في بوية

المشهد الأول

الراعي : جالس على صخرة قبالة قطيعه وفي يده شبابته يعزف عليها قليلاً . يضع أمامه جرابه ثم يخرج الزاد ويبدأ بالأكل .

المشهد الثاني

كميل . روبرتو . مرتينو

كميل : السلام عليك يا عم .
الراعي : أهلاً بالشباب تفضلوا شاركونا .
كميل : عشت يا كريم .
الراعي : أراكم غرباء والغريب خليق بالكرامة وأظن أنكم لم تتغدوا بعد فهبوا نتناول الطعام .
كميل : ألف شكر لك وظنك لم يخطيء فنحن غرباء هذا الديار و . . .
الراعي : « يقاطع كميل » اجلسوا اجلسوا « ينهض وينادي بأعلى صوته » : يا مرقس يا مرقس يا مرقس .
مرقس : « يجيب من الخارج » نعم . نعم .

- الراعي : عندي ضيوف هات الخبز واحلب العنزة السكاء وأسرع إلينا
 روبر : ما هذه الأريحية .
 كميل : إن السذاجة لمؤثرة .
 مرتينو : سنأكل مريثاً إن شاء الله .
- الراعي : « يجلس » غضوا الطرف يا إخوان فحياة الرعاة كما ترون :
 أكل عزف غناء (ينهض) ويتناول حجراً في يده ويصبح
 ملحاً . ملحاً . طق . طق .
 كميل : ورفيقاه يتناولان الطعام مع الراعي .

المشهد الثالث

المذكورون • ومرقس

- مرقس : يدخل وفي يده سطل الحليب ومعه الطاس ويقدمها إلى أبيه
 الراعي : « يصب حليباً ويقول » : كلوا أيها الكرام فعلى الرحب والسعة
 أنتم ضيوني مجازاً وفي الحقيقة فإنكم ضيوف مولاي لويجي .
 كميل : ومن هو لويجي .
 الراعي : مولاي لويجي أطال الله عمره .
 كميل : ومن هو هذا السيد العظيم .
 الراعي : هو مولاي لويجي الله يحفظه .
 روبر : يظهر إنك لا تفهم كثيراً أيها الراعي .

الراعي : أعهدت الراعي فيلسوفاً فلو كنت فيلسوفاً لما كنت أرفعى
الغنم في هذا الجبل .

كميل : قل لي بربك من أين مولاك لويجي فلي صديق يدعى لويجي
أهو الرجل الذي تقصده .

الراعي : إن مولاي لويجي لا يريد أن يعكر صفاء وحدته أحد ولذلك
لا أهديك إلى مكانه فلا تتعب .

كميل : قلت لك أيها العم إنني أقصد رجلاً يدعى لويجي وهو إيطالي
الأصل يسكن في فرنسا اليوم وقد جئت من بلاد بعيدة لأراه
وهو صديقي الصدوق .

الراعي : إنه الرجل الكريم صديق الجميع . وشهرة معلمي لويجي
تدفعك إلى زيارته وكثيرون يقصدونه مثلك فلن أرشدك
إلى مكانه .

كميل : لكي تعلم أيها الراعي إنني لست ممن يطمعون بشيء من هذا
فها أنا أقص عليك قصة مولاك : إن لمولاك ابنتين إحداهما
تدعى فرجيني والثانية ميرفا وهو قد رباني صغيراً ولهذا تراني
أود الاجتماع به .

الراعي : فهمت . فهمت . يظهر أنك طالب عروس .

كميل : لا يا عم فسوف تعلم أمري وتكون قد قمت نحوي بخدمة
جلى أكافئك عليها إن شاء الله .

الراعي : كثيرون الذين يعدوننا هذه المواعيد وحتى الآن لم تفز بشيء
« إلى ابنه » يا مرقس اجمع القطيع وسر أمامه إلى المزرعة
فأنا ذاهب مع هذا السيد الكريم إلى قصر مولاي لويجي .

- مرقس : « يضع السطل في كتفه ويعزف على الشبابة ويخرج » .
- الراعي : « إلى كميل » تريد أن أغنيك بعض الألحان الشجية لتذهب أشجانك فإني أراك كثيراً .
- كميل : لست بالكئيب . حدثني إذا شئت عن مولاك .
- الراعي : قل الحقيقة يا فتى أتريد أن أحدثك عن مولاي الشيخ أم عن الصبيتين ؟
- كميل : « بيتسم » .
- الراعي : « على حدة » لم يخطيء ظني أنه طالب عروس . « إلى كميل » مولاي عنده فتاتان . إحداهما ندابة نواحة تبكي دائماً حبيياً لها مات . وأما الثانية فين بين فإذا كنت ترغب في الأولى فارجع من هنا لأنها لا تتزوج .
- كميل : وما اسمها .
- الراعي : اسمها لا (يدور على لساني) مات حبيبها وقد أقسمت أنها لن تتزوج . كثيرون زاروها قبلك وعادوا خائبين . « يفكر » ولكن سر على خيرة الله .
- كميل : إنك خفيف الروح أيها الراعي وكيف تصرف مولاتك النواحة أيامها ؟
- الراعي : عاد إلى الحديث . تبكي على ضريح حبيبها كل يوم ولا شغل لها غير استقبال الفقراء الذين يزورون سيدي لويجي فيأكلون ويشربون ثم يذهبون ثم يرجعون ثم و ثم . . . وماذا تريد بعد ؟

- كميل : لا شيء سر بنا .
- الراعي : إني سائر معك . وإذا تم لك نصيب عندنا فلا تنسي أيها الأمير .
- كميل : سوف أذكرك ولا أنساك .
- الراعي : « يشبك يديه على رأسه ويصيح » يا مرقس أعزف على شبابتك
وسر أمامنا فإننا تابعوك .
- « تعزف الشبابة ويعني الراعي ويسير ووراءه كميل وروبر
ومرتينو » .

« يرخي الستار »

النصل الخامس

الجزء الثاني

في حديقة قصر لويجي والقبر فيها

المشهد الاول

فرجيني : « تضع إكليلاً على القبر وتنشد نائحة » :
على ضريح حبيبي لذئ لي حزني وخاني زمني والصبر والجلد
وقطع الين أحشائي بصارمه إذ حرم الحب والأحباب قد بعدوا
يا ليت ما كان لي عهد بحبهم فالحب فيه الشقا والويل والنكد
أواه من صولة الأيام إن وثبت فالموت أصبح لي خير الذي أجاء.

المشهد الثاني

ميرفا . وفرجيني

ميرفا : « تدخل » سيلتي فرجيني ! لقد أرسلني أبي في طلبك لأن
عنده فقراء في القصر لتهتمي .

فرجيني : أواه يا ميرفا ليتك تشعرين بما في قلبي من اللوعة فلا يلد لي
ويخفف عني وطأة شجونني غير خلوتي هنيهة قرب هذا
الضريح فيا حبيبي تولى أمر تدبيرهما عني ريثما تنشف

عبرتي ويهدد نائر أجزاني فالحق بك .

ميرفا : خلي عنك هذا النحيب فهو يذيبك وما فات هيهات أن يعود
فاصبري والله مع الصابرين . إذ أنا ذاهبة فلا تطيلي المكوث
في هذا المكان (تخرج) .

المشهد الثالث

كميل . وفرجيني

كميل : (يدخل بهلوء قائلاً بصوت خافت) هذه هي الفتاة التي
وصفها الراعي أنها تشبهها .

فرجيني : (تنحني على القبر قائلة) ما ينفعني العيش بعدك وأنت راقد
في القبور . وأي مطمح لي في الحياة وأنت في عالم الأموات .
لقد نحتك في حبك إن عشت بعدك .

فرجيني :

فلا أبرحن أبكيك حتى يضمني ضريحك أو تفي عليك دموعي
ففي القبر يا كاميل قربك لذ لي فخذني فقد حنت إليك ضلوعي

كميل : فرجيني فرجيني .

فرجيني : « ترفع رأسها فتجفل مرتاعة إذ ترى كميل قربها وقد تبرقع
وجهه باصفرار الموت » .

كميل : « يضطرب ويقول بصوت متلجلج » : فرجيني حبيبي
فرجيني « ثم يقع مغشياً عليه » .

فرجيني : « تقع على الضريح حائرة » .

المشهد الرابع

كميل . فرجيني . لويجي . الراعي (يدخلون)

- لويجي : « يرى كميل ساقطاً على الأرض فيسأل فرجيني فلا تجيب »
« لويجي والراعي يحلان أضرار كميل فيرون على صدره
ذخيرة نقش عليها اسم فرجيني . وإذ تراها فرجيني تصيح :
كميل كميل هذا هو حبيبي كميل . (ويعمى عليها) . »
- لويجي : ولدي حبيبي هذا كميل الذي أراه حياً ونحن نكبه ميتاً
وافرحناه (يأخذ يفرك يده وينشقه المنبهات) .
- ميرفا : تنشق فرجيني حتى تستفيق .
(فرجيني وكميل) ينظران إلى بعضهما صامتين .

المشهد الخامس

المذكورون . روبر . مرتينو (يدخلون)

- روبر : أنت هنا يا سيدي كميل ؟ لقد أضعتنا .
- لويجي : « يضم كميل وفرجيني إلى صدره » قائلاً : أحمد الله الذي
جمع شملكما وضم ألفتكما واشكراه معي على أنه أسعد
أيامي الأخيرة بذلك لانزل إلى القبر مستريحاً . وأنت يا ولدي
كميل لقد قلت لك أنه للأيام عليك دين ستقاضاه منك وقد
استوفت الأيام دينها ولسوف تنقلب بغيرك كما انقلبت بك .
- كميل : لقد جرعتهم كأس غدرهم حتى الثمالة وقضي الأمر عليهم
جميعاً . وآخر من نزل به القضاء لاب الشقية فقد جرعتها
كأس السم بيدها كما جرعته بريفاً وخاللي الجو .

- الجميع : فليحيي البطل كميل .
- فرجيني : أحمداك اللهم على إنك وهبت لي حبيبي حتى قرت به عيني
فأشكرك على أنك جددت لي في الحياة عهداً جديداً .
- لويجي : قري عيناً يا ابنتي فالبغي مرتعه وخيم .
- ميرفا : هنيئاً لك يا حبيبي (تعانقها) .
- كميل : شكراً لهذين البطلين يا مؤدبي فقد كانا لي ساعداً قوياً
أتقي به الأعداء .
- مرتينو : إننا لم نكن إلا أنصار الحق .
- روبر : لم نخدم إلا الفضيلة والوطن .
- الجميع : فليحيي الوطن .
- لويجي : الآن قد صفا لنا الزمان فلنعد من هذا المنفى إلى الوطن المحبوب
- الراعي : وأنا يا مولاي . لقد نسيتي .
- لويجي : تبيع القطيع وتسبر معنا حيث نقيم بالهنا في ظلال القصور
- الراعي : لا سيدي فإذا كنت تحبني لا تقل ذلك .
- لويجي : إذا ماذا نصنع بك .
- الراعي : تشتري لي قطعاً آخر وأودعك داعياً لك .
- لويجي : قر عيناً سنعمل ذلك .
- كميل : ترك لك هذا القصر .
- الراعي : تتركون لي القصر وما حاجتي إليه ؟ وأنا أدعو لك بالتوفيق .

كامل : ذلك يكفي .

لويجي : سيروا بنا الآن لنهيهء معدات العرس فقد حان أن نقرح بمن قام من الرمس وانشدوا معاً نشيد الشكر فهو واجب مقدس .

الجميع : (ينهضون وينشدون) .

الحمد لله قد زال العنا
وحلت القلب بشائر الحنا
يا ربنا كلل بالنصر معانا
واحفظ من البلوى أهلاً وأوطانا

« الستار »

— تمت —

القسم الخامس

يوم الاونسكو

وقد تقول ، يا عزيزي ، وما الأونسكو ؟

اسمعت بحديث برج بابل ؟

إن أسطورة برج بابل تجددت حقاً بمؤتمر الأونسكو .

فها هم ممثلو أربع وأربعين دولة يجتمعون في لبنان ، وهم يتكلمون بأربعة وأربعين لساناً ، وما أظن إخوان برج بابل كانوا أكثر ألسنة .

رحم الله المتنبي الذي قال في وصف معركة الحمراء :

تجمع فيه كلُّ لسانٍ وأمةٍ فما يفهم الحدّاث إلاّ التراجم

خطب ومقالات . منها ما هو مترجم ، ومنها ما هو موضوع بلسان العرب ، ففاضت بها أنهار المجلات والصحف اللبنانية ، كما فاضت بأعناق المطي الأباطح .

أما أنا فصرت على حد قول الشاعر الآخر :

تكاثرت الظباءُ على خراشٍ فما يدري خراشٌ ما يصيد

أناس من كل لون وجنس يتوافدون على مدينة الأونسكو في بيروت ، فكانت جماهيرهم تندفق على حد قول الفرزدق :

وإذا الربائعُ جاءني دفّاعها موجاً كأنهم الجرادُ المرسلُ
جاؤوا من كل فج عميق حقّاً ، وأيّ فج أعمق من الهند ، والصين ،
والأمريكيتين ؟

فكنت إذا دخلت مدينة الأونسكو ، في ذلك الأسبوع . مشيت ،
قبل أن تبلغ رتاجها ، بين أربع وأربعين سارية تتحقق فوق رؤوسها أعلام
الدول الأربع والأربعين ، ولا بد لك من دعم رأسك بيديك الثنتين
حتى تراها .

فهنالك في ذلك القصر الباذخ الذي أعده صاحب الفخامة الشيخ الرئيس
بشاره خليل الخوري ، لاستقبال ممثلي ثقافة دول الأرض ، لا ملكة اليمن ،
قامت سوق عكاظ عالمية ، فكانت الإذاعة اللبنانية تنقل إلى أقاصي العالم
أصوات هذا وذاك . وتصريح هؤلاء وأولئك .

وكان أروع ما قيل في هذا المؤتمر المنقطع النظير خطبة رئيسنا الشيخ
بشاره الخوري الكلي الثقافة والحكمة ، فرأى رؤوس أدباء العالم ورجال
الفكر أن في لبنان رأساً ، وأيّ رأس .

حدث الغرب بلغته كأنه غربي أصيل لساناً . وحدث الشرق بلسان
أم اللغات فخلب الألباب وسحر العقول .

أما أهمّ ما جاء في تلك الرسالة العالمية السامية فهو هذه الفقرات الموجهة
إلى مندوبي الدول أجمع . قال ، أيده الله :

« لا يسوغ للإنسان ، بأي حال ، أن يلوي بوجهه عن الصعوبات ،
ولا أن يتواري أمام المهضلات ، بل يتوجب عليه أن يقتحمها ، وخاصة
عندما يكون متوقفاً على مجابتهها مصير السلام .

« فعليكم أنتم . ممثلي منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ،
أن تجابهوا القوة الهوجاء ، في عالمٍ تدعي هي السيطرة على كل ما فيه .
لدى أقل غفلة من الإنسانية عن المبادئ الأساسية ، التي يجب أن تحيا بها . »
ثم تساءل عن العلم ومهمته في الحياة فقال :

« إن العلم - وهو سلاح ذو حدين . وإله ذو وجهين : أحدهما
للأعمال العمرانية السلمية . والثاني للأعمال التدميرية - قد حسن حياة
الإنسان تحسناً بالغاً . وغير وجه البسيطة . ولكن هل تناول روح الإنسان
بأي تغيير ؟

فالحب . والبغض . والغضب . والحسد ما تزال هي المسيطرة علينا .
والأطماع . والأحلام الخارقة التي انتابت الشعوب منذ أعرق الأزمنة
قديماً ، هي نفسها التي تنتابها اليوم . بحيث يبدو علم الإنسان متوقفاً عند
تعاليمه البدائية ، بينما تقدمت العلوم الطبيعية والكيميائية بخطوات جبارة
إلى الأمام . »

ثم قال : « وسنعمل من جهتنا معكم ، وعن طريقكم ، على إيقاظ
أخوة العصور الكبرى بين الشرق والغرب ، وتوثيق علاقات البلاد العربية
وسائر بلدان الشرق الأوسط مع بقية العالم ، وتعزيز المعرفة ، وإنماء القوى
المعنوية ، وأخيراً خدمة الفكر وخدمة السلام .

ولبلوغ هذه الأهداف نطلب إلى جميع الذين يحلمون بإنسانية مثلى ، أي
من كل منكم ومن الأونسكو بكاملها ، مساعدتنا في مهمتنا وإيلاءنا الثقة .
ثم ختم راعته بهذه الكلمة الجامعة كل النبل والسمو : « إن البغض
عقم . الحياة الحقيقية ينبوعها الروح . المحبة أقوى من الموت . »

قال رئيس لبنان للأمم الأرض : ها نحن موجودون ومستعدون لخدمة
الفكر وخدمة السلام . ولم يقل قط كنا . . .

قال : إننا سنعمل على إيقاظ أخوة العصور الكبرى بين الشرق والغرب .
لقد لمح إلى ذلك الماضي البعيد يوم كان لبنان رسول إنشاء وعمران وسلام .
إنه لم يصرح لأنه يستطيع أن يقول : ها أنا ذا ، ! ولا ينكر عليه أحد ما
يقول .

أما كتابنا فيظهر أنه ضاق معهم الحرف - كما يقول القوال اللبناني -
فلم يبق لهم ما يذكرونه في معرض الفخر والابتهاج إلا الحرف ...
لا شك في أن الأيجدية هي أعظم اختراع بشري ، كما قال فولتير ،
أما أن تصبح دائماً حديث الأدباء والمتأدين منا فهذا كثير .

أليس لنا في الميراث البشري إلا الحرف ؟

الجواب : نعم لنا !

إذن فلماذا نزعج بذكره الناس هذا الإزعاج المنكر ؟

لقد كدت أقول ان البشرية كلها عميد لنا ، نحن الذين أوجدنا الحرف ،
إذا صحت الكلمة العربية المأثورة : « من علمني حرفاً كنت له عبداً » !
المن يشين العطاء . والافتخار بالماضي البعيد حجة يلجأ إليها المقصر
في حاضره . وما نحن بالمقصرين ، والحمد لله .

لقد صارت قصة الحرف في حديثنا ، أو في كل معرض افتخار ،
مكروهة مملولة . وما أشبهها بقصة « دجاجة موسى » التي رواها الإمام
الأديبي الأعظم أبو عثمان الجاحظ . قال :

« كان أبو الهذيل أهلى إلى موسى دجاجة . وكانت دجاجته التي
أهداها دون ما كان يتخذ لمويس ، ولكنه بكرمه وبحسن خلقه ، أظهر
التعجب من سمها ، وطيب لحمها ، وكان يعرفه بالإمساك الشديد . فقال :
وكيف رأيت يا أبا عمران ، تلك الدجاجة ؟

قال : كانت عجباً من العجب !

فيقول : وتدرى ما جنسها ؟ وتدرى ما سنها ؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالجنس والسن . وتدرى بأي شيء كنا نسمّنها ؟

فلا يزال أبو الهذيل في هذا ، والآخر ، أي موسى ، يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل .

وكان أبو الهذيل أسلم الناس صدرأ . وأوسعهم خلقاً ، وأسهلهم سهولة ، فإن ذكروا دجاجة ، قال : أين كانت يا أبا عمران ، من تلك الدجاجة ؟ فإن ذكروا بطة أو عناقاً أو جزوراً ، أو بقرة قال : فأين كانت هذه الجزور من الجزور من تلك الدجاجة في الدجاج ؟

وإن استسمن أبو الهذيل شيئاً من الطير والبهائم ، قال : لا والله ! ولا تلك الدجاجة .

وإن ذكروا عذوبة الشحم ، قال : عذوبة الشحم في البقر ، والبط ، وبطون السمك ، والدجاج ، ولا سيما في ذلك الجنس من الدجاج .

وإن ذكروا ميلاد شيء ، أو قدوم إنسان ، قال : كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة . وما كان بين قدوم فلان ، وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم .

وهكذا كانت تلك الدجاجة مثلاً في كل شيء ، وتاريخاً لكل شيء .

وهذه قصتنا مع الحرف والأبجدية ، نفغل عن الشخص ، ونلجأ إلى الأساطير لنمنّ على الدنيا بالحرف .

يقولون عندنا : متى أفلس الرجل رجع إلى دفاتر جده العتاق . أما نحن فلم نفلس ، وفي دفاترنا أرقام غير هذا الرقم .

فلندع الحرف . فللبنانيين في سبيل السلام العالمي أعمال أراها أجل
من الحرف ، وهي تعني « الأونسكو » أكثر من اختراع الحرف ومنحه
للبشرية هدية ثمينة .

أما كان اللبنانيون قديماً همزة وصل ربطت الشرق بالغرب ؟ وهذه
إحدى غايات الأونسكو .

أما هم الذين ضرب شراعتهم البحر المصغر خده . فاستقامت أخادعه ؟
أما هم الذين حملوا إلى الغرب حضارتهم رغم أنف الأعاصير .
وخططوا فيه المدن والعواصم ؟

أما هم الذين أليسوا الأرجوان بعدما كان يلبس القراء والجلود ؟
إن وقت التاجر والعالم ثمين ، وهذا ما دفعهم إلى اختزال الأبجديات ،
فكانت لهم هذه الأبجدية التي تبتتها الدنيا . أما إذا قرأنا تاريخ حضارتهم
بإمعان ، فإننا نرى لهم في سبيل السلام وتعريف الناس بالناس ما هو أعظم
من الحرف ، فلندع الحرف لئلا يصبح الحديث عنه كدجاجة موسى .

كان اللبناني أداة حضارة ورسول إنسانية ، ولم يكن يوماً جبار حرب ،
لا في فتوحاته المدنية ، ولا في إقامته حول هذا الشط اللازوردي . اللبناني
كان تاجراً . والتاجر مسلم طبعاً . فهو لم يفتح الدنيا عنوة . بل دخلها سلماً
يحمل إليها مدنية وحضارة ، وثقافة ، وسلاماً ، وهذا ما تريده أو تسعى
إليه دول العالم اليوم تحت اسم الأونسكو .

فاللبناني ، بلد الحرف ، أونسكي منذ وجد . فهو رسول سلام قديماً
وحديثاً ، ورجل علم وثقافة وتجارة يصل بين قارة وقارة ، وبين شعب
وشعب ، ولذلك قال الرئيس : « وسنعمل على إيقاظ أخوة العصور الكبرى
بين الشرق والغرب » أي كما بدأنا هذا الأمر نعيده .

إذن فلماذا نذكر الأساطير التي ينكرها الناس ولا تقدم من حاضرنا ما يثبت مساهمتنا في تأييد السلام والدعوة إليه ؟

فلندع حرمش بن ميصور ، وقدموس زارع المعركة مع أنياب ذلك الغول الذي قتله . . . فلسنا والحمد لله ، رجال ماضٍ بلا حاضر .

فأهلاً بالأونسكو !

أهلاً بحمامة نوح الحاملة غصن الزيتون ، أهلاً بالآتية إلينا باسم الكتاب ، فنحن الذين كنا قبلها من محبيه ، ونحن الذين ملأنا به مكاتب الغرب .

إن الأديب ، منفرداً ، يسبق الدول ، مجتمعة ، ويسبقها قروناً أو قرناً إلى تأييد السلام ، وكل من كتب منّا حرفاً لم يدع إلا إلى السلام .

لم يكن لبنان الأزل محارباً ، بل كان دائماً وأبداً يقابل الغزاة الفاتحين قائلاً : حمل ونخذ ما نحتاج إليه ، ورح عنا . دعنا في نعيمنا السلامي .

هكذا كان يعمل أحفاد حرمش بن ميصور مخترع الحرف .

عفواً ! لقد عدنا إلى التبجح بالحرف ، بل عدنا إلى العصر القديم القاتم ، عصر الأساطير ، فلنعد إلى زماننا ولنقل اللبناني أونسكي طبعاً ومولداً ، لأنه ابن بلد ضيق يكاد يكون أقل من ميليمتر بالنسبة إلى المسكونة ، ولذلك عمل سكانه على تجنب الحروب ، وانصرفوا إلى صناعتهم وتجارتهم اللتين كانتا أداتي تمدين وتحضير وتثقيف . وهذا الميل إلى العلم والثقافة تورثه الأحفاد عن الآباء والأجداد .

تحلم ، أول ما تحلم ، المرأة اللبنانية ، حين يتحرك الحنين في بطنها ، بالوسائل التي تمكنها من تعليم الصبي العتيد ، حتى إذا جاء ، أخذت تنتظر الساعة التي يدب فيها ، فتخيله ذاهباً إلى مدرسة تحت السندياتة ، وتحت

إبطه كراسته . ثم يبتعد نظرها إلى الغد ، فتراه شاكراً الدواة في زناره ،
وقد أصبح كاتباً قارئاً . . . ثم تراه بعين غلدها ينسخ الكتب أو يعلم
في المدرسة ، فتنفض لهذه الأحلام اللذيذة - كما انتفض العصفور بالله
القطر .

فالدواة التحاسية والقلم الغزار هما حلية اللبناني وشعار مجده في ساحة
الفخار ، فما لنا وحرمش بن ميصور ، وقدموس وزوجته هونيو واخته
أورب . . . وإذا كانت غاية الأونسكو تعريف بعض الإنسانية ببعض ،
فهذا ما عمله لبنان يوم افتتح الدنيا قبل كولب ، ويوم خطط المدن وراء
البحار .

وإذا كانت غاية الأونسكو تعزيز التبادل الفكري بتعزيز الكتاب ،
فصيانة الكتاب ونقل الثقافة من دنيا إلى دنيا ، تلك كانت مهمتنا .

كان الكتاب ، ولا يزال ، حبيب قلبنا ، فحنونا عليه في كهوف
أوديتنا حنو المرضعات على الفطيم . ونحن الذين نقلناه إلى مكاتب أوروبا
العظمى ، ولولانا لقضى نجه . فبأناملنا ولدناه . وبأيدينا حملناه . وما زلنا
ننقله من بلاد إلى بلاد ، ومن قارة إلى قارة ، قد نقلنا الثقافة الشرقية
عامة ، والعربية خاصة ، إلى أقطار المسكونة كلها . وفي كل ذلك كان
اللبنانيون مسالمين ، ولم يشهروا سيفاً .

وإذا كانت غاية « الأونسكو » تعريف الشعوب ببعضها ، فأبي شعب
لم نعرف ، وأية أمة من أمم الأرض لم نخالط ؟

إن ما تسعى له الدول مجتمعة قد عمله لبنان منفرداً ، وكان أميناً في
حمل رسالة الثقافة ، فكانت في طبيعة موكبنا الذي لم يقف في طريق الزمن .

إن مدارسنا ، منذ أقدم العصور حتى عصرنا هذا ، لا تزال موارد
تربية وثقافة وعلم . نقلنا ثقافة الغرب إلى الشرق وترجمنا إلى لغات العالم

فقائس كتبنا العربية . وعلمنا الناس عبر البحار لسان العرب المبين :
فتمشروا وعرفوا أن للغتنا العربية أبيض يد على صيانة التراث الثقافي العالمي .

إن لنا حاضراً جليلاً كما كان لنا ماضٍ مجيد . إن لنا هذا البحر
الأبيض ، فلماذا نلجأ إلى بحر الظلمات ؟

لقد كنا رسل سلام في كل آن وكل أوان . وسنظل كذلك إلى دهر
الداهرين . إذا مات منا سيد قام رجل الساعة .

الأدب العربي في اثار اعلامه

العصر الجاهلي والأموي :

يا سبحان الله ! كأنما جعل هذا البلد باراً بلغته في كل دور ، فهو كالبحر لا يهدأ حتى يجيش .

كان الاحتلال قالاتداب ، فخال الناس أن العجمة ستكتسح لبنان لوفرة المدارس الأجنبية فيه ، فإذا بمنهاج البكالوريا يطل علينا . فكان شأننا غير ما توهموا : فتنافست المدارس ، أجنبية ووطنية في تعليم لساننا ، والمنافسة تحمّ الرؤوس ، والحمى يصنعها أطباء اليوم ليقتلوا بها ميكروبات جمّة .

تدور على لسان قلبي كلمة وأحاول ألاّ تتجسد ، فيأبى الحق إلاّ الظهور . فنعمة عهدنا الجديد التي نتحدث بها هي نهضة لغتنا . فتقاليدنا وعاداتنا قد اندثرت ، وغرقنا حتى الآذان في حمأة المدنية ، فارتخت النفوس وفرغت الجيوب .

كثيرون منا يعزّون هذا إلى التعليم ، فيقولون أن نفقاته استترفت جيوبنا وصيرتنا رقيقى الحال .

قد يكون ، ولكن إذا كان العلم شراً فهو شر لا بد منه ، أو انه أهون الشرين ، فلتحذف حكومتنا وتشطب من كل ميزانية إلاّ

ميزانية المعارف ، فلو اتسعت مدارس الحكومة لأولادنا لكانت علينا
الضرائب .

هذا موضوع قائم برأسه فما لنا وله الآن ، نحن في صدد كتاب جديد
من مآثر وزارة المعارف ، لقد أخرجت كتاباً جديداً أشبه بكتب القوم
« يرجع إليه الأستاذ والطالب سواء بسواء » كما جاء في مقدمته التي أعربت
عن نية جامعيه الأساتذة بارودي وبستاني وتقي الدين .

أستغفر الله كيف أقول جامعيه فما هو إلا تأليف . . . وإذا بدا سهلاً
كالجرب على النظارة فهو عمل خطير شاق يعرفه من يعانیه .

فالانتقاء والتدقيق وما إليهما مهمة مضمّنة . ولا سيما في نهضة لا تزال
صبية . (والروايات عدّة شعر الرأس) فما قولك بلجنة تحقق وتدقق
وتؤرخ في وقت واحد . ولكل شيء من هذا ، حيث أينع الأدب . أناس
مختصون به ، أما عندنا فعلى كل واحد أن يكون دائرة معارف ، وهذا
ما يحصل في فجر كل انبعاث .

لقد جاء كتاب « الأدب العربي في آثار أعلامه » ، كما أرى ، جامعاً
لثلاث : دقة في النصوص ، ونقاية حسنة ، وخلقة جميلة . فالدقة والنقاية
لا تستغريان من ثلاثة كلهم أديب ، وكلهم أوتي حظاً كبيراً من الثقافة
وتمتع بشيء كثير من الذوق الفني . أما جمال المظهر فقد أطراه أمامي
مستشار المعارف المسيو كوانته الذي يخدم معارفنا بإخلاص نزيه وجهاد
يستحق خير تقدير . ولا يدع أن يكون مظهر الكتاب رائعاً فمطبعة الآباء
اليسوعيين لا تخرج إلا تحفاً وطرفاً .

إنني أعبط المؤلفين بما أحرزوه من نجاح في كتابهم وأهنتهم به ،
فقد اجتمعت أزاهر شتى دلت على الروض وأبدوا فيما انتقوا عناصر
تألقت منها شخصية الشاعر ، وخصوصاً في المثلث الأموي ، فكأن كل

شاعر مرسوم أمامك ترى صورته في أبنائه ، والإبن سر أبيه . ما قلت
بنات أفكاره كما تعودنا أن نعبر ، لأنه ليس لقصائد هؤلاء حياء بنات
العرب .

أما قصيدة الفرزدق في زين العابدين فتعلمنا أن الشعر متى جاش به
الصدر اثبتق كالينبوع وثاباً براقاً وتسلسل كالجدول رقراقاً صافياً ، وهي
رد على أولئك الذين يشكون في الشعر الجاهلي إذا لم يكن جافياً غليظاً .
كأنه فاتهم أن الشاعر يرق ويخشن حتى في القصيدة الواحدة تجذبه إلى ذلك
الأغراض والمعاني .

أما في أصحاب المعلقات فتמיד المؤلفون بما دل عليه المنهاج . فما
ذكروا إلا المعلقات . وأن جاء بعضها مقضوباً فلأن الكتاب طبع الآباء
اليسوعيين ، فهم لا يطبعون إلا ما يماشى دستورهم . ولهذا جاء عمر
ابن أبي ربيعة مفلوجاً . . . وإن قضي على (رائيته) فهكذا يفعل الفالج ،
انه إذا استأثر بعضو أجهز عليه . . .

لست إباحياً ، ولي بنون وبنات أضن بأخلاقهم أن يتسرب إليها
الفساد ، ومع هذا أقول أن رائية عمر لم تعد خطراً يتقى ، ففي كل ساعة
تقع عيون أبنائنا على ما هو أشد خطراً منها : في الكتب ، والمراسح ،
وقارعة الطريق ، والسينما .

مسكين عمر ، لو كان اليوم لعد تقيّاً ورعاً مهذباً حياً ، وبكلمة
مختصرة رجل أخلاق . . . فهل عندنا مثل سميّه عمر بن عبد العزيز
ليطرده عن بابه .

أما الحجاج فقد أسمعونا خير ما قال ، ومن تأمل رآه كأنه يزأر بعينه
ويتهدد بجمع يديه ظامناً إلى الدماء ، ثم يرى جبروته يتضاءل أمام الموت ،
وفي نفسه أمل من لقاء ربه :

إذا ما لقيت الله عني راضياً فإن سرور النفس فيما هنالك

فما أوسع عفو الله . . . وكلنا يرجوه حتى أبو نواس والحجاج .

وبعد . فلا بد من كلمة وأن بدت كالتعنت . (فالقنان) جبل بني
أسد . ما دعا إلى تشديد نونه الأولى في معلقة امرئ القيس^(١) . فإن كان
لإنقاذه من جهنم العروض فماذا نفعل بصاحبنا زهير^(٢) وهو مؤمن بالله
واليوم الآخر . . . أنا أرجح أن القنان جمع قنة . ومهما يكن من شيء
فلا تختلف على حرف . ولكنها سانحة بدرت فما كتبتها .

أما هذا البيت من قصيدة امرئ القيس :

فيا لك من ليل كأن نجومه بامراس كتان إلى صم جندل
فلي فيه رأي غير ما ارتأوا . لا خلاف في صدره ، أما عجزه فأوثر
أن يكون : بكل مغار الفتل شدت بيزبل .

فأمراس كتان فيها ضعف وقلة ورائحة حضارة قوية . وإلى صم
جندل حذف فيها متعلق الجار وهو كون مقيد ، وكلمة جندل ، به
ضعفها ، واردة في القصيدة ولا أطما إلا مشيداً بجندل .

أما الرواية الثانية : بكل مغار الفتل شدت بيزبل ، فأفضلها لأسباب
عدة أسردها وأترحم على « سنا » الخنساء : فكل أداة العموم ، ومغار
ألقى بعربي جاهلي لأنها من الغارة ، والفتل فيها متانة وقوة يتطلبهما الشاعر
ومعناه ، ويزبل تدل على (لون محلي) لا أثر له في صم جندل ، التي تصلح
لكل مكان ، وفي تركها النجاء من تكرير القافية ، وبكلمة وجيزة أرى
الصورة الثانية جاهلية لفظاً ومعنى ، ولا نخوجنا إلى تقدير وخروج .

(١) فانزل منه العصم من كل منزل
وكم بالقنان من محل ومحرم

(٢) فمر على القنان من نفيانه
جعلن القنان عن يمين وحزنه

بيد أن كل هذه هنات لا تنقص ذرة من قدر الكتاب الذي نعهده بحق
ذخيرة أدبية ، لا شك فيها ولا ريب . فلمؤلفيه أطيب الثناء على هذه
الجهود الطيبة ، فحسن اختيارهم في مصنفهم دلنا عليهم كما تدل الصورة
الرائعة على نفسية المصور الحاذق . وما في خياله من عرائس فاتنة ، لولا
ريشته ما اجتليناها .

فليت الحكومة تعضد بكل قواها مديرية المعارف التي تعمل صامته ،
وإذا تقدم مئات لامتحان وظائف ضئيلة فهذا (لا يحزن) . المحزن ألا نجد
أكفاء يضطلعون بأعباء الوظائف . المحزن أن نضع في المناصب من لا
يصلحون لها . والمحزن جداً أن يشغل واحد عدة مناصب بيننا الأكفاء
ينشدون الرغيف وهي تركض أمامهم ولا يلحقونها : أراه غباري ثم قال
له الحق . . .

والمضحك والمبكي معاً أن يشقى هؤلاء المتبارون ، وحائر قصب
السبق معروف . هذا إذا صح ما يقولون . أما أنا فلا أعلم شيئاً عن دواخل
هذه الدولة .

علي بن الجهم - تحليل مردم بك :

لقد تجهم وجه المطبعة للشاعر علي بن الجهم دهوراً ، فظل تائهاً في
مجاهل المكتبات حتى انبرى له العلامة خليل مردم بك ، فلم شمله الشتيت ،
وجمعه في كتاب أخرجه المجمع العلمي العربي الدمشقي إخراجاً شريفاً .

لا يقل جهد الأستاذ مردم عن جهد الأب صالحاني في جمع شعر الإخطل
وتحقيقه . وحسبك من الأستاذ تلك المقدمة العنيفة التي صدر بها هذا الديوان ،
فدرس الشاعر وبيته ، وما كان يحاك له من دسائس تحت سماء قصر المتوكل

سعى البحري وغيره من شعراء المتوكل في شاعره ابن جهم . فأُسي في السجن بعد أن كان سمير الخليفة ونجيه . ثم يعن هؤلاء الشعراء في الكيد له والدمس عليه فيصلب ابن الجهم الشاعر عرياناً يوماً كاملاً . . .

وتدور الدائرة على الخليفة المتوكل فيغتاله خدمه . فيرثيه ابن الجهم مخلصاً . متناسياً ما لحقه من اضطهاد .

وهكذا أُرانا الأستاذ مردم بك شخصية ابن الجهم متينة الأساس ، فلم يتحول عن ولائه للخليفة الذي أحبه ، بينما نرى البحري الذي قال : « ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي » إلى آخر البيت ، قد راح يمدح الغادر وينال جوائزه . . .

وبعد تصفح الديوان رأيت أن هذا الشاعر الذي باري البحري وزاحمه قد كان يحاول الخلق والإخراج غالباً ، فهو مرید غير عادي ، لا يسوق قصيدته على الطريق المعبدة كالبحري ، بل حاول في قصائد عديدة أن يبدع في سوق شعره ، فما أشبهه بلبيد في صدر معلقته .

كنا نسمع بهذا البيت :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أما اليوم فنقرأ هذه القصيدة الذائعة الصيت مرتين في هذا الديوان الطريف ، وتلك ثمرة التحقيق العنيف الذي عانى مشقاته الأستاذ مردم .

وكنا نقرأ هذا البيت وبعض أبيات آخر :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبسي وأي مهنة لا يغمد
أما اليوم فنستطيع أن نقرأ كل هذا الشعر على وجه الأتم ، ونتعرف إلى جميع نواحي الشاعر الطريف الطريف ، فرى أن البحري لم يتفرد

في وصف القصور ، وأن تفوق . ثم نسمع ، أيضاً ، شاعراً يصف نفسه
مصلوباً عرباناً ، وهذا موضوع طريف . فيقول :

نصبوا بحمد الله ملء عيونهم شرفاً ، وملء صدورهم تبجيلاً
ما عابه أن بزّ عنه لباسه فالسيف أهول ما يرى مسلولاً
أن يجسوه فليس يجبس سائر من شعره يدع العزيز ذليلاً

لقد صدق الشاعر الشريف حين رثى الذي صلبه عرباناً ، وحمل على
من غدروا به تلك الغدرة الشنعاء .

كان ابن الجهم مر اللسان غير هباب . وقد يكون هجاؤه هو الذي
سبّب متاعبه تلك ، ولكن الحياة تدفع المفارد من بنيتها في سبيل تحسينها
وارتقائها . . . وحسبك أن تسمع هجاءه لابن الزيات : ذلك الوزير الجبار
الفتج ، قال :

أحسن من تسعين بيتاً سدى جمعك معناه في بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

ولم يطل الزمان حتى جاءت المطرة ، بل « المازوخ » وجرف ابن
الزيات .

إنني أهنيء الأديب الشاعر خليل مردم بك على هذه التحفة السنية ،
جزاه الله والمجمع العلمي العربي بدمشق خير الجزاء ، ومن أجدر من
الحلف بإحياء آثار السلف ؟ والفضل يعرفه ذووه وهذا هو الوفاء الحق
للغة والأمة .

شجرة الدر - لسعيد العريان :

قصة تاريخية بطلتها امرأة جبارة ، كانت جارية ثم صارت أم ولد ، فملكة ، فحاكمة بأمرها في أرض مصر ، ثم انطلقت تلك الشعلة كما ينطفئ الطغاة المغامرون .

ألفها الأستاذ سعيد العريان الذي يذكرني ، أسلوباً ، بالمرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وإن خلت عبارته من ذلك النحت الذي كان يتعمله الرافعي في الصياغة .

أما القصة فمحبوكة حوادثها ، مطرد سياقها . تظهر أشخاصها ، بلا تكلف ، حيث يريد المؤلف ، فيخيل إليك أنك تقرأ تاريخاً مدققاً .

الحركة مستمرة فلا يقف المؤلف ليظهر فصاحة وبلاغة كما يفعل الكثير من القصاصين ، ولعل حركة أبطاله وحوادث قصته قد أغنته عن ذلك . فهنا رجال ونساء يتكلمون ويعملون كأنهم في دنيا الواقع .

يفر المؤلف فرأ من حادث إلى آخر ، لا يعوقه شيء . يوطئ السبل لموكبه الفني بما يصطنع له من فجوات تغني عن اللف والدوران ، حتى إذا ما بلغ الوقعة الحاسمة بين الصليبيين والمصريين وصفها وصفاً خاطفاً أرانا الصورة كاملة .

رسم بقلمه صورة لتلك المعركة الضارية فجاءت بارزة الملامح ناتئة الخطوط ، حتى تخالها تتحرك أمام عينيك .

كتب العريان صفحات بليغة لا عيب فيها ، غير مثل قوله أتحيراً في وصف بيبرس : وجال بسيفه في الرقاب يقصد الضلوع ، ويشق المرائر ، ويطيح الهام ، ويجندل الأبطال .

إنها عبارات تافهة تحسبها تؤدي شيئاً عظيماً وهي لا تؤدي شيئاً .

أعجبني من الأستاذ العريان استعماله حدثيني بدلاً من حدثني . كما يقول من لا يحيدون عن الطريق المعبدة قيد شعرة . لقد أشبع الجاحظ هذه التاء قبلنا وأخرج كسرتها ياء ، كما يلفظها العوام ، فما علينا نحن لو فعلنا مثله ؟

أما قال السلف قبلنا ضربتموهم - وقد مر ذكر هذا - فاشبعوا الضمة متوخين جمال اللفظ وليونة اللام ؟

أما مغزى قصة شجرة الدر فهو أنها تعرفنا كيف تشق العبقرية طريقها في مجاهل التاريخ حتى يقول الخليفة العباسي حين سئل الاعتراف بولاية شجرة الدر : « إن كانت الرجال قد عدت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً . . . »

أما أسلوب القصة في جملة فمن عريان الكلام ، كما قال يديع الزمان في الجاحظ . براعته في إيجازه الخاطف .

يقول صاحبه في صفحة صغيرة ما لا يقوله غيره من القصاصين في صفحات كبار ، وحلاوته في سهولته .

أما استعماله « انقضت » و « ارهاصاً » فقد حرت في تعليقه واكتشاف سره . . . فما لنا ولهذه الألفاظ التي ماتت وتحت عظامها . . .

الحياة والشباب – للأستاذ واصف بارودي :

روائح الجنة في الشباب ، هذا رأي أبي العتاهية في الشباب ، أما الأستاذ واصف البارودي فحتم كتابه هذا « الحياة والشباب » بثلاثة أبيات لشاعر آخر ، منها هذا البيت :

حتى انقضى طور الشباب فإن لي إن الشباب هو التعميم الأكبر

أما أنا ، وما انقضى هذا الطور عندي بعد ! ! . فأميل إلى تأييد أبي العتاهية . الرأيان وجيهان ، وأوجه منهما كليهما ما سعى إليه الأستاذ بارودي المرابي الكبير ، إلا وهو تعهد الشباب بالتربية الصحيحة لتستفيد الأمة من « طاقة الشباب » ، فهي قوة ، إذا ادخرت ، تهدم وتبني .

إذا أطلقنا على الأستاذ بارودي لقب المرابي الكبير فبحق نطلقه ، لأن هذا الأديب قلما كتب ، وقد يكون لم يكتب أبداً في غير التربية والتعليم . قد لا يكون دكتوراً ولا مجازاً في هذا العلم ، ولكنه « اجتاز » بياعه وذراعه وبلغ بكده وسهره ما أدركه من رسوخ قدم في علم التربية ، ومن مقام أدبي محترم لدى أهل الفكر . فهذا الدكتور طه حسين يقدم كتابه هذا ، ويوصي الشباب بقراءته حتى يقول : « وما أجدر وزارات المعارف في البلاد العربية إن تمكن الشبان من قراءته وفهمه وذوقه » .

كانت كتب الأستاذ البارودي الماضية مقالات وفصولاً مضمومة في كتاب . أما كتابه « الحياة والشباب » ، فمؤلف تربوي قيم تربط جميع فصوله وحادثة متماسكة ، وهو حافل بالآراء الحصيفة الخاصة المؤيدة بآراء علماء التربية العظام . إن جميع كتب البارودي تهدف إلى خلق الرجال في أمة هي أحوج ما تكون إليهم . وإذا نظرنا إلى التفكير في هذا الكتاب الحديد رأينا مؤلفه يعني بما لم يفكر به غيره . حاول ،

مستعيناً بأساليب السلف أي كما كانوا يصنعون في العصر العباسي مثلاً :
أن يحصر بعض ألفاظ في نطاق الاختصاص ، فقام يفرق بين لفظي الحضارة
والمدينة ، والجهل والجاهلية ، والحياة والمعيشة ، حتى اختص ما يسمونه
« اللاوعي » بكلمة الفؤاد ، وأيد زعمه ، معجماً ، بلقطة فأد ، لأن هذا
الحرف يفيد الخفاء والإنضاج . فالفؤاد إذن كلمة تلائم جداً ما يسمونه
« اللاوعي » والعقل الباطن ، لأن الأفكار تنضج فيه على مهل . . .

وهذا الكتاب الحديد مطبق على الحوادث ، فمفتش التربية اللبنانية
العام أقوى شيء فيه عيناه ، ولهذا تراه ، قوي الاستنتاج يؤيد مزاعمه
بحوادث واقعية طافحة بالعبير على طرفتها ولذة مطالعتها التي تفكّه القارئ .
فهي تنفع المفكر في الحياة سواء أكان أباً أو أمّاً أو معلماً . فكتاب « الحياة
والشباب » كتاب الجميع ، جزى الله مؤلفه خيراً ، وإن كان أقصى ما
يرجوه من الخير هو أن يرى شباباً صالحاً في أمتنا العربية المحتاجة إلى العقول
السليمة في الأجسام الصحيحة .

وبعد ، فلا يضير هذا الكتاب ما فيه من أخطاء مطبعية كثيرة ، ولهذا
لم نتعرض للغته ، كعادتنا في النقد ، لئلا نكون من الظالمين .

تاريخ الشعوب الإسلامية خمسة أجزاء :

هذا كتاب العلامة بركلمان . أصدرته دار العلم للملايين الحريصة على نشر كل نافع . ترجمه الأديبان الدكتور نبيه فارس والأستاذ منير البعلبكي . الكتاب قيم وهو درس صحيح للجنس العربي ومحيط العرب وحضارتهم الأولى واحتكاكها بغيرها . يتناول بالدرس المفصل « محمد الرسول » ثم « محمد وتعاليمه » والأمويين حتى نهاية دورهم .

ليس لي أن أناقش الأستاذ بركلمان فقد كفاني مؤونة ذلك الدكتور عمر فروخ فوقف له بالمرصاد . كما نقرأ في الحواشي الكثيرة التي علقها على الجزء الأول . ولكن لي ملاحظة على اسم علم واحد وقع الخطأ فيه : وهو « باراق » الوارد في الصفحة الحادية والثلاثين . لا أدري من الذي أخطأ في ذلك : أهما المترجمان أم المتمشوق بركلمان . فالذي طلب من بلعام صاحب الحمارة الشهيرة الوارد ذكرها في التوراة - سفر الخروج - هو بالاق لا باراق . فباراق يأتي ذكره فيما بعد في سفر القضاة . وليس هو من معاصري بلعام صاحب تلك الحمارة الفصيحة اللسان . . . وعلى كل فهذه هنة لا نطالب بها لو لم تكن صادرة عن يتبنون البحث العلمي مثل الأستاذ الشهير بركلمان . وأحد المترجمين الأديبين الدكتور فارس .

لقد أعجبتني صحة عبارة الكتاب ودقة ترجمته ، ولكنني استغربت كيف لم يقل المترجمان « سخرة » بدلاً من هذا التعبير الكيس : وعلى ضفة دجلة اليسرى شيد الخليفة عن طريق حملة واسعة على العمل الإلزامي .

أليست هذه الحملة الواسعة هي ما نسميه سخرة ؟ ألم تكن تلك خطة ملوك ذلك الزمان : زمان الرق والاستعباد ! ! ومن حاد عنها من أصحاب السلطان حتى يحيد عنها خلفاء العرب ؟ هكذا بنيت المساجد الكبرى والكنائس العظمى . وها هم أنبياء العهد العتيق يذكرونها بمرارة وألم . حسبنا أن نقرأ سفر أيوب لنذكر بعض الشيء . كم شقي الناس بملوكهم . وإن كان لي ما يقال من حيث التركيب فأصرح أن قولهما ، في مقدمة الجزء الثالث (ففي حيثما) لا يعجبني . لأنني لا أرى داعياً لأدخال (في) على حيثما : ف (حيثما) وحدها تؤدي المعنى . وهناك أيضاً عبارة أخرى وهي : (يعم وجهه) لأن (يعم) لا تستعمل هكذا . ثم قولهم (ص ١٣٧) : (صار في مقدور السلطان أن يوجه إلى المعركة أسطولاً) . فصار في مقدور السلطان عبارة ساذجة لا تلائم جارتها : (وهكذا فتّ في عضد البنادقة) . وقد رأيت شيئاً مثل هذا في ترجمة الدكتور حتى (ص ٣٠ ج ١) حيث تراكمت حروف الجر في إحدى عباراته تراكماً بشعاً ، لم تقع عيني بعد على مثله . ودونك نص تلك العبارة : وهي (خصلة أخرى فيه تمكنت منه إلى حد تعذر معه عليه أن يرفع مستواه) .

وهناك أيضاً عبارات أخرى قلقة ولكنها أقل خطراً . وبعد فإن المؤلف بركلمان في غنى عن شكرنا لأن عنده من يشكره ، أما المعريان فارس وبعليكي فيستحقان أجزل الشكر لأنهما أغنيا المكتبة العربية بكتاب هي في حاجة ماسة إليه . لقد صار لنا مرجع تاريخي نعول عليه فلا نضيع في فياني التواريخ القديمة في الساعات العصبية وعند الحاجة المفاجئة . ناهيك بما فيه من تمحيص وتدقيق ، فعسى أن يفكر الأستاذان الأدبيان بمشروع آخر نافع كهذا ، ولا بأس عليهما أن صادقا عناء ، وأنفقوا وقتاً طويلاً في سبيل منفعة الأمة وإرشادها إلى تاريخها الذي هو خير معلم للشعوب .

« الذات المقبلة » كتاب ، فيأس ، فانتحار :

ما أبصر هذا الكتاب النور حتى التفّ صاحبه بالظلام . أطلقوا على القصيدة التي مطلعها : هل في الطلول لسائلٍ ردّ . اسم اليتيمة . ونحن بحقّ نسمي كتاب (الذات المقبلة) اليتيم . فمؤلفه السيد عازار نهر لم يكن رزقه من شقّ تلك القصبة بل من فكي المقص . ثمّ عنّ له أن يكتب كتاباً فكتبه وكان عنوانه الذات المقبلة : أي الإنسان الأسمى العتيد الذي تحدث عنه نيتشه في كتبه العديدة . ولكنّ إنسان عازار جاء فوق العقل والفكر والخيال . . .

يعتقد عازار أن إنسانه هذا سيصبح في قابل بكر الوجود وإله المنتظر ، وهو يقول . وهذا مكتوب فوق اسمه رسمه في صدر الكتاب : طلاب المعرفة عبيد . أما الأحرار فيخلقون المعرفة .

في الكتاب عناوين ضخمة مثل : المحطة الهيولية الكبرى . الذات الهيولية الكبرى . الخيال الأعظم . الإنسان الدرّي . أمواج الحياة الخ . أما أبحاثه فتتناول العضلات التي عجزت عن حلها الأدمغة البصرية الكبرى . ويحلها عازار على عقله حلاً قاطعاً جازماً كأنه يحكم في قضية رياضية لا تقبل البحث والجدل حتى يقول : إننا لن نعجز في الغد عن الوصول إلى قمة رسالة (الذات المقبلة) فنبدع أخاً جديداً لنا .

وقع كتاب الذات المقبلة في يدي ، وما فتحته حتى قرأت في مقدمته :

لقد أعجبتُ بفكرة الذات المقبلة إحدى الهيئات العلمية الأجنبية فسلطت عليّ أحد رجالها كي يغريني بمبلغ من المال فأتنازل عنها وعن اسمي لتلك الهيئة . ولقد زخرف لي الرجل التنازل عن حقي حتى أنه رفع المبلغ إلى مئة ألف ليرة لبنانية فكانت معركة بيني وبين المال الخلاب انتصرت أخيراً فيها عليه ، وأبيت أن أعطي غلة عمري إلى غير أبي لبنان .

وبلا شعور أطبقت الكتاب ورحت أفكر في المؤلف عازار نهرا . ماذا دهى عازار . أمس التقينا كالعادة عند الحلاق وهو لا يزال هو . الابتسامة لا تفارق ثغره والحديث العذب ملء فيه . فماذا يقول هنا !!

وبعد يومين علت الصبيحة والولولة في الحَيّ : عازار صبّ البترول على جسده وقال للنار : كلي واشبعي . وإذا يجسمه الغض يتنكر لمن يراه ، ثم كان يومه في عاليه صارخاً .

لماذا انتحر مؤلف الذات المقبلة ؟ ! سرُّ بقي غامضاً . ما ترك الرجل وصية ، ولا قال شيئاً ، ولكنني فهمت من خلطائه أنه كان يردد دائماً على مسامعهم : يجب أن يموت الإنسان في شبابه .

وعدت إلى كتابه لأرى ما يقول في الموضوع ، فإذا بي أقرأ : « لو عرف الإنسان الحقيقة لما خشي الموت ، ولما ظنه عدواً لدوداً ، بل لرحب بمقدمه كما يرحب بضيف عزيز . الموت فترة راحة يحدد فيها الإنسان نشاطه ، مستعيناً بتجاربه الماضية على البحث بطريقة أجدى . يموت المرء كلما مات ماضيه ، وما الحاضر إلاّ فترات ميتة بكل ما يبلو فيها من مظاهر الحياة . إن موتة الإنسان مرحلة صغرى من مراحل حياته . الموت رقدة لعودة ، أفما نطلب جميعاً هذه الرقدة دفعة واحدة على أمل العود ؟ أما يجدر بنا أن

نحب الموت طمعاً بإبداعنا المبتكر بعده . وبإكثار منتوجاتنا المرفهة عن
ذاتنا المقبلة « ؟

هذه حكاية مصرع صاحب هذا الكتاب . أما الكتاب ففيه لغة شاعر
ولهجة نبي . ولؤلؤه في تكوين (إنسانه الذرّ) رأي طريف ظريف .
فهو يزعم إن العمر يطول . والطاقة تقوى بالنسبة إلى وزن صاحبه . فلو
قلصنا هذه الزوائد التي ضخمت أجسامنا حتى يصير وزن الإنسان . بعد
بعد آلاف السنين . نحو ست إقات تظهر ذاته المقبلة الثالثة وينال السعادة
السرمدية . . .

فالذات المقبلة عند المؤلف (ثالوث) كما يظهر . أما هيولى الذرة
فهي عنده جديرة باسم إله . وكما كان للقديس . ثالوث جاء عازار يقول :
إن الروح والكون والهيولى العاقل وهيولى الذرة والذرة تؤلف إلهاً واحداً .
قلت : فما علينا لو سمينا هذه الأسماء الخمسة الجديدة (خاموساً)
على وزن ثالوث ؟ ! إن مؤلف (الذات المقبلة) يؤمن بل يوقن أن كتابه
يتحدثى جميع الثقافات العالمية ، وهو يعني بالثقافات الأديان وإن لم يسمها
باسمها .

وبعد فالكتاب طريف يسلي ، تشفع حلاوة تعبيره بما فيه من هنات
ولعل صاحبه فكّر في مجازاة علماء الذرة فأرشدنا إلى خلق إنسان ذرّي ،
بتزويل وزنه بعد دهور إلى ست إقات ! !

وفي الكتاب خطوط شتى تعين على فهم عويص أسرارهِ ، وما أحلى
القول (والله أعلم) في هذا المقام .

غفر الله لك يا عازار ، وسامح فلسفتك التي قضت عليك . أمتّ
نفسك ليحيا كتابك فمتاً معاً . وما أكثر الفلاسف عندنا ، فقلما نرى
حامل قلم لا يفلسف ! !

معجم الألفاظ العامية - للدكتور أنيس فريجة :

هذا الكتاب استقيت مواده من اللهجة اللبنانية . ولم يخرج فيه مؤلفه الدكتور أنيس فريجة عن دائرة اختصاصه . فهو أستاذ اللغات السامية في جامعة بيروت الأميركية . اقتضى هذا الكتاب مصنفه جهداً كبيراً . وإن لم يتعد فيه - كما زعم - الألفاظ والتعابير الدائرة على السنة أهل ضيعته . فليس رد هذه الألفاظ إلى أصولها بالأمر الهين . وإذا كان لي ما أقوله . فهو أن ألفاظاً كثيرة . بل أقول أن ألفاظاً لا تحصى قد عدها الدكتور عامية وهي من كلام الفصحاء . لنأخذ مثلاً الصفحة العاشرة وحدها . ففيها لفظة برنس التي عدها الدكتور عامية يونانية ، وقاموس لاروس يقول إنها عربية . وقد اشتق منها بديع الزمان في مقامته المكفوفية اسم فاعل فقال في وصف بطل المقامة : متبرناً بأطول منه . أما بزق وبزل . وبزاقة وبرنية فهذه كلمات عامية فصيحة جرت على لسان فصحاء العرب . ومثل هذا غير نادر في كل صفحة من صفحات الكتاب البالغة المتين إلاّ خمساً .

والدكتور يقول في مقدمة كتابه هذا أنه يصعب على اللغوي أن يوجد لفظة بمعنى بعض الألفاظ العامية ، وضرب مثلاً على ذلك فعل (لوق) مع أن هذا الفعل هو تحريف لوى . ثم يتساءل الدكتور إذا كنا نستطيع أن نجد مرادفاً لفعل بعج . ولعله لا يستغرب إذا قلنا له : نعم وهو بعج . ذاكرين له قول واصل بن عطاء عن بشار : أما لهذا الأعمى من يبعج بطنه ؟

لا ننكر أن الألفاظ العامية تؤدي معانيها تأدية تامة . غير أن هذا لا يعني أنه ليس في اللغة الفصحى ما ينوب عنها ، ولكن بعد عهدنا بتلك الألفاظ ، وشرح المعاجم لها شرحاً مبهماً رديئاً أضاع من قوتها وزخمها .

ويخلص الدكتور فريجة في نهاية مقدمته إلى رأي يبنيه على كلمة مأثورة . « ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم » . فهذا الرأي إذا عمم

تصير اللغة فوضى . أما الرأي الوسط . فهو أن نتوسع في معاني الألفاظ
إذا فتح لنا المجاز باب فرج ، وأما أن نلمّ ألقاظاً من هنا وهناك ونحتج بالقياس .
فهذا هو الانحلال بعينه . وأرى أن إقبالنا على العامي الفصيح يكفيننا مؤونة
تفصيل جديد على القياس

بارك الله في عمر الدكتور العزيز الذي أتحفنا بهذه التحفة السنية والشيء
من معدنه لا يستغرب .

الرماد الأحمر – لجبران الخوري مسعود :

مجموعة أقاصيص للكاتب جبران الخوري مسعود . إن مسرح هذه
القصص هو القرية لا المدينة . وصاحبها ليس ممن يؤمنون بنظرية الفن
للفن ، ويرى إن الحياة نفسها تبديها ، فعلى القصاص أن يصور الحياة كما
هي بأسلوبه الخاص كي تكون ذات تأثير فعال عليها تصلح ما قد فسد .
ويقول « ولن أرضى بنظرية الفن للفن إلاّ عندما يصل الإنسان إلى درجة
مماثلة للألوهية . فعندئذ . وعندئذ فقط . نستطيع أن نترك التوجيه أو
العمل لنجعل من الأدب فناً لا هدف له إلاّ الفن » . قلت : فلنتنظر
معه ، إلى يوم ينفخ في البوق .

وسرت في مقدمة الرماد الأحمر ، فإذا بي أبلغ دستور النقد الذي
وضعه المؤلف . فقرأت من بنوده أولاً ، وثانياً ، وثالثاً . وما انشيت عن
عزمي . أما عندما بلغت رابعاً وفيه يقول : على الناقد أن يتفرغ لنوع واحد
من الأدب فيكون إما ناقد قصة أو ناقد شعر أو مسرحية . ثم خامساً ، وهنا
البلاء ، وهو الذي كاد يحول دون قول كلمتي في قصصه ، قال : « عني
الناقد أن لا يكون أديباً ، وأعني هنا ألاّ يكون مؤلفاً . فناقد القصة ، مثلاً ،
يجب أن يكون ناقد قصة فحسب ، وليس كاتب قصة في نفس الوقت » .

أعترف أنني وقفت محتاراً لا أدري ماذا أفعل . ولكنني لما عدت إلى عبارة الإهداء هذه : « هدية كيماوية إلى مختبر باستور الأدب الأستاذ مارون عبود » أجزت لنفسي مخاطبة الأستاذ مسعود بلغة المختبرات المقتضية :

لقد خرج كثير من قصصك . بعد الفحص المجهرى . سالماً . أما أنقاها دماً فهي تلك القصص التي فيها حب وغرام لأنك تعيش في هذا الطور . والشيء في أوانه لا يستحي . فأكثر من هذا النوع وقتل من هناك . أو أجله إلى حين يأتي وقته . . . قد لحظت أنك أفلحت أحسن فلاح في القصص الملائمة مزاجك اليوم . وإن كنت لم تقصر في القصص الإخبارية مثل « سحمر ويحمر » و « الراحل الليلي » . و « يا سامعين الصوت » . ولكنك لم تجد هنا كما أجدت هناك . فاعمل بنصيحتي ولا تجعلني - كما جعلني بعضهم - من زمرة المنتظعين المتعتين . وإني أعدك قريباً بتحليل كيماوي دقيق جداً لأنك تستحق ، ولا يكون هذا إلا حين تطبع مجموعة ثانية . . .

كتاب الحوارى - لجبور عبد النور :

هو إحدى حلقات سلسلة اقرأ النفيسة . أما مؤلفه فهو الأستاذ جبور عبد النور - والدكتور اليوم - اشتهر الأستاذ بأبحاثه العميقة المستوفاة جميع الشروط العلمية الحديثة . وهذا الكتاب الطريف فريد في بابهِ ، جامع ، على صغر حجمه . أصناف الحوارى من جميع الملل والأجناس . الكتاب مبوب يغني الأدباء عن مراجعة مئات الكتب فكفاهم مؤونة المطالعة العنيفة في عصر يسميه الناس عصر السرعة . عرف القراء بجموع حوارى ترتخي نفوسهم حين يقرأون أخبار جمالهن ، ورنخامة أصواتهن . وفصاحتهم وبراعة حديثهن التي أدركن بها نفوذاً خطيراً اهترت له قوائم العروش وسواعدها . . .

فيقولون : ليتنا كنا في ذلك الزمان . زمان الأدب الصحيح . ولم نخلق في عصر الطقاطيق والمواويل التي تمط كل كلمة منها مطاً ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف . . . ثم لا تزال تجرّها الأفواه . وتعددها حتى تبلغ الحناجر آخر السكونة . فيعيل الصبر وينشف الصدر .

إن كتاب الجوارى لذر مغزى سياسي اجتماعي . فهو يدلنا على السوس الذي نخر جذع الأمبراطورية العربية ويرينا أن الدخيل هو الذي قرص نبتة ما أن يوازي بأعلى نبتها الشجر . كما قال الأخطل . وإن الأثني التي كانوا يعبرون عن زواجها بأحد الأمراء بقولهم : وكانت تحته فلانة . قد صارت فوق الفوق . . . امتدت يدها إلى أسمى مقدرات الدولة والأمة . ففرقت أخوة جمعتهم الأبوة . ورفعت رجالاً ونصبت آخرين . ولا تسل عن الذين جرّتهم مشيناً . . . يقول المثل : البنت لأمها . أما الحقيقة التي يرينا إياها « كتاب الجوارى » فهي أن الابن أيضاً لأمه . والتاريخ على ما نقول شهيد .

أما لغة الكتاب الموما إليه فصافية نقية لا غبار عليها . وما أخطأ ما فيه من أخطاء إلا مطبعية يدركها القارئ النبيه . فللمؤلف تهنئي الخالصة .

حديث الصومعة - لإبراهيم الدبّاغ :

مجموعة تحتوي على ثلاث عشرة رسالة نابضة بالحياة كتبها الشيخ إبراهيم الدبّاغ إلى ابن أخيه الأستاذ مصطفى ، ولو كنت من المجددين في الشاؤم لما قاربت هذا الرقم ١٣ .

في هذه المجموعة الطيبة أدب وفكاهة ونقد وفلسفة ، كما قال ناشرها ، وأما خير ما فيها ، في نظري ، فهو تلك الحياة المنبثقة من روح كاتبها النسر الجريح الذي يقول لابن أخيه في آخر الرسالة السابعة : « أنا اليوم من زبائن الصيدليات والدكاترة وجمعية الإسعاف مقسماً عليها وعلى الباقين

بالسوية . ومتى شفي ما تحت الإبط ، وعلى الإصبع السبابة أعود فأسترجع ما أخذوه من دمي وجسمي دون مالي « . . .

وفي الشاعر الدباغ يقول صديقه محمود تيمور في مقدمة « حديث الصومعة » معرفاً القارئ عليه : « إذا استنشدت من قريضه أنشدك قلائد وخرائد . فتسمع شعراً رقيقاً يفيض بصدق العاطفة ، في ديباجة عربية المتزع ترجع بفصاحتها إلى عصور العربية الزواهر . وانه ليسهل عليك أن تعرف طابعه في شعره ، وأن تميزه من غيره من الشعراء بخصائصه التي لا ينازع فيها منازع » .

فإذا كان الأمر كما قال تيمور – أقول هذا لأنني لم أقرأ شعراً للدباغ – كان هذا الشيخ رحمه الله من شعرائنا الأفذاذ ، وحسبه أن يكون ذا طابع خاص ليكون فذاً .

أما ما لاحظته في أثناء تصفحي رسائله الثلاث عشرة ، فهو أن نفس شيخنا خضراء رغم أنف الهرم ، وشاخ وهرم وبقيت نفسه قابلة للصور الجديدة . ولكنها تختار كيف تستسيغها وتهضمها . تأمل ما كتبه لابن أخيه ليثنيه عن ديوان ابن الاحنف وابن أبي ربيعة ، دالاً إياه على الدواوين التي تحسن مطالعتها : « وحبذا لو انصرفت رغبتك ورغبة الأدياء أمثالك إلى الفحول الذين سارت بهم الركبان ، وضربت إلى دواوينهم آباط الإبل . أقول هذا مع وجود القطار والطيارة والسيارة والموتوسيكل ، فهل أقول معترضاً عن ضرب آباط الإبل ، امتلاً جوف القطار بالفحم ؟ وفؤاد الطيارة بالبتيرين ؟ فمهلاً يا بناء التجديد ، ودعاة الهدم بعد بناء الأدب العتيد » .

إن هذه الرسائل على قلتها تحتوي على آراء صريحة يبيدها صاحبها في معاصريه كما يأمره الضمير وليس معاصرو الدباغ بالقليلين ، ناهيك أنه تناول الكثيرين من القدماء غربيين وشرقيين .

لقد أحسن ابن الأخ في جمع رسائل العم . وليته يجمع ما بقي منها .
ففي الرسائل مفتاح ما ينسد بوجهنا من أبواب صروح الشخصيات المتمردة .
وإذا كان لي ما يقال - وهذا لا يمس قدسية الشيخ الوقور لا بل هو
لا يرضى عنه إذا رآه - وما ذاك إلا هفوة مطبعية كما جاء في الفهرس :
الرسالة الحادية عشر . والثانية عشر . والثالثة عشر . ومن يحتمل غيري
رقم ١٣ مع الخطأ . . .
أنقذنا الله من خطيئات الطبع بالمعنيين . . .

يوميات هالة لسلمي الحفّار :

كتاب مصقول الديباجة . جميل التعبير والأسلوب . فكأن العبارة
قد أسلمت قيادها لكاتبته الأدبية السيدة سلمى لطفي الحفّار .
أما مواضعه فمعروفة من عنوانه . أنا ممن يرون أرجاء إصدار اليوميات
إلى طور الكهولة ، فليس سن الشباب سن يوميات وذكريات . الشيخ
يعيش في ذكرياته . أما يوميات هالة فعذرنا أنها ليست تلك اليوميات
الكثبية ولكنها أحاديث وحوادث وطنية تدلنا ، قبل كل شيء ، على
مساهمة المرأة السورية في شؤون الحياة وشجونها . فحسب الأدبية سلمى
أنها أرتنا لوناً طريفاً حين وصفت لنا أول حفلة زفاف شهدتها بكلام شائق
طريف يبشرنا بمستقبل باهر يؤهلها له أسلوبها الناصع . أما الشهادة في
يومياتها فهي منشورة في الصفحة المائة والأربعين حين يقول لها والدها في
رسالة بعث بها إليها من المنفى : « صديقنا الأستاذ بلوي الجبل كلفني
أن أبعث إليك يا هالة ، بتهنئته على يومياتك هذه ، وإن تكن لا تخلو من
بعض الملاحظات القليلة ولكنها من الهنات الهيئات » .

قلت : وشهد شاهد من أهله ، أما أنا فأشهد أنني لم أرَ شيئاً من تلك الهنات الهيئات ، ففعل السيدة سلمى تداركتها حين اشتد ساعدها : قألى الأمام ، فسماء الأدب محتاجة إلى نجوم أكثر من هوليود .

عقلي دليلى - مليحة اسحق :

هذه قصة صغيرة الحجم كتبتها الأديبة مليحة اسحق العراقية ، عنوانها « عقلي دليلى » وما أجمل أن يكون عقل المرأة دليلاً . ولكنني أشك في هذا ليس عند المرأة فقط بل عند الجنسين ، فمتى طغى القلب أغرق العقل وعفى عليه . تقول مؤلفة « عقلي دليلى » إنها قصة امرأة ، وأية قصة ليست قصة امرأة ! فالحياة كلها قصتها ، من عهد التفاحة يوم كانت ستا حواء أمية إلى عهد مدام كوري العاملة الفذة .

نبيلة بطلة قصة مليحة ، وقد جاهدت جهاد النساء الفضليات ، وإن عدلنا قلنا أنها أخت الرجال ، ولكن ما ترجوه الأديبة مليحة ، وقد عبرت عنه في آخر كلمة من قصتها : « عزاؤك بأنك سبقت تلك الأجيال القادمة التي ستحتل هذه الأرض التي سوف لن تسير إلا على ضوء العقل ونوره » .

لا يا سيدتي . إن حظ العقل ضئيل ، كما قلت في غير مكان من قصتك هذه . وإنني أرجو أن تكون عبارتك لا غبار عليها متى كتبت في قابل . فالفصاحة والبلاغة من عناصر القصة الخطيرة . سلمت يدك ، شرط أن تعجبها أكثر من الغد ، فتتفحي وتتفحي .

- ٢ -

وهذا كتاب آخر « ليالٍ ملاح » للكاتبة مليحة اسحق ، وكل ما أعرف عنها أنها من الجنس اللطيف . رأيتها في لياليها الملاح تلقب نفسها

فتاة الإنسانية كما سمي النبي حزقيال نفسه « ابن البشر » . الكاتبة موهوبة ولياليها ملاح ، وفصول كتابها هذا تتأرجح بين القصة والمقالة . وهي تعتمد فيه الأسلوب الشعري .

في المقالة الأولى من لياليها أخطاء لا أخال بعضها مطبعية ، وقد لفت نظري تعلق الكاتبة بالمعري وراثتها وحبها له ، في حين إنني لم أرَ على صورتها مسحة معرية . . . فروحها مرحة ، وأسلوبها لا تجهم فيه . إن مخيلة الكاتبة مليحة اسحيق ذات شأن . فليت النحو والصرف يتقادان إليها انقياد الموضوع ، لتفوز بالمعنى والمبنى معاً . أقول هذا . وان كنت رأيتها في لياليها الملاح أصح وأبلغ تعبيراً منها في قصتها « عقلي دليلي » . ولعلها تحقق في كتابها الآتي كلمتنا المقولة : الثالثة ثابتة .

النشيد التائه – ثريا عبد الفتاح ملحس :

عنوان كتاب ألفته الآنسة ثريا عبد الفتاح ملحس وأصدرته « دار الكتاب » بحلة أكثر من قشبية . إن كاتبة هذه الأناشيد جبرانية الطريقة في التفكير ومحاولة التعبير ، والتصوف . وإن فاتها الكثير من ألوان جبران وموسيقاه .

في أسلوب الآنسة غرابة ، فهي تقول : « الحاوي الأكبر » كما نقول « المهندس الأعظم » فزادت وزدنا على الأسماء الحسنى . . . الكاتبة رمزية النهج ، وخصوصاً فيما تركه من بياض ، وفي الإكثار من النقاط التي يعتبرها مالرمة زعيم الرمزيين جزءاً متمماً للتعبير عن الفكر . فما أكثر البياض والنقاط في كتاب « النشيد التائه » .

في النشيد التائه صور فكرية عميقة وجميلة لا يدرك جمالها إلا الراسخون في العلم . . . وفيه تعابير رائعة ، ولكن الآنسة تشينها بما ترجمه

فيها من ألفاظ لا تلائم . فنصيحتي للآنسة ملحس أن لا تستعمل ألفاظاً عامية ، وإن كانت فصيحة ، حين تفصل الكلام على هذا النمط من الشعر المشور ، فالكلمة إذا وقعت في غير موقعها لا تفيد شيئاً . فأبي داعٍ لاستعمالها : تشلح ، واكمري ، والغميقتان . ولا تشوحي . ما دامت لا تكتب حواراً قصصياً . . . ناهيك أن بين ألفاظها ما هو عامي حلة ونسباً . ثم ما الداعي إلى مناداة الذي بيا ! فلو ولدت مخالفة النحو موسيقى طريفة لعذرنا ، ولكنها مخالفة لا تحسن إلى الفن لنسكت عنها . وإذا كانت تستحلي مناداة الاسم الموصول . فلماذا لا تقول : يا من . . . أما إذا كانت تريد أن تفعل هذا نكايه وعمرداً ، كما فعل شاعر رندلي وقدموس حين جوز لنفسه ما جاز للقدمات ، فهذا شيء آخر ، ان أحالتها على الأستاذ أنطون كرم خير ما أفعل فلعله يوفق إلى شرح كتابها على ضوء كهرباء الرمزية ، أما أنا فمصباحي زبي عتيق .

وأخيراً أقول إنني رأيتها تقرب من الوضوح في أناشيدها الأخيرة ، كما أن نشيدها « يا قلبي » يذكرني بقصيدة جبران : اسكت يا قلبي . ثم أشهد لم أفهم تعبيرها الطريف : والموكب مرور ، والناس رنة الدنانير . . . ولعلها أرادت أن تنحو نحو شوقي حين قال : عيسى الشعور وعمرو الأمور . ولما بلغت آخر صفحات كتابها قرأت : ابعدوا عني أنا لهيب . فاحترت في تأويل ما تعني ، ولكن الأمر هان علي حين ألفت إلى تاريخ هذا النشيد ، فإذا هو أول آب اللهاب . . . عام ١٩٤٩ .

وبعد فأنا كبير الأمل بالآنسة ملحس ، ولعلها تذكرنا بمي إذا عدت عن هذا التكلف الذي رأيتها تبتعد عنه بدون إرادة في آخر كتابها النشيد التائه .

المرأة في حياة إدغار بو - ترجمة عبد اللطيف شرارة :

مؤلفه الناقد الفرنسي المعروف ادمون جالو الذي صار من الأربعين الخالدين ، ومعربه الأستاذ عبد اللطيف شرارة . كتب الأستاذ شرارة مقدمة طويلة بالقياس إلى الكتاب . جاء فيها : « فكم من عبثي مثل إدغار لم يطعم من دنياه غير البلاء ولا ذاق من وجوده غير المرارة ، بينما يعيش غيره ممن تفضلهم البهائم بخدماتها . في حالة من البذخ والإسراف . لو أدركها مثل إدغار وأمثاله لأعطوا الحضارة أضعاف ما أعطوا . وقلعوا لسعادة الإنسانية أضعاف ما قلعوا » .

أما أنا فأرى غير هذا . أرى كما رأى أحدهم - لا أذكر اسمه - أن البؤس ضريبة المجد . فلا يحزن شرارة ولا ييأس . . . وكما أخالف الأستاذ شرارة في رأيه هذا فإنني قد ضحكت ملء فمي من رأي فطير أبداه المؤلف ادمون جالو ، ناقد « النوفل ليتر » حين قال : « إذا لحظنا الصيغة المسرحية التي تصطبغ بها قصص إدغار بو من تصوير دقيق الأجواء ، إلى ضخامة في الحمل والتعابير . إلى الأسلوب الخطابي . إلى غرابة الحالات النفسية التي يفتن في إبرازها ، أدركنا مدى تأثيره بأبطال شكسير الذين عاشت أمه في محيطهم وآفاقهم . وهي به حامل » .

الآن أم إدغار بو كانت تمثل ، وهي به حبل ، يتأثر ابنها بشكسير فيهبط عليه وحيه حيناً ؟ وقالوا أن يوحنا السابق تحرك في بطن أمه حين زارت مريم حالتها إليصابات . وهي حبل بيسوع ، فهل نقول للعم جالو أن يوحنا رسالته من تلك الزيارة ؟

أليس هذا الرأي غريباً عجيباً ؟ أن هؤلاء النقاد . الذين يتكثرون على علم النفس وآراء فرويد ، لتضحكني آراؤهم حتى القهقهة .

أما الترجمة والأصل فحسبي أن أقول فيهما : هذا صافي اللغة ، كتبه أحد الأربعين الخالدين . وهذه كتبها عربي أصيل – الأستاذ شرارة – متمكن من اللسان العربي المبين . قابض على ناصية العبارة بأصابع من فولاذ ، فإذا قرأت الترجمة فكأنما أنت تقرأ الأصل من حيث تأدية المعنى بلغة لا غبار عليها .

مرقص العميان – لعارف العارف :

هذا كتاب طريف ألفه الدكتور عارف العارف الأديب والمحامي . وأحد نوابغ العميان . صدر في طبعته الثانية الأنيقة مزيناً بصور فنية جميلة تسعف القارئ وتعينه على فهم أسرار الكتاب . يقدم هذا الكتاب صاحبه بألم عميق نافذ إلى صميم الفؤاد . فيذكرنا بالآية الكريمة : « عبس وتولى إن جاءه الأعمى » .

أظن أن هذا الكتاب مصنوع على طراز كتاب الأيام للدكتور طه حسين ، ولكنه أكثر تحليلاً نفسياً للأعمى ، ومؤلفه يزعم كبشار أن الإنسان يبصر بالقلب والشعور . ليس لكتاب « مرقص العميان » طلاوة أيام طه حسين لأن طه لم يعتمد فيه الفلسفة التي توكل عليها الدكتور عارف العارف .

فمن يقرأ مرقص العميان ، يرا أنه أدرك الكثير من نفسيتهم وتحليلهم ، وأن الدكتور العارف قد خالفهم في كثير من آرائهم ، وسخر مما ينسبونه إلى العميان من غرائب الذكاء ، وأفهمنا كيف أنه كان يبصر الذرة بأذنيه حين كان يمر بالحقل ، فيعرف مقدار حظها من الجودة والرداءة .

عبارة الدكتور عارف رصينة ، ولكنها ، كأكثر تعابير العميان ، مولدة من السماع متأثرة بالقديم ، ولهذا نراه حين يصف طراوة الهواء

يقول : وكان الهواء سجسجاً عليلاً . فمثل هذه الكلمة وأخواتها تعوق السير كثيراً . وقد ظللت أعالج إخراجها على حقها من فمي فما خرجت إلا بقلع الضرس .

وخلاصة القول في « مرقص العميان » إنه إذا قصر عن أيام طه في حلاوة القصر . فهو يفوقه في عمق التفكير والتحليل النفسي .

نهاية حب – لعبدالله نيازي العراقي :

هي قصة طويلة كتبها الأستاذ عبد الله نيازي العراقي . وقد ظهر لي من تصفحها ومن مقدمة الأستاذ جعفر الحليلي أنها المحاولة الأولى . أدرك صاحب هذه القصة بعض التوفيق . وفاته البعض الآخر . انه يفصل أشياء لا لزوم لتوصيلها . فيقف سير قصته . فلتلاف هذا النقص لا بد للروائي من التمجوات ، وحذف ما يستغنى عنه من النوافل التي تعرقل سير الرواية... فالقصة الجيدة تسير بسرعة النهر المنحدر .

أما العبارة ففجة غير ناضجة يعوزها الصقل ، واللغة تشكو الضعف والهزال ، ناهيك أن القصة محتاجة دائماً إلى العنصر الشعري كما يحتاج كل جسم إلى الفيتامين . وهذا لا أثر له في نهاية حب . وجماع القول أن نهاية قصة « نهاية حب » خير من أولها . استراح كاتبها من القصر والأخبار في الفصول الأخيرة فأجاد ، وحسنت روايته . إن القصر يحتاج إلى كثير من اللباقة ومع كل ما يبذله المؤلفون من جهود يظل جامداً بارداً فلنبعد عنه ما استطعنا .

أبو نواس عالم حرّ :

كتاب صدر في سلسلة منشورات البصري ببغداد عن أبي نواس الشاعر
الظريف ، الساخر ، الثائر على جميع ما تواضع الناس على احترامه . تقنع
مؤلف الكتاب البارع باسم « دعبيل » فلم يبعد عن المحيط النواصي . فكلا
الشاعرين دعبيل وأبي نواس من الشعراء الذين نحاض معهما الشعر في خضم
الحياة .

ذكرتني مقدمة كتاب « أبو نواس عالم حر » بأسلوب الدكتور طه
حسين حين قرأت في أول سطورها :

« حين يخلو الناس إلى نفوسهم ، أو حين تخلو نفوس الناس إليهم .
فتصرف نفوسهم عنهم ، أو تصرفهم عن أنفسهم » . ولكنني لم أطو الورقة
حتى رأيتني واهماً ، فإذا بالمقدم للكتاب هو الأستاذ محمد الجواد . الكتاب
مهدي « إلى الذين يرون في أبي نواس ربّاً من الشر الذي يجب أن تعصم
منه نفوسهم الطاهرة » . في هذا الكتاب درس وافٍ لأبي نواس وإن
صغر حجمه . يرافق مؤلفه دعبيل أبا نواس من المهد إلى اللحد ، ويحلل
أخلاقه وبيئته وعصره . وما عملت تلك العناصر كلها في تكوين الشاعر
حتى كان منه ذلك الإنسان الذي عرفناه . وقد قال المؤلف وإنما أريد أن
أجرده من ذلك كله – أي العرف والتقليد – لأفهمه تحت ضوء إنسانيته
فقط ، هذه الإنسانية التي حققها لنا في صديق وصرّاحه وإخلاص !!

وهكذا نظر المؤلف إلى شاعره كإنسان وفنان يمشي زمانه على ضوء الصراحة والجلاء . تاركاً التسرّ والرياء . مبيّناً أن الخاصة والعامّة كانوا يلهون مثل النواصي حتى روي ان ابن المقفع عندما رأى البدر تصبّ بين يدي « الزرقاء » جارية ابن رامين . وليس عنده مال . بعث إليها بصك ضيعته .

والكتاب درس لشخصية أبي نواس أكثر منه دراسة لفنه . فالمؤلف يدرس حيناً درس نقادة يحاول أن يصل إلى خبايا النفس . ويقف حيناً موقف المؤرخ المدقق الذي يريد أن يوقت فيلجأ إلى شعر الشاعر وما فيه من ذكر حوادث يثبت فيها ما زعم .

في الكتاب هفوات تلقى تبعة أكثرها على المطبعة . إلا أن هنالك ظاهرة لا أدري كيف أعللها . رأيت المؤلف - كغيره من بعض الكتاب العراقيين - عدوّاً للظاء فهو يجعلها ضاداً في أكثر المواضع . وهناك أخطاء أخرى لا أظن أن المطبعة تتحمل مسؤوليتها . . . وفي كل حال إن كتاب « أبو نواس عالم حر » يزيج الستار عن شؤون وشجون من حق القارئ الحديث أن يطلع عليها مجموعة في كتاب . وها هو ذاك الكتاب . وإذا ذكرنا أبا نواس تداعت الأفكار إلى الأمين ، وقد أخذ الأمين حصة كاملة غير منقوصة في هذا الكتاب الصغير ، فعرفنا عمق دعوة النواصي للأمين .

بارك الله الأمين وأبقاه وأبقى له رداء الشباب

شكراً لدعبل مؤلف « أبو نواس عالم حر » ، ولدار البصري التي أخرجت هذا الكتاب الصغير الكبير .

خمر وجمر : لعديان أسعد

إن الكتب التي تدعوننا إلى التحدث عنها كثيرة هي . منها كتاب خمر وجمر للأستاذ عدنان أسعد . طبع أتيق ، وورق فاخر ككل ما تخرجه دار المعارف في مصر . أما المحتويات ، ويا للأسف ، فقلما تجد فيها حمرة مزة الطعم قرقفا كالتى اشتهاها أبو نواس وتمنى أن يسقاها . بل لا تحاول أن تطول ولو شربت منها عشرأ لا ثلاثأ كما قال الأخطل . فأكثر الكتاب من هذا الطراز : الشيخ طفل كبير ، والطفل شيخ صغير .

رب داء دواء ، ودواء داء . وكقوله أيضاً : قلت لفيلسوف تسائه : متى ولدت يا عاقل . قال : وكيف عرفت يا جاهل ! وأخيراً : « الصيف ضيعت اللبن ، والموت ضيعت الكفن » .

لا أعجب لشيء كما أعجب لهذه الموجة الجارفة من التأنيث ، فما كنت أعهدده مذكراً أمسيت أرى أكثره اليوم يخرج مؤثناً من تحت اقلام الكتاب المصريين . وإلا فما معنى قول صاحب « خمر وجمر » : الموت ضيعت الكفن . فهل ظن الصيف مؤثناً في المثل العربي الذي استعاره ؟
شاء الأستاذ عدنان أسعد أن تكون له « جوامع كلم » من طراز جبران ثم نعيمه وغيرهما ، فجمع « أوابده » في خلال ربع قرن كما قال : فكانت جمراً لا يدفىء . وخمراً لا تجديك حمرتها في العين والحد...

عودة الميت : لباسم الجسر

هي قصة أخرجها قلم الأستاذ باسم الجسر الطري فجاءت تبشر بخير جزيل ، وقد أدرك المؤلف حرج الموقف فقال في المقدمة : « إني أعلم أن المحاولة خطيرة ، وأن « عودة الميت » هي أول قصة طويلة تظهر في الأدب اللبناني منذ نيف وخمس سنوات ، وقد يجد البعض فيها ضعفاً ، والبعض الآخر محاولة جريئة ومحمودة » .

أما أنا فأقول للأستاذ باسم إنني كلا الفريقين : أجد فيها ضعفاً يسيء إلى الإنشاء ولا يضير الفن ، وإني لآسف أن ألقى هذا الضعف لأن العنصر الأدبي قوام القصة ، ولا يستقيم لنا أدب مع الخطأ ، فلو سلمت منه الرواية لاستحق مؤلفها الشاب الثناء كاملاً غير منقوص . فاللغة وأصول كتابتها وخصوصاً النحو يجب أن تقدر . وهذا ما تشكو منه قصته . فمؤلف « عودة الميت » قصصي يجيد السرد والتصوير . وخير ما في قصته سيرها المنظم المتزن الخطى . قد يكون ذلك لأن مؤلفها عالج موضوعاً يحسه . فوفق إلى كتابة قصة لا ينقصها إلا تصوير محيط قصته الرائع تصويراً أوضح ، وتعابير صارمة تؤدي المعنى تأدية تامة .

شاء الكاتب أن يطبق ما تعلم من علم النفس في المدرسة فخلق لبطله قصته طوراً غريباً قد يحدث ، ولكنني أستغرب تلك التعليقات العلمية . وكلمتي الأخيرة لمؤلف « عودة الميت » أن يعمل بما ختم به مقدمته وهو قوله : وليس حكم الناس مهما كان جائراً ، بالسوط الذي يكسر قلماً أو يردع يداً عن الكتابة بل هو بالنسبة لي ، حافز لإنتاج أصلح وأقوى .

وهذا ما أنتظره أنا من الأستاذ باسم الجسر . فهو كاتب مطبوع . يستطيع أن يكون قصصياً بارعاً ، فعليه أن ينقي كتابته ويصفيها ، فمن الغبن أن نرى هذه الحسنة لا تصلح من هندامها لننعم بجمالها الذي يفن ويغري إذا ما أحسن تهذيبه وترتيبه .

القسم السادس

خطب

مقدم

إنك ، يا رسول الله ، لفي غنى عن شهادتي التي أدبتها مرات .
وحسبي منها اسمك الشريف بركة في بيتي . والذين قالوا في ذلك الزمان :
« لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » ليتهم ينشرون اليوم ليروا
مئات الملايين تشهد لك في أربعة أقطار المسكونة . هذي هي آيتك الكبرى .
وقد كنت ، حتماً ، في غنى عن أن يقال لك : « فليأتنا بآية كما أرسل
الأولون » .

ولدت كالناس . وعشت كالناس . وجاهدت كالناس . ومت
كالناس ، فلا أساطير ولا عجائب ، آيتك أمتك التي خلقتها بأمر ربك .
يوم كان الناس لا يؤمنون إلا بالمعجزات .

لا تقل : « ما هذا ، ومنو هذا » . فأنت لم تفرق بين مسلم ونصراني
أما جاء عن عبادة ، في حديثك الشريف : « من شهد أن لا إله إلا الله ،
وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله
ورسوله ، وكلمة ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق ، والنار
حق ، أدخله الله على ما كان من العمل ؟ »

حلمت بمحمد أمه ، فرأت فيما يرى النائم انه خرج منها نور أضواء
لها قصور الشام ، وآمنت برسالته أمته ، فأنارت لها مجاهل الدنيا وسرادق
السماء .

هذا هو محمد النبي العملي ، والرسول البطل ، نهر الصحراء المترنم ،
وأسد البطحاء المنتصر من سبط إسماعيل .

رهيب كالصحراء : صاهر كالرمضاء : قوي كالمحبة : غالب
كالحق . على تعاليمه ، وحيأ وتفكيراً صيغة الله . ومن أحسن من الله
صيغة . فلو وزن بعظماء العالم أجمعين لثالوا في الميزان ورجحت كفة
عبريته وإيمانه .

بلغ وعلم ، وبشر وأندر ، ثلاثاً يكون للناس على الله حجة ، بعد
بلاغه المبين .

أخرج خير أمة للناس . الموفون بعهدهم إذا عاهدوا شعارهم : « ولا
تعتلوا » ، والصفح والتضحية من مزاياهم .

غلب محمد العالم بحديث الله ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ وهكذا مشى
الفجر وانتصر .

فيا أيها الذي جاهد في سبيل الله ، خذ بيد أمة شرفها الله حين اصطفاك
منها رسولاً .

أنت زاوية مدنية وطيدة الأركان تماسك كلما قالوا ترزعزت .
إنها قائمة على الحق وصراطها مستقيم . مدنية صهرت المدنيات كلها في
بوتقتها ، وطبعتها بطابع يتجدد كلما عتق الدهر .

فتح له الإيمان معاقل الدنيا وحصونها ، وعبد الله في كل مكان .

فالأثير يتلذذ بذكره تعالى خمس مرات كل يوم .

الضمائر تناجيه والألسن تناديه ، ويصلي على نبيه الأمين ستمائة مليون ،
وينحني له العالم إجلالاً وتكريماً .

إن ضربات معوله الهدام البناء دكت العالم القديم وشيدت دنيا جديدة .
أيها الثبت . وقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم !
يا قائد جنود الحق الذي هو الله .
إنك لعلی خلق عظیم .

أيها الداعي إلى الدنيا معتصماً بجبل الله ، يا معظم شأن الفطرة ما أجمل
قولك : « كل مولود يولد يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه
يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه » .

فمن الكنائس والصوامع التي أوصيت باحترامها نحييك يوم هذا العيد
السعيد ، والقسيسون والرهبان والأخبار يحترمون بك اليوم النبي الهادي
إلى الله .

لست أسألك أن تفجر لي ينبوعاً أو تسقط السماء علينا كسفاً ، أو تأتي
بالله والملائكة قبلاً .

لست أسألك آيةً . كما سألوك ، فأنت آتي الكبرى .
حسي آية رسالات بلغتها .

حسي كتابك ، فقيه أرى العلم منبعثاً من الوحي وكفى بالله معلماً .
فمن وحيه تستقى مكارم الأخلاق ، واشتراعه أقر العدل والسلام . فهو
ضمير الوجود الحي ، وكتاب الدنيا والدين ، ومنازة أدبية نتجها بها .
وعروة وتقى جمعتنا أبد الدهر . بحق جاء فيه : « ما لهذا الكتاب لا يدع
كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها » .

ففي سنة ١٦٣٣ أرغم مجلس التفتيش العالم غاليه على جحد قوله
بدوران الأرض وثبوت الشمس . فجحد زعمه جاثياً ، وهو ابن سبعين ،
ثم قضى عمره في ذل الأسار وبؤس العيش .

فلو أصغروا ، في ذلك الزمان ، إلى تعاليم محمد بن عبد الله الرسول
البحريء ، لو كانوا آمنوا بالقرآن ، ثالث الكتب السماوية ، لكفوا التاريخ
وصمة الاستهانة بشيخوخة العلماء .

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرمر السحاب . صنع الله الذي
أتقن كل شيء » . إنه كلام صريح لا يحتاج إلى تأويل ولا تفسير .

فمن علم محمد ، قبل العلم ، أن الجبال تمرمر السحاب ؟
إذا كان الوحي ، فمحمد خاتم النبيين ، وقد نسخ الله على يده ما ورد
في كتابه الأسبق . وإلا فيكون ذلك الأمي أعظم العلماء ، وقد سبق
كوبرنيك وغاليله ألف سنة .

ما أغناك يا نبي الله عن نصرتي ، إنك لغني عن العالمين ، ولكنه الحب
إيمان وزيادة .

ويستثونك أحق هو ؟

قل اي وربي أنه لحق .

وإن كذبوك فقل : لي عملي ولكم عملكم ، أفأنت تكره الناس
حتى يكونوا مؤمنين ؟

قد دنت قبة الكنيسة من المأذنة ، وسكنت ضجة اللاذقية ، فتخشع
النصراني لا لله أكبر ، وطرب المسلم لرنات النواقيس .

فيا نبي الدنيا ورسول الله ، ما أسماك مبشراً بالسماء ، وما أحلاك
واسع الصدر تتحدث عن الدنيا .

مزجت هذه بتلك ، فما عنتت تعاليمك ولا شانت . فكلما دارت

الدنيا دورتها اقتربت من فلكك الدوار . وانجذبت إليك مستضيئة بنورك
الوهاب .

جتهم رسولاً مبيناً فتولوا عنك ، فحذرهم الله البطشة الكبرى ،
وحقت كلمة الله ، فدان لك الدهر وقدمك الزمان تقديساً .

جري ذكرك مع ذكر الله . وأقر المنصفون بأنك المثل الإنساني الأعلى ،
بله انك رسول كريم . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

قد انضمت الجداول والأنهار إلى النبع المتدفق من أحشاء حراء ،
فوثبت جميعها تهلل وتكبر في طريق الأبد ، غايتها الأوقيانوس السرمدي
الأكبر الذي ينتظرها مشرق الجبين منبسط الذراعين .

فهذه المآذن الشامخة أصابع تمتد نحو السماء تشهد لله ولك بالحق .

أنها منائر ترسل أشعة التوحيد إلى الجهات الست لتضيء ظلمات النفوس .
يأتي صداها البيوت داعياً الناس إلى الله .

يوقظ النفوس المتعبة فتلقى على الله همها مرددة : « قل لن يصيبنا
إلا ما كتب الله لنا » .

حي على الصلاة ، والصلاة نعم الصلة ، تلك آية الدين .

حي على الفلاح ، هذه آية الدنيا وما نفع إنسان لا يفلح ؟

فما أعذب آذاناً فيه الصلاح والعمل ، يعلم الناس أنهم سواء والله
أكبر ، فالصلاة والسلام عليك يا رسول الله .

في يوبيله الفضي

سيداتي وسادتي :

لا أتخيل حفلة اليوبيل إلا سهرة وداع ليلة سفر . وأستطيع أن أقول
لكم أجمعين : شرفم وآنسم . . .

الحمد لله على أن اليوبيل فضي . فإذا استعملنا منطق ابن الرومي قلنا
أنه من فض ، وأعوذ بالله مما تحمله هذه الكلمة من شؤم . ولو كان اليوبيل
ذهيباً لكان الشر أعظم . فهو من ذهاب العمر لا الذهب ، لأن الذهب لا
يعرف أبواب الأدباء ، وهذا لا تحتاجون أن نحيطكم به علماً .

وأنا يا سادة لست من مذهب ابن الرومي ، وكيف أكون وأنا القائل :

لا تقولوا شينا فما الشيب عيبٌ إن في الشيب من يبرُّ الشبابا
رب شيخٍ قضى الحياةَ فتياً وغلّامٌ في ميعَةِ العمرِ شابا
رب شيخٍ يظلّ عارضَ رمحٍ يتصابى لو استحالَ ترابا
لو أتنا الحياةُ تَسْرزقُ العزمُ خلّعتنا على الحياةِ شبابا

ذاك هو مارون عبود المتبحر المنادي : « ترمس أحلى من اللوز . . . »

ومع ذلك خاف من اليوبيل ونخاله « تروبييل » يبشر بلك بنيانه دكاً .

كادت رجلي لا تحملني إلى هذا النادي لولا تذكري مكتوباً كتبه

لتلميذي شكر الله البحر ، ونشره في مجلته « الأندلس الجديدة » سنة ١٩٣٧ .

ومما قلت له فيه : « وإني لأتخيل . يا شكر الله ، إني استأجرت الدنيا من الذي نفسي في يده ، فأجرنيها لمدة عشرين سنة ، وفي نيتي أن أجدد هذا العقد بعد انقضاء المدة . ومن الشروط الرئيسية بيننا أن يظل الطابق العالي عامراً »

أما الآن فاشهدوا عليّ : سوف أتمسك بقانون المستأجرين فلا أخرج من هذه الدنيا إلا بعد الدعاوى بداية . واستثناءً ، وإعادة محاكمة . وإعادة إعادة ، مع الاحتفاظ بحقوق التمييز إذا أعيدت تلك المحكمة
أما إذا استطال ابني بقائي وملتي فيمكنه ، أن يسقط الدعوى
فإلى اللقاء في اليوبيل الذهبي . ان خمساً وعشرين سنة أخرى لا بأس بها .

كنت أسمع بجلاء العروس . وما عرفته عملياً إلا اليوم ، فقد كفاني كلام الخطباء ، جزاهم الله غني خيراً ، مؤونة شراء الأسيرين . لقد كبرت في عين نفسي ، واستعرضت كتيبة أعوامي الاثني والستين فرأيت بينها أقراماً وجبابرة . أما الجبابرة فهي بعض الأعوام التي صرفتها في هذه المدينة الحبيبة مدينة عاليه ، وحسي أنها تفضلت وعدتني مواطن شرف وهذا شرف كبير لي .

قال العرب القدماء : « إن الضب يعيش بالنسيم » ، وإن لم يصدق هذا على الضب فيصدق على الأديب فما أحلى هذا التسيم الذي هبّ عليّ من صوبكم جميعاً ، ففيه أحيا وأعيش ، وهو أفضل صفة « راجيم » تخفف عني الضغط وتنقطني من الأحماض والسكر التي صيرتني ليمونا ضه .

فلنقل كما يقول المتواضعون ، وأنا لست منهم : ما كنت يا سادة إلا مسناً ، أو حجر شحذ كما يقول الشاعر : فسنتت خناجر وسيوفاً كثيرة وقد ذهبت تلك الخناجر والسيوف إلى جبهة النضال .

أما المسن فما يزال قابلاً في الزاوية يسن ويسن . وحسب الجامعة
الوطنية . معمل الشحذ والسن ، إن ذا أبطالاً في كل مقام . وشهداء في
كل جبهة ، وأحدثهم عهداً ، وأطراهم دماً . بطل المالكية الشهيد النقيب
محمد زغيب .

أما وقد بلغنا بيت القصيد فإني أرفع أخلص الشكر وأحر الدعاء إلى
مقام فخامة الرئيس المعظم المجسدة في شخصه النبيل دولتنا اللبنانية. إنني كلما
ذكرته أنسى قول الشاعر :

وماذا تبغي الشعراء مني وقد جاوزت حدّ الأربعين ؟

أنسى أنني قد جرت الستين وأقول شعراً :

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| الشيخُ والحوري قد اجتمعا معاً | بشارة الإنجيلِ والقرآنِ |
| نورُ الهلالِ يشع فوقَ جبينه | وعلى القوادِ معاهدُ الصليانِ |
| أكرمُ به من قائدِ جمعِ الوري | بالرأيِ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ |
| أجنادهُ في المالكية جددوا | عهداً لسانورِ البشيرِ الثائرِ |
| جيشٍ قليلٌ عدّه . والأسدُ لا | تُحصى بكثرةِ عدّها كالضانِ |
| قلُ للعواصفِ زجري وتوعددي | فالأرزِ راسِ راسخِ البنيانِ |
| علمُ العروبةِ نسجُ ربكَ والذي | نسجتهُ كفَ اللهِ ليس بفانِ |

لم يبقَ مجال لقول كل شيء ، فلنختصر .

فلنشكر إخوتنا البنائين الأحرار . فيا أبناء الأرملة . لقد خرجتم اليوم
على تقاليدكم في تكريم هذا الأرملة الذكر ، فعملتم على أعين الناس ما
تعودتم أن تعملوه وراء الأبواب المقفلة ، أشكركم يا أخوتي ، وأحييكم
جميعاً بشخص حضرة الأخ الكلي الاحترام دولة سامي بك الصلح أستاذنا
الأعظم .

وأخيراً أعود إلى أهل البيت ، فيا أخي ، الرئيس ، الذي احتملت
مارون عبود على علاته ربع قرن ، ويا متخرجي الجامعة الوطنية الذين
تمتعتم بسحر جمالي الحلال خمسة وعشرين عاماً ، ان شكركم لا يتسع
له هذا المقام . أما الآن فحسبي أن أقول لكم : إن هديتكم الثمينة ، هذا
الكتاب الضخم ، كافٍ للقيام بمهمة مجلدات الجاحظ ، عند بلوغي التسعين .
وإن احتجت إلى « البلوط » الذي طلبه أبو عثمان من زاتره الأموي ،
فأيقونتكم الذهبية تنفعني ساعة الشدة . . . فخير ما أقوله لكم الآن هو
الكلمة التي اعتدنا أن نقولها في نهاية كل مائدة : كفيتم ووفيتم . محل عامر .
سيداتي وسادتي . شكراً جزيلاً . إلى اللقاء في اليوبيل الذهبي .
إن شاء الله . . .

في ذكرى الخوري يوسف الحداد

سادتي ،

لم يكن الخوري يوسف الحداد لنا ، وحدنا ، لتستبد مرة واحدة بشكر حضرات ممثلي الحكومة الخليفة واللجنة ، والخطباء ، والشعراء ، والحفل الكريم . ولو فعلتُ لخلتُ أنه يهتف بي : « وأين الذوق يا مارون ؟ أتحتكرون أنتم بعد الموت من جعل نفسه وفقاً على ربه ووطنه » ؟

أجل يا سادة ، كان الرجل وفقاً على أمرين : ثوبه وعلمه .

كان ثوبه يُزجيه دائماً في طريق الكمال ، وكان علمه يحثه أبداً على بلوغ المدى ، والعلم من توابع الإكليريكي الحق وزوابعه .

ليس يعني هذا أن الخور اسقف يوسف الحداد تبتل فعاف كل مسؤولية عائلية ، فكان كراهب أمرىء القيس ، يميل السليط بالذُّبال المقتل ، لا . يا سادتي ، كان الرجل معلماً وأباً ومربيّاً . حملته الأقدار عبء الوصاية والولاية فربّتي ، وعلم ، وهذب ، كما يفعل الأب المستطيع منا .

عاش الفقيد كما قال الشاعر :

لا يَألفُ الدرهمُ المضروبُ راحته إلا يمرّ عليها وهو منطلقُ

فهذا الكاتبُ الأنيق الذي يراه في كتاب « التجوى » بحثاً على الادخار

كان عدو كيسه . وعظ غيره وما اتعظ هو . فلم يجعل مخزنه عبه . بل جعله في العقول والقلوب .

كان في القول معلم اقتصاد من الطراز الأول . أما في العمل فاتكل على قول معلمه : « لا تهتموا بما للغد . . . » فكان عند ظنه بربه ، فعاش عزيزاً ، ومات مكرماً . وسيظل ذكره ممجداً .

لقد وقيّم الشاعر والأديب والمعلم والمربي في شخصه .

أما الخوري يوسف الحداد الأب . فلا يعرفه إلا أقرب الناس إليه . لقد ضحى بكل ما يملك ولم يترك خلفه غير فضله . وهذا الفخر الذي أوليتمونا إياه . أعني فخر اجتماعكم هنا لتكريم ذكراه .

ذكرُ الفتى عمره الثاني . وحاجتهُ ما قاته . وفضول العيشِ أشغالُ

هذا كان شعارُ ابن العمّة الحبيب . فنشكرُ وزارة التربية الوطنية بشخص معالي وزيرها الأديب الأمير رثيف أبي اللمع لأنها رعت ذكرى أحد رجالها . فالرجل كان للمعارف والتربية يوم لم تكن لها وزارة في لبنان .

حسبه أنه كان أبا نوابغ . فربى وعلم شباباً تسمى للعلی وكهول . فتولوا شؤون الدولة .

حسب ابن عمي فخراً وذكراً انه يستطيع أن يقول : « أولئك أبنائي » .

وحسبه أن وراءه تلميذاً مجاهداً كالمحامي الشهير الأستاذ جورج يزبك الذي أبى إلا إبراء الذمة . وإداء الدين غير منقوص . فتصافرت على هذه المكرومة التي تخفف من سماجة مهنتنا وآلامها . ولو بعد الموت . . .

أما من شادوا بذكراه ولم يعرفوه ، فإنهم وإياه كما قال أبو تمام :
وقلتُ أخي ، قالوا أخٌ من قرابةٍ فقلتُ نعم . ان الشكولَ أقاربُ

ومن للأديب غير الأديب ؟

قالوا عن الأخطل : ضيق عليه دينه . والخوري يوسف الحداد الأديب . ضيق عليه ثوبه في دنياه ، فلعله يوسع عليه في آخرته .

وعلى ذكر الآخرة أقول : كنت أراه . لما بلغ الثمانين ، خائفاً من الرحلة العتيدة . على قلة الزاد لها . كما كان يقول تواضعاً .

فقلت له : شدّ حيلك . أنت قادم على كريم ، ولسانك طيب ، وقلبك نقي . والله لا يطلب غير هذين .

كنا نفلسف ضاحكين لنخفي الذعر ، وكنت أنا الأجيب منه أشجعه كلما التقينا . حتى قلت له مرة : تتذكر هذا البيت :

كلما قلتُ متى ميعادنا ؟ ضحكت هند، وقالت بعد غد

فأجاب : وكيف . . . أتظني خرفت ؟ هذا لعمر !

فقلت له : هذا لسان حال الدنيا معك ، لا تخف .

فضحك ضحكته المعهودة .

وكنا كلما التقينا بعد ذلك يقول لي : كيف حال هند من صوبك ؟

فأجيبه : ما زالت تضحك ، وتقول بعد غد . . .

فقال : هذا قول لم يوافق عمر ، ولكنه واقفنا نحن . . .

إنني أرجو يا سادة ، أن يكون هذا لسان حال الدنيا معكم ، لتبلغوا من العمر عتياً كما بلغ .

شكر الله سعيكم . وعشتم جميعاً للوطن والأدب .

الدروز

سادتي ،

لا أنا يوسف تاج ولا يوسف حاتم لأغني « شروقي » فتشجي القلوب
نغمتي ، وتثير الهمم لهجتي . فصوتي كما تسمعون ، وشكلي كما ترون .
والحمد لمن لا يحمد على مكروه سواه . اللهم ، أعطيت وكثرت ، سبحانه
من كريم جواد ، بخلت على مارون بكل شيء إلا الهمة ، فلك الشكر .
وبعد ، فلا بد من أنكم تساءلتم : « وما الداعي لذكر هذين المطربين
الشهيرين ؟ ! »

فأجيب : « إن الحال دعت إلى الاستشهاد بشيء من الزجل الشروقي » .
قال الشاعر الزجلي (الجبلي) أسعد نصار يخاطب الزعيم القبلي الشيخ
فندي الطيار :

حنّا بني معروف عزّ الجار لو جار نهوى المهتد فتيلك ما تداريه
يا شوق عيني لعطف الكحل لو ثار أمّو الحميسه وستو زلفطت بيه
وسيوفا الحذب تفري كل زنّار وحرابنا لو سدي بالدم نجيله
صدق الشاعر المطبوع .

وكيف يهاب الدرزي وشعاره : « ومن خشي بشراً مثله سلط عليه ؟ »
بل وكيف يخشى من لا يخاف على فخارته أن تحطم كما قال أبو دلامة ؟
فهو كما قال المتنبي لسيف الدولة : يسلم مخروفاً ليعطى مجدداً .

الدرزي مغالٍ دائماً ، إن نسك أذاب جسده . وأشاح وجهه عن دنياه .
وإن جهل فهو رجل الذباد « والزناد والجناد » . ومثي نادت الكرامة فلا
عقال ولا جهال . الكل للدفاع العدل .

قال أحمد فارس الشدياق في فاريقه . منذ مئة عام . وهو من عرف
الدروز وخيرهم قبلنا : « لم يعرف عن الدروز أنهم عاهدوا بشيء ثم
نكثوا به من دون أن يحسوا من المعاهد غدراً » . إلى أن يقول : « وأنت
خير بأن كثيراً من النصارى عاثشون في ظلهم : مستأمنون في حماهم .
وأهم لو خيروا أن يتركوا مستأمنهم هذا ليكونوا تحت أمن مشايخ النصارى
لأبوا . وعندى أن من يرعى حرمة الجار كان خليقاً بكل فخر . أما التآلب
بين طوائف الدروز وغيرهم فإنما هي أمور سياسية لا تعلق لها بالدين » .

ولكننا في الصبا ، قبل أن نقرأ الشدياق . كنا نقرأ كتاب « حسر
اللاثم عن نكبات الشام » فنشبع بغضاً للدروز . ونقمة عليهم . وكرهاً
لهم . وحسبك أن تسمع هذا البيت :

ما دام يوجد لفة في المشرقِ يا شمسُ فوق ربوعه لا تشرقِ

ولكن الشمس لم تقبل رجاءهم ، وظلت تشرق حتى اجتمعنا والحمد
لله تحت علم واحد ، تنفياً ظله جميعاً في عهد الاستقلال العزيز على جميع
القلوب .

أما ما رأيت فيهم أنا فيجعله المثل اللبناني القائل في الرجل الكريم :
« للسيف وللضيف ولغدرات الزمان » .

إنهم يقدسون المعروف ، فلا يضيع عندهم مقدار حبة خردل ،
من الحميل ، فلا يستنكف أميرهم وكبيرهم من أن يهز يدك قائلاً :
« كيف حالك على الفضل » ؟

فقولوا لي بربكم . من لا يحاول منا بعد هذا أن يكون ذا فضل ؟

لقد صار بيني وبين الدروز أكثر من الخبز والملح ، ولهذا سأخرج
عن طوري لأقول في العمر كلمة تجول في خاطري منذ ربع قرن وأكثر :

جاعني أمس شاب ما عرفته ، بل أنكرته . ولكنه أقام البراهين القاطعة
المانعة على أنه هو من يدعي فصدقته . ليتكم تعرفون من هو ، انه زميلي
وصديقي مارون عبود الذي كان ينظم شعراً منذ عشرات السنين .

جاعني ذلك المارون أول من أمس يسألني أن يقول في الدروز ما يوحيه
إليه الخاطر . فقلت له :

يا صاحبي ، يا مارون ، أنا صرت في الخامسة والستين . والشاعر
جعل الأربعين تحماً للنيا الشوق ، فما لك وللشعر . أتريد أن تضحك
الناس علينا ؟

فصاح : ما عليك ، المحبة تتجاوز جميع التخوم . . . ولما أيقنت ان
الأمر منه هو الجلد ، رق قلبي له ، وتركته يقول . ولعله لا يسود وجهي
عندكم .

تفضل ، قل يا مارون ، فقال :

قالوا الدروز ، فقلت : جيل معرقُ
و«السدق» شرعتهم ، فإن عاهدتهم
خلق الأسود متى يمسن حماهمُ
تمت مروعتهم ، فإن ناديتهم
ربضوا بياب الشرق خير ضراغم
غنت سيوفهم أناشيداً شجت
«العقل» دين ، والوفاء «الموثق»
بروا ، وإن نطقوا بأمر يصدقوا
وسخاء حاتم طي إن يطرقتوا
طاروا إليك عصائباً تتدفقُ
تحمي العرين ، فأين منه الأبلقُ
قلب العروبة واستعزَّ المشرقُ

فإذا مشت بيض العمائم للوغى
وفتاهم يلقى الجموع مجازفاً
تلتئم الآفاق من نيرانهم
وتضيء أوجههم إذا طابيتهم
فإذا سُئلت عن الدرور فقل: هم
إن تستفزهم فقل: خاب الرجا

قالوا الدرور فقلت شعب معرق
يستلهمون البر في «خلواتهم»
وإذا الكريهة شمّرت عن ساقها
ما قصّرت عن غاية فرسانهم
يمشي الدم العربي في أعراقهم صرفاً
لِمَ لا تصان أصولهم وفروعهم
فيمُ ذوو الجبل الطويل نجاده
تدهور الأرياح عن جبهاته
لاذوا به مستعصمين : ومدغدا
وتألبوا عصباً تصون ذماره
فإذا تعرّض للمنطامع أرددوا
السيف يخطب عنهم إن هوجموا

قالوا الدرور ، فقلت شعب معرق
سبعٌ وعشرون انقضت في ظلهم
العقل دين ، والوفاء المنطقُ
لله ظلّهم المنيف المورقُ

فإذا أقول عشيرتي . فهو الوفا
فأنا مواطنهم بفضلٍ منهم
قد هونَ الموتَ اعتقادهم، فما
فإذا هزرتَ هزرتَ ربحاً طبعاً
وإذا تنمر طارئاً صاحوا به :
نحن الألى هان المماتُ عليهم
علي عليّ . فما هناك تملقُ
والفضل يعرفه الدرورُ السبقُ
أجسادهم إلا تراثُ يُنفقُ
وإذا سللتَ سللتَ سيفاً يفلقُ
ليبك : ان «السيف» حيُّ يرزقُ
الروح تبقى . والقميص يمزقُ

عاليه : ٢٣ - ٣ - ١٩٥٠

يوبيل تلميذي

سادتي ،

عندما فكرت بكلمة أقولها في يوبيل تلميذي وزميلي الأستاذ هاني باز ،
جاءتني هذه الفكرة : « لماذا تقام أكثر اليوبيلات لرجال العلم بوجه عام ،
وللمعلمين بوجه خاص ؟ » .

ظهر لي ، يا سادة ، وقد أكون مخطئاً : إنها تعزية للمعلم الذي تعمل
الأمة في مكافأته بقول المتنبي :

لا خيلُ عندك تهديها ولا مالٌ فليسعد النطقُ إن لم تسعدِ الحالُ
فالتاجر يقيم له اليوبيل صندوقه ، والوارث يحتفل بتكريمه عقاراته .
أما المعلم ، وليس له هذا ولا تلك ، فلا أقل من أن يهدى إليه من بضاعته .
« من ديلُخُ تقاربُ لُخُ » بالسريانية أي من مالك يهدى لك .

وبعد يا سادتي ، فيقول المثل اللبناني : « بيتنا وبينك خبز وملح » .

نعم ، أيها العالیهون الكرام ، ان بيني وبينكم أكثر من الخبز الذي
يجيا به الإنسان ، بيني وبينكم خبز المعرفة وملح الحكمة .

لا يظن المشايخ الأجاويد إنني أعني الحكمة بالذات ، فالشيخ هاني
لم ينفعني بِنافعة من إدراك الحكمة . كان يخرج بالصمت عن لا ونعم :
كعبدة ، صاحبة بشار بن برد ، فأدرکت ما أدرکت بباعي وذراعي .

استعملت عقلي عشرين سنة فساعدني . كما أظن . على حل لغز
دين العقل . فكتبت مخلصاً كتابي : « زوبعة الدهور » لأني ما عليّ من
دين الفضل والرعاية . ومعروف بني معروف .

يقول المثل : « عاشر القوم أربعين يوماً ، فإذا أن تصير منهم أو ترحل
عنهم » . وإني لأحمد الله الذي شرفني فصرت منكم . وما رحلت
عنكم . بل صرت أستطيع مخاطبتكم بهذا البيت :

« بكمُ أتحدثُ فصرتُ إن حبيبتكمُ قلتُ السلامُ عليّ إذ أنتم أنا

إنها لفرصة سنحت وربما لا يسمح الزمان بمثها . فاسمحوا لي أن
أصفي حسابي مع هذه المدينة الحبيبة ، وأتحدث إلى حضرة المشايخ الأجلاء
قليلاً .

بناء على ما تقدم ، قد قررت ألاّ أدخل قميصي إلاّ في هذا البلد .
وأما الصندوق الذي يوضع فيه فهو في الضيقة حيث لبسته أولاً . وإذا لم
تتحقق لي هذه الأمنية ، لأن الإنسان يعرف أين يولد لا أين يفقد . فما
أحسب أنكم تنسون من قضى بينكم خير أيامه ، بل تذهبون إلى تشييع
مواطنكم الذي أحبكم من كل قلبه ، لا خوفاً من الجحيم ولا طمعاً بالنعيم
كما يقول المسيحي النادم على خطاياها ندامة كاملة . ومتى شرفتم . ترى
الديار المارونية هذه الوجوه المشرقة النبيلة ، التي تتوجهها العمائم البيضاء
كقلوب حاملها .

ثقوا أيها المشايخ ، ان موقفكم لا يخرج هناك . ليس الدفعُ نقداً عندنا
كما هو عندكم . فإمكانكم أن تقولوا : « كان خادماً أميناً لبلدنا .
وفق الله خطرتة » ، وما أظنه رحمة بمعناها الكامل فتقل ضمائركم . وعلى
كل ساقبى في انتظاركم ان مت بعيداً عنكم ، وإلى اللقاء بعد خمسين عاماً .

لا تتعجبوا إن قلت بعد خمسين عاماً ، فقيلي أجاب البابا لاون من دعا له ببلوغ المئة ، وكان عمره ثلاثة وتسعين : رحمة الله واسعة ، فلا تضيقوها .

قد تقولون : « تراه يتحدث عن الموت كمن يتحدث عن عرس » . نعم أنا وحضرة المشايخ متفقون في هذا الموضوع ، فعسى أن يكون الدور التالي خيراً من الحاضر .

قال رنان ، وكان محروماً من الكنيسة : « إن روحي ستستحيل عصفوراً يرفرف فوق الدين ، ويدخل الكنيسة ليحضر القداس » .

أما أنا فأقول : « إن روحي ستحلق فوق بلدي عاليه ، وتتمتع كل مساء برؤية أهلها الذين لم أرَ في شيوخهم وكهولهم وشبانهم إلا الكمال والجلال ، والأريحية والمروعة ، والنفوس الأبية ، والعزة والكرامة » .

فحيا الله الجامعة الوطنية التي جمعتني بكم ، أيها السادة الأجلاء !
حيا الله الجامعة الوطنية التي جمعتنا بنجر شباب الأقطار العربية ، فصار لنا أبناء وإخوان في كل البلدان والعواصم ، كما صار لنا في كل بيت من بيوت عاليه أبناء نفتخر بهم قائلين مع الشاعر :

« أولئك أبنائي فجئني بمثلهم ! »

قلت انها تصفية حساب ، فاسمعوا لي أن أقول : أيضاً : إن المقدر كائن لا يمحي .

عرضت عليّ بعد الحرب الأولى وظائف فرفضتها ، لأنني جربت الوظيفة إبان الحرب العظمى وعلمت أنني لم أخلق لها .

وعرضت عليّ مدارس شتى فأبيت ، ولما ذكرت لي الجامعة الوطنية جئت ركضاً ، لأنني كنت عرفت صاحبها العصامي الأستاذ الرئيس الياس

شبل الحوري في جيبيل . يوم كنت فيها صحافياً وأستاذاً ، والحمد لله كانت صفقتي رابحة .

وإني لأفاخر بصدقة هذا المجاهد العظيم الذي اقترن اسمي باسمه تحت لواء الجامعة الوطنية الخالدة .

نعم أقول الخالدة ، وهل تقوى الأيام على زعزعتها ما دامت ذريبتكم في الوجود ؟

إنها بيتكم . والبيت أول المقتنى وآخر المبيع .

سادتي !

أني لأفتخر بأنكم اخترتموني مواطناً لكم . ولعلي أول واحد نال هذا المجد العظيم ، إذ حزت ثقة هذا البلد الطيب ، فجعلتني عاليه ، أعلاها الله ، واحداً من أبنائها ، وهذا هو شرف آخر جديد اليوم وهو أن تحتفي الجامعة الوطنية وخريجوها بيوبيل الإبن البكر المخلص الأستاذ هاني باز .

يقول المثل : « ابنك متى كبر خاويه » ، أما أنا فقد خاويت هاني باز يوم كان على مقعد المدرسة .

كان من تلاميذ الصف المنتهي يوم جئت عاليه ، فرأيت فيه شاباً كلي التهذيب ، لا يطمع في أستاذه إذا ضحك له وتبسظ معه . فطمرت الحفرة التي تفصل المعلم عن تلميذه ، حين رأيت في هاني تلميذاً نجيباً رصيناً . هو يريد أن يتعلم وأنا ما جئت إلا لأعلم .

كان مستشاري في بلد كنت أجهل الكثير من عاداته وتقاليده ، ثم كتب له أن يحمل صليبه ويتبعني ، ولكن ليس إلى الجبلجة ، بل إلى أسمي القمم الإنسانية ، قمة تربية النشء وتعليمه .

وهكذا رافقت الأستاذ أبا حليم مدة ربع قرن . فما رأيت فيه إلا
رجل مروءة ووفاء ، رجل إخلاص لعمله ، غضبته تعبيسة . أو ابتسامة
أفعل من القضيبي والكف ، وأظنه قد قضى هذا الربع قرن - العمر كله
إن شاء الله - فما مدّ يده . ولا استعمل لسانه . ليس هذا بعجيب ، فهاني
ربيكم ومنكم . أيها الأجاويد الكليو الوقار والاحترام .

لقد علمت الأستاذ هاني وعلمي . علمته أنا ما كان يستطيع هو أن
يتعلمه من غيري . أما أنا فتعلمت منه ما لا أستطيع أن أتعلمه من سواه .

تعلمت من مسلك هاني . وحركاته وسكناته . وحديثه وصبره .
كيف تكون أخلاق الجويدين الذين يروضون نفوسهم في خطواتهم على
مكارم الأخلاق . مستيرين بكتب الحكمة التي رأسها معرفة الله . وتوحيده .

أما العاطفة التي أشعر بها الآن . فهي عاطفة أب يقف يوم فرحة
ولد من أولاده . تفرح من الجميع بأيامك يا حضرة الرئيس . وعشت
وعاشت الجامعة الوطنية ، جامعة شمل الأمة .

عاش بنو معروف !

عاش صاحب العيد ليؤدي رسالة العقل والمعروف !

عاليه . ٢٥ - ٥ - ١٩٥٢

الراهب اللبناي

أيها الحفل الكريم .

من عادة الناس أن يقولوا فعل الشكر بعد القداس . أو المناولة ، أو النجاة من مصيبة ، أما أنا ، فبعكس غيري تماماً ، ولذلك أشكر حضرة الرئيس العامل المفضل ، الأب نعمة الله الكفوني . رئيس هذا الدير العظيم . أشكره أولاً لعنايته العظيمة بهذه المدرسة التي يرجى منها الخير للوطن ، وأشكره ثانياً لأنه مكنتني من مخاطبة شبان بلادي . فأسمع كلامي رجال البلاد .

وهكذا أصيب عصفورين بحجر واحد .

اعلموا أنني لا أضرب حجراً واحداً في الجوزة ، بل حجارة ، وأنا متأكد أنني لا أوقع جوزة واحدة لأنهم أسقطوا كل ما فيها ، وأكلوا حتى القشر الذي لا يؤكل .

أظنكم أدركتم أنني ما جئت ألقى عليكم درساً من دروس التعليم وإن فعلت ذلك كنت كمن يهدي إلى دير ميفوق سحارة بندوره وإلى دير حوب كيس بطاطا . ان لكم ، والحمد لله ، أساتذة أكفاء ، يعرفون كما نعرف بضاعة سيويه والكسائي والأخفش ويونس ، ويعلمون من الأدب مثلما نعلم ، وقد رافقوا ، كما رافقنا . ظعائن زهير ، وحلوج طرفة ،

وحطوا الرحال حول بركة دارة جلجل . فرأوا عذارى امرىء القيس
يرتمين بلحم ناقته ، وشحمها . . .

ومثلنا يعرفون ما عند ابن المقفع من بهائم أذكى وأفهم من كثير من
البشر ، وعلى ضعفها ، وحقارتها لا تحشى الجبابرة فتسقط الأسد في الحب ،
وتوقع الفيل تحت الجدار ، فتأمن ناب هذا ، وخرطوم ذاك .

أما نحن فنخدع مرة ومرتين وثلاث مرات ، ثم نسكت ولا يسمع
لنا صوت ، فتضيع حقوقنا وتؤكل . وحالنا مع أسيادنا كما يقول المثل :
« أسقيك بالوعد يا كمون » .

إذن فلنجعل اليوم بيننا وبين الأدب جداراً . انه موضوع مبتذل .
مثل صلاة مساء الأحد التي كان يعرفها كل ماروني ، فلا يباغ الشماسة
السوغيث ، حتى يشاركهم كل من في الكنيسة بصوت واحد ، أنهر احي
لمفيد يكون .

إذن فلندع الأدب اليوم . فتلك مهمتنا كأساتذة عندما نكون في غرفة
التعليم ، أما في مثل هذا المقام ، فلدينا مواضيع عديدة ، فلنتق منها ما
يعجبنا .

ميفوق ، وحدها موضوع عظيم ، وهي قطعة ثمينة من تاريخنا الخالد .
والراهب اللبناني موضوع أعظم . فالرهبان هم نواة هذا الوطن ، ورواد
العلم والثقافة فيه ، والرهبان ، هم همزة الوصل بين الشرق والغرب .
ولا يقل الإكليروس ، وماذا أبقيت لنا ، فهم أيضاً رهبان من الخوري
إلى البطريرك . ثم لنا موضوع آخر نحس به جميعنا إحساساً عميقاً ، مؤلاً ،
مبكيًا ، مضحكًا ، وهو حالتنا الحاضرة . إذن فلنتق . . .

نبلغ هنا حلاً طريفاً ، نقدم له بحكاية لا بأس بأن تسمعوها .
حكى ان رجلاً دعا طبيباً لزوجته ، وكان ينتظر ساعة الخلاص منها .
تمنى أن يقول له الدكتور : « بنت عمك تموت بعد يومين أو ثلاثة » .
وجاء الحكيم وقال له تلك الكلمة . فأراد صاحبنا أن يحثي به . حلوان
تلك البشارة ، فكاد يطلع من ثيابه فرحاً .

فقال للطبيب متخياً . حكيم . غداك دجاج . نقّ واخترّ . دجاجة
محشوة . أم دجاجة محمرة . وقبالتها رز ؟ خذ حريتك . أنا لا فرق عندي .
كله أكل من خيرك .

وكان الطبيب ابن كار . خفيف النكته مثل صديقنا الدكتور عيسى .
وهو طبيب البيت من زمان . فقال للرجل : المرحوم الوالد كان يعمل التتبين .
ونحن يا إخواننا سنفعل ذلك . نضرب الاعتر بالأبلق . ونخلط الموضوع
فيكون ميفوق والراهب اللبثاني وما يشغل البال من الأحوال .

كان المرحوم الخوري يوحنا سعادة من بجه كاهناً جسوراً ، حر القول
والعمل . عالماً باللغة السريانية كالكفري والقرداحي . وكان كهنة زمانه
يسألونه ما يشكل عليهم منها . وكانت « النعوة » في ذلك الزمان سوق
عكاظ الحوارنة ، يتذاكرون فيها اللاهوت والطقسيات وغير ذلك . وقد
شهدت أنا معارك عديدة من هذا النوع . كادت تمتد بها الأيدي إلى اللحى .

ذهب الخوري يوحنا سعادة إلى نعوة في إحدى القرى الكبيرة ، وكانهم
غفلوا عن دعوته إلى الغداء في المكان اللائق . فما انتهى الجناز حتى انسل
من الكنيسة عائداً إلى ضيعته .

وكان الفتيان الذين يتعلمون السريانية يراقبونه ، و ينتظرون الساعة
المواتية ليطرحوا عليه أسئلتهم . فمشى الخوري ومشوا وراءه .

سأله واحد ، قريته « من أين يا معلمي ، « وعين » من أين ؟

فأجابه الخوري :

فقال طالب بسيط : « وارحم علاي » من أين ، فهز الخوري برأسه ،
وأجاب عن هذا السؤال الركيك .

فسأله واحد آخر : « وآخ » من أين يا معلمي ؟

فقال الخوري : يا ابني ، آخ من ضيعتكم . . . ومضى لا يلوي على
شيء ، ولا يرد على أحد .

وأنا يا اخواني . كمواطن لكم . أقول قول الخوري حنا سعادة :
أخ من بلادنا . وأعني ببلادنا هذه البقعة المنسية . وإذا فصل بيننا نهر
المدفون فقد جمعتنا المصيبة . فنحن في الهوى سواء .

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام .

أو كما قال داود عمون :

أحب بلادي على رغمها وإن لم ينلني سوى عارها

إن هذه البقعة ، هي مهد الطائفة المارونية ، هي عربن الأسود الأوائل

الذين : افتخر بهم النشيد اللبناني هاتفاً :

سهلنا والجبل منبت للرجال

قولنا والعمل في سبيل الكمال

إني أصدق البيت الأول : سهلنا والجبل منبت للرجال . أما البيت

الثاني : « قولنا والعمل في سبيل الكمال » فأظنكم تنكرونه معي اليوم كل

الإنكار . لأننا أصبحنا ولا قول ولا عمل ، في سبيل الكمال . . .

قلت إن هذه البقعة هي مهد الطائفة المارونية وإليكم الإثبات : أمير
المردة إبراهيم كانت جيبيل كرسى حكمه وابنه وابن اخته بطركنا الأول
يوحنا مارون كان في كفر حى . وبطاركة الطائفة الأوائى ، وعددهم
خمسة وثلاثون وهم . حتى الساعة . لا يزالون أكثر من النصف كانوا
في هذه البلاد . من يوحنا مارون ، البترك الأول . إلى البترك السادس
والثلاثين يوحنا الحاجى كانوا هنا . في كفر حى . ويانوح ، وميفوق ،
وهايىل ، وكفيهان ، وحردين . والكفر .

فبطاركة يانوح - ودير سيده يانوح قرب العاقورة - سبعة عشر .
أول بطاركته يوحنا الثانى . وهو البترك الرابع من بطاركتنا . وفيه يقول
المطران جبرائيل القلاعى اللحفدى زجلاً .

بعده قام مارون ثانى من الدير الربانى
معلم ماهر ملفانى اسمه يوحنا المختار

ثم انتقل البترك الحادى والعشرون . واسمه بطرس ، سنة ١١٢١ .
إلى ميفوق في وادى إيليج .

وجلس على كرسى أنطاكية . بعده ، بطاركة من هذه البقعة وهم
يوحنا من دملصا وغريغوريوس الخالائى ، ويعقوب الراموتى ، ويوحنا
اللحفدى ، وإرميا العمشيى ، ودانيال الشاماتى . ويوسف حليب العاقورى .
ويوحنا الحاجى ، وكان خاتمة بطاركة ميفوق الأربعة عشر ، بترك
حجولا ، الشهيد .

إذن لا أقول إلا الحق إذ قلت ان هذه البقعة هي عش الموارنة ومنها
تفرقت النسور في العالم .

ما رأيت في الشوف والمثن أسرة مسيحية إلا أصلها في هذه البقعة ،

وخصوصاً بلاد جبيل ، فلا تعجبوا إذا قال لنا كل من يرشحون أنفسهم
للنيابة « نحن من بلاد جبيل » ، فقد صدقوا بما ادعوا . وإن لم يصدقوا
بما وعدوا .

وكل يدعي وصلاً بليلى « وليلانا » تقر له بذاكا
أف لك يا ليلي ! مغرورة أنت . انهم يخطبون ولا يتزوجون . . .
ليتهم يذكرون . ولو نثفة . عن ذلك الحب العميق . بعدما رفعناهم على
أكافنا .

لقد جلسوا على الكراسي ولبطوا السلم .

رحم الله شاعركم القديم ، أتعرفون من هو ؟

هو الحوري نعمة الله القدوم العتيق القائل فينا :

يا جبيلي ، أترك عملك . مقطوع املك ابن بلادك قضاها زقاق صحون
بلاد البترون والحب حشوة كبه وديرهن عالمسبه بليشونيهون

إن الشعراء أنبياء ، فهذا كلام قاله هذا الحوري منذ ستين سنة وكأنه
معمول ليقال فينا اليوم .

كانوا في مدرسة مار يوحنا مارون يعملون رياضة روحية ، كل سنة ،
لكهنة القرى المجاورة . وكنا نحضر ختامها .

كان المرشد الحوري نعمة الله أبي كرم - صار مطراناً فيما بعد - فوعظ
وعظة بليغة موضوعها التوبة . ختم بها الرياضة ، وحث الموعظين عليها
بشكل تمثيلي رائع . فقرعت الصدور ، ثم ارتفعت الأيدي إلى الله بالابتهاال .

كنا في الكنيسة ، وحدتي شماس من يجدرقل اسمه ضومط ، فزين
له الشيطان أن يحكي في الكنيسة ، فسألني عن معنى صورة الثالوث الأقدس

المرسومة في حنية المذبح . الحمامة فوق . والآب الأزلي شيخ جليل يقبض على لحيته الطويلة ، وشعرها رافخ بين يديه مثل الحميرة الطالعة ، وابن الله في حضن أمه مريم ملتفتاً إلى الآب الأزلي رافعاً يديه نحوه .

فأجبتة . اسمع يا ضومط . هذا سيدنا يسوع المسيح يترجى أباه فينا . ويقول له بلسان حاك يديه . يا أبتاه أغفر لهم . أراهم تائبين . أما الآب ، يا ضومط ، فيقول له عنا : لا تغتر يا ابني ، أنت صغير السن . لا تعرف البشر مثلي ، احش لحيتي إن كانوا يتوبون .

وأنا يا أصحابي . أقول لكم ، أحش شواربي المحشوشين إن كنا نتوب ، ولا ننعش مرات بعد . وأقطع يميني إن كنا نوحّد كلمتنا . كلنا روس مثل زنابيط البصل ، ولذلك ضاعت حقوقنا . وتركت بلادنا . فلا طرقات ، ولا ماء ، ولا اصطيف ، ولو استطاعوا أخذوا هواء بلادنا النقي . فكل لبنان جنان وفراديس إلاّ هذه البقعة ، فصرنا بعكس قول الإنجيل ، رقعة عتيقة في ثوب جديد .

إن أرز جاج كأرز الباروك ، إن لم أقل أقدم من أرز الرب ، وأين هواء المتين والشوف من هوائنا ، ومع ذلك لا يطل علينا أحد ، ولن يطل أبداً إذا بقينا نعيش على الوعود .

المسيح ، وهو أبو الرحمة لا يعطي بدون طلب ، ولذلك قال : « اطلبوا تجدوا » ، فكيف نأمل أن يعطينا أناس لا يفضل عنهم شيء ، ولا يعطون إلاّ بالدبوس ؟ . . فهل من يطلب منا ؟ هل من يحتاج ؟ لا تناموا على الوعود .

لا يشد بالبقرة غير صاحبها ، فهل لبقرتنا صاحب ؟

كان عند فلاح بقرة ، فأرسلها يوماً ترعى بحراسة مار قبريانوس ،

ويوماً بحراسة مار شليطا ، ويوماً بحراسة مار نهرا ، فكانت البقرة ترعى وترجع .

وأخيراً أراد الرجل أن يرسلها بحراسة جميع القديسين : فراحت وما رجعت .

وهذه حالنا إذا لم يكن لنا « قديس » في مجلس النواب .

قلت لكم : ما جئت لأحضركم عن الأدب والبيان والنحو . بل جئت لأحضركم وأحرضكم . جئت لأقول لكم من أنتم ، وفي أي معقل من معاقل لبنان تقيمون ، فكونوا أشبال أولئك الأسود الذين تمجد بهم تاريخ لبنان .

جئت لأحدثكم عن ميفوق ، عن هذه التربة المقدسة التي يمتزج ترابها بأقدس ذخائرنا . فما بطاركتنا وأساقفتنا ورهباننا إلا بُناة استقلال لبنان . شادوه على الصخرة الثابتة التي أقام عليها بنيانه الراهب الأول ومُزج طينها بدماء رهبانه الثلاثمائة والخمسين .

جئت لأحدثكم عن أولئك الآباء القديسين « شهدائنا الأول » الذين لاذوا بالكهوف ، ورحبوا بالاضطهاد ، ولم ينزلوا عن استقلالهم دقيقة واحدة .

قعدوا بالمرصاد للفاتحين ، فصدوهم ، وللطغاة فغلبوهم .

مظلومة ميفوق ، يذكر الناس ، متى ذكرت ، خصب أرضها وغزارة مائها ، الخيار والكوسى ، والبندوره ، والباذنجان ، والملفوف والبطاطا ، والسلق والبقلونس .

وإذا أطنبوا في مدحها قالوا : فيها دير عظيم ، دير مضياف ، أبوابه مفتوحة لجميع الناس على السواء ، العوام يأكلون فيه ويشبعون ، والأعيان

يلاقون ما يرضي كبرياءهم .

أهذي كل ميفوق .

إنك لمظلومة يا ميفوق .

لا يذكر الناس أبداً عظام الشهداء المبعثرة هنا وهناك . لا يذكرون
انه يرقد فيك اثنا عشر بطريقاً .

أنهم لا يعلمون ان تلك الكنيسة الحقيرة . السيدة القديمة ، كانت
تنحني فيها أكبر الرؤوس اللبنانية بتقوى وخشوع .

لقد صدق الشاعر العامي الغرزوزي - بو خليل - حين قال رده
المشهورة عن غير علم بتاريخها :

يا طير كيفما اندرت علي لفوق واهتف بصوتك مثل صوت البوق
وقول لأهل الأرض يجتمعوا والملقى في سيدة ميفوق

رحمك الله يا أبا خليل ! إن مجد لبنان كله قد اجتمع هنا . « ابقورا
دلبن نتيهب لسخ » فهذه القرية كانت مجتمع القناصل و مندوبي الدول
في الملمات ، وفي أخرج ساعات تاريخ الطائفة يوم نزل البطررك يوسف
اسطفان بسبب هندية المشهورة كان مجمع ميفوق الشهير في تاريخنا .

أجل ! إن هذه الحجارة التي حولكم تتكلم . لها السنة فصيحة فاصغوا
إلى كلامها .

إنها تحدثكم عن بطاركة ميفوق القديسين ، وعن حكامها الحماديين
الوهابيين .

إن قبر الشيخ إسماعيل حماده ، على رمية حجر من هنا . وجدودنا
يذكرونه . ففي عهد الأمير يوسف الشهابي وعهد الأب العام إقليمس

المزرعاني . ومديره الأب مرقس الكفاعي . صارت ميفوق وجميع ديورة
بلاد جبيل والبّرون للرهبان الذين حافظوا على هذه الوديعة .

« اخلع نعالك فالمكان مقدس » !

هكذا سمعت الشاعر يناجيني حينما دخلتك يا ميفوق !

إن رائحة عطرك الخالد يحملها إلى النهر الواقع شمالي بيتي متى سال .
ومن هنا يذهب إلى البحر ليتمترج بمياه حوض المتوسط ويبلغ ضفاف روما
فيذكرها دائماً وأبداً بعبير الوردية بين الأشواك بعبير طهارة إرميا ، ودانيال
وبطرك حجولا الذين تكسرت مراكب حياتهم على الصخرة البطرسية .
فجمعوا بين أرجوان الاستشهاد . وأرجوان البطركية ، وماتوا وهم يهتفون :
« إيمان بطرس إيماني » .

فهل من يذكر إن نفعت الذكرى ؟ وإذا لم تنفع غيرنا فلا شك أنها
تنفعنا نحن .

أجل ! إننا في بلد مقدس . في حرم الطائفة المارونية .

إنكم تمشون على قبور محرري لبنان وبناءة استقلاله .

وهنا يصح أيضاً مع صاحب النشيد اللبناني :

ملء عين الزمن سيفنا والقلم

فأين القلاعي ، واللحفدي ، والحاقلاني ، والتولاوي ، والسمعاني
من كبار وعلماء الدهر كانوا من هذه البقعة .

غريب جداً أمر هذه البقعة . ففيها المسلم ، والشيعي ، والماروني ،
والأرثوذكسي ، فيها من كل الملل .

وفيهما الجامع والكنيسة جنباً بلجنب ، يجتمع فيها ما لا يجتمع في لبنان كله .

فيها البدو والحضر . ومع ذلك ليس من يفكر فيها فهي في مؤخرة
لبنان عمرانياً .

واليوم قلت : ان مارون عبود المعلم . تركناه في عاليه . وجاءكم
مارون . ابن حنا . من عين كفاح . مارون عبود الذي هو منكم
وفيكم . جاء يزيدكم علماً بما يعرفه كل لبناني . على اختلاف الملل .
فجدودنا كان شعارهم كما هو شعاركم . « أحب قريبك كنفسك » .
فلا فرق بين ملة وملة . الكل للبنان . ولبنان لكل ، وكلنا فداه .

أعترف لكم ، برغم شيبتي . ما زالت نفسي مثل بساتين ميفوق .
قد ربيت في حضن شيخ لا يمحي سواد ثوبه من ذاكرتي . ولا تذهب
رائحة عهده العتيق من أنفي .

إن رائحة جوخته الرصاصية ما زالت تذكرني أيام صبوتي . وأيام
فتوتي . ولذلك عدت بكم إليها .

لا تظنوا ان حضرة رئيسكم الجليل النشيط دعانا وغدانا . فاشترانا ،
فقلنا ما نقول . إننا ننطق بما نعلم . ولسنا نقول غير الحق .

إننا لا نبيع لساننا بغداء كما باع عيسو بكوريته بأكلة عدس .
ولكنه الواجب اللبناني يقضي علينا أن نفي ميفوق حقها .

لا خيل عندك تهديها ولا مالٌ فليسعد النطقُ إن لم تسعد الحالُ
فبيننا وبين هذا الدير خبز وملح ، والديورة كلها منا ولنا ، وهي
ملجانا في الضرورة القصوى ، فلنسح لإغنائها ونخدمتها أصدق خدمة .

هي حصون لبنان في الأمان وقلاعه اليوم .

ليتكم تطلعون على كتابي « الإكليروس في لبنان » لتعلموا إنني لا

أتغير ، فأنا أعترف بالحق ، وأحتج بملء قوتي على المساوية ، وما قصدي
في الحالين غير الخير العام .

إذن لا تشكوا فيّ .

الآن جاء دور الراهب . الراهب - كما قلت - قديم جداً ، من جيل
الحبز ، فهذا امرؤ القيس يقول في البرق :

بضيء سناه أو مصابيح راهبٍ أمال سليطاً في الذبالِ المقتلِ

ويشبه أيضاً وجه حبيته الذي ينير البيت فيغني عن السراج .

« منارة ممسى راهب متبتل » .

حتى إذا جاء النبي العربي (صلى الله عليه وسلم) عرف راهب بحيراء
المشهور ، ثم كانت المغازي النبوية ، فأوصى محمد باحترام الرهبان
وصوامعهم .

ثم يأتي العصر العباسي فنسمع حتى الشاعر الخليل ، أبا نواس ، يمدح
الرهبان مدحاً طريفاً ، فيقول :

يا دير حنة من ذات الأكيراح - من يصح عنك فإني لست بالصاحي
دع التشاغل باللذات يا صاح - من العكوف على الريحان والراح
واعدل إلى فتية ذابت نفوسهم - من العبادة نحف الجسم أطلاق
لم يبقَ فيهم لرائيهم إذا حصلوا - خلاف ما خوفوه ، غير أشباح
تلقى بهم كل محفو مفارقه - من الزهادِ عليه سحق أمساح
لا يدلّفوا إلى ماء بآنية - إلا اغترافاً من الغدران بالراح .

وأظنه حصل على دورق نبيد عتيق ، كما لقيت أنا في ذلك الزمان ،
زمن الشباب ، حفاوة من القس مخايل راشانا في هذا الدير .

كان أبونا مخايل من نوابغ البخلاء . ولكنه كان خفيف الروح : فقال
لي على الغداء: عملت لك أكثر من اللازم : لأنكم أنتم الجورنلجية مثل
بو ناعسي .

وإذا تقدمنا خطوات في التاريخ العباسي سمعنا ابن الرومي يقول في
الرهبان أيضاً :

| | | |
|----------|--------------|-----------------|
| تتجافى | جنوبهم | عن وطىء المضاجع |
| كلهم | بين خائف | مستجير وطامع |
| تركوا | لذة الكرى | للعيون المتواجع |
| لو تراهم | إذا هم | خطروا بالأصابع |
| وإذا | باشروا الثرى | بالحدود الضوارع |
| واستهلت | عيونهم | فائضات المدامع |

أرايتم هذه الصورة الرائعة للرهبان ؟

ويقول، أيضاً في راهب :

| | |
|------------------------|-----------------------|
| بات يدعو الواحد الصمدا | في ظلام الليل منفردا |
| خادم لم تبقى خدمته | منه لا روحاً ولا جسدا |
| قد جفت عيناه غمضهما | والخلي القلب قد رقدا |
| لو تراه وهو منتصب | مشعراً أجفانه السهدا |
| كلما مرّ الوعيد به | سح دمع العين فاطردا |
| ووهت أركانه جزعاً | وارتقت أنفاسه صعدا |

وابن المعتز يذكرهم أيضاً ويصفهم وصفاً ينطبق كل الانطباق على
رهباننا نحن :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| سقى المطيرة ذات الظلّ والشجر | ودير عبيدون هطال من المطر |
| فطالما نيهتني للصبوح بها | في غرة الفجر والعصفور لم يطر |

أصوات رهبان دير في صلاتهم سود المزارع نغارين في السحر
مزنرين على الأوساط قد جعلوا على الرؤوس أكاليلاً من الشعر
هذا هو الراهب في الأدب العربي الذي تتعلمونه . أما المعري ، الفيلسوف
الضريير ، فيقول فيهم :

ويعجبي عيشُ الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائج
لييك أيها الضريير فهذا هو راهبنا .

الراهب اللبناني قضى ويقضى حياته عاملاً بين الدير والحقل . والعلماء
منهم أدوا للدنيا والدين أجل الخدم . فلولا الرهبان والديورة ، لما وجدت
اللغة التي قلت فيها شعرك مكاناً تسند إليه رأسها يوم قهرتها اللغة التركية
في مكة .

ولولا الراهب والدير لظلت الأمية مهيمنة على الناس ، ولم يكن هذا
الرقى في لبنان . فهم الذين نقلوا علوم الشرق إلى الغرب . وجاؤوا بعلوم
الغرب إلى الشرق .

هم الذين طعموا ثقافتنا فكانت شجرة عجيبة ، أصلها ثابت وفرعها
مديد .

فأول مطبعة في الشرق كانت للرهبان .

والرهبان هم نساخ الكتب وحفاظها .

والرهبان هم رسل المدنية والثقافة ، فخذ كل دير كانت تقوم مدرسة .
ولماذا لا تقول أكثر من هذا ؟ لولا الرهبان والديورة لما كانت هذه
القرى والداكر والمدن ، فالدير أصل الضيعة اللبنانية .

يقوم دير على جبل فيلتنف الناس حوله ، وينهض الرهبان الأبطال
للكفاح والنضال في عهد الاضطهاد والاستبداد ، فيشيدون القرى ويقومون

النفوس الضعيفة ، فتثبت في ميادين المقاومة . وهكذا نشأ الاستقلال اللبناني ،
وهكذا حفظ وسيحفظ إن شاء الله .

إن الديورة هذه هي العمران اللبناني . ورجالها هم رجاله .

كان الراهب كاهناً في ديره ، وفلاحاً في أرضه ، وكان نجاراً ، وكان
حياكاً ، وكان عماراً ، وكان إسكافاً ، وكان قبيوناً .

كان راهبنا كل شيء فكون الوطن الذي نعرفه باسم لبنان .

كان رسولاً بين الشرق والغرب فنور العقول ، فراهبنا هاجر إلى
الأندلس ليرى الآثار القديمة العربية ، فخدم لغتنا خدماً لم يقم بها من يدعي
أنه ابنها البار .

إن أبا العلاء لما قال بيته . مستثنياً ، لم يكن يعرف الراهب اللبناني ،
كما نعرفه . لم يكن يعلم أن القس مرقس الكفاعي ، عندما جاءه نبأ انتخابه
رئيساً عاماً ، كان يفلح تحت دير معاد ، كما خبرني جدي والقس الياس
المعادي بعده .

شق عليه جداً أن يترك الصند والنير . ويلتفت وراءه ، ولكنها الطاعة .
فأذعن لإرادة الله ، وجاهد رئيساً عاماً نحو عشرين عاماً .

ولئن كانت حالة الرهبان قد تطورت مع الزمان ، فما نحن ما نزال
نراهم اليوم يفتحون المدارس العالية ، مثل هذه المدرسة ، التي يرتجى
منها أعظم منفعة للبلاد .

نراهم ينصرفون إلى الأعمال التي تلائم روح العصر . ولم يزل فيهم
من ينصرف إلى الحقل . وبعرق جبينك تأكل خبزك .

فما أكثر شهداء الرهبان في سبيلك يا لبنان ، فهل تذكرهم ؟

إنهم لا يحرصون ! قد استشهدوا من أجل الدين والعلم والعمران ، في
سبيل لبنان . ولو أنصنهم الوطن اللبناني لرفع على أعلى جبل منه تمثالاً
أضخم من تمثال حريصا للراهب المجهول . . .

هذا هو الجندي المجهول حقاً ، فلنعظمه . فالرهبان هم جنود لبنان .
وعليهم قام كيانه . فلو جبن الرهبان في تلك الأيام العصيبة السوداء
وهاجروا ، لما كان شيء منك اليوم يا لبنان .

لبنان ! يا ابن الراهب اللبناني ! ليس هذا الدير وحده مدرسة لبنيك .
بل كل دير كان مدرسة . مدرسة للعلم . مدرسة للأخلاق . مدرسة
للعمران .

إن كهرباء اليوم هي بنت شمعة الراهب وفانوسه . فلولا ذلك الضوء
اضاع العلم وغرقت الإنسانية في الظلمات .

فيا أيها الأبناء . لا تخافوا . كونوا شجعاناً كرهبانكم .

إن الذين فكروا في استعبادكم بادوا وبقيم .

فأين الممالك . وأين الأتراك ؟

إن الأمم لا تموت . لا يهلكها إلا داء واحد : « هو داء القلب . . .

فما زال القلب يضرب ضربات إيمان فلا موت .

« آمن بالججر تبرأ » .

هكذا يقول المثل ، فإن آمنتم بأنفسكم لا تغلبوا ولا تقهروا . والسلام

عليكم .

محتويات الكتاب

القسم الاول

| | |
|----|----------------|
| ١٣ | كلمة |
| ١٦ | نشيدان |
| ١٧ | انشودة الشياب |
| ١٨ | ذكرى وشجون |
| ٢١ | محمد مارون |
| ٢٤ | اول نيسان |
| ٢٦ | رسول الغد |
| ٢٩ | رمز الظلود |
| ٣١ | نهضة الشرق |
| ٣٤ | ابن الاعارب |
| ٣٦ | ذكرى الشهداء |
| ٣٨ | بابل الأديان |
| ٤١ | الأربعون |
| ٤٢ | العاصفة |
| ٤٥ | النبي محمد |
| ٥٥ | الصليب |
| ٦٠ | دمعة الارز |
| ٦٤ | اللوعة الخرساء |
| ٦٦ | توحيد واتحاد |

القسم الثاني

كتاب الشعب (٧٣ - ١٤٧)

| | |
|----|----------------|
| ٧٥ | كلمة في الكتاب |
| ٧٦ | الى الشعب |

٨٥
٨٢

الشرق يستنير
كلمات مؤمن

القسم الثالث صور ومقالات

١٥٢

صوت من السجن

القسم الرابع مفاور الجن (١٩١ - ٢٦٦)

القسم الخامس

٢٦٦
٢٧٨

يوم الاونسكو
الادب العربي في آثار اعلامه
نقد لكتب ظهرت

القسم السادس خطب

٢١٢
٢١٨
٢٢٢
٢٢٥
٢٣٠
٢٣٥

النبي محمد
في يوبيله القضي
في ذكرى الخوري يوسف الحداد
الذروز
يوبيل تلميذي الشيخ هاني باز
الراهب اللبناني

